المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

ببيتا خيمنث

خوان باليرا

ترجمة: ثريا سعد الدين

1224

مراجعة وتقديم
محمد أبو العطا

الإبداع
القصصى

ببيتا خيمِنث

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: ١٢٢٤
- ببيتا خيمنث
- خوان باليرا
- ثريا سعد الدين شلبى
- محمد أبو العطا
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٨

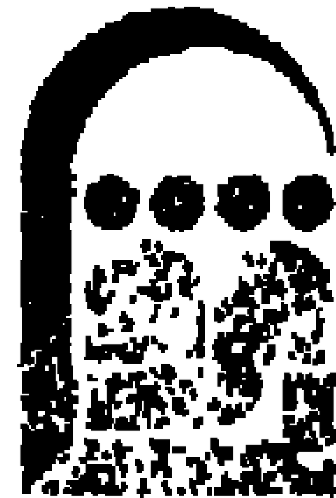
هذه ترجمة رواية:

Pepita Jimenénez
Por: Juan Valera

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ـ ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426
Fax: 27354554

ببيتا خيمنث

تأليــف: خــوان بالـــــــيرا
ترجمـــة: ثريا سعد الدين شلبى
مراجعة وتقديم: محمد أبو العطا



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

باليرا ، خوان
بيبتا خيمنث : تأليف : خوان باليرا ؛ ترجمة : ثريا سعد الدين
شلبى ؛ مراجعة وتقديم : محمد أبو العطا
القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨
٢٧٢ ص ، ٢٠ سم
(أ) القصص .
(ب) باليرا ، خوان (مؤلف)
(جـ) سعد الدين ، ثريا (مترجم)
(د) العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٦٦٣٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 857 - 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتوى

مقدمة المراجع

من الغريب أن القارئ العربى لم يقترب بعد - رغم الهياج الترجمى فى الوطن- من الرواية الواقعية الإسبانية المجيدة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. من الغريب أن أحدًا من المترجمين المحترمين لم يتصدَ - مثلاً - لرواية "امرأة القاضى" (ليوبولدو آلاس "كلارين"، ١٨٨٤) أو "فورتوناتا وخاثينتا(*)" (بنيتو بيرث جالدوس، ١٨٨٦-١٨٨٧). بيد أنه لمن الطريف والسار كذلك أن من بين ما يحسب للأستاذة الدكتورة ثريا سعد الدين أنها، إلى جانب نقلها رواية ببيتا خيمنث إلى العربية، قد ترجمت من قبل عملين فاصلين، وكلاهما للإسبانى رامون ماريا دل بايي-إنكلان (خير من خط بيده أحرفًا إسبانية فى العصر الحديث): "أضواء بوهيمية" (١٩٢٤)، مسرحية دشنت حينئذ نمطًا دراميًا عبقريًا اقتصر نتاجه على بايي- إنكلان وحده ولا شبيه له، وقد نقل إلى العربية تحت اصطلاح "السخرية أو المسخ التشويهى"؛ ثم "الطاغية بانديراس" (١٩٢٦)، رواية فريدة فى لغتها وأسلوبها وفى اكتمالها دشنت جنسًا فرعيًا فى روايات إسبانيا وأمريكا اللاتينية معروفًا باسم "رواية الديكتاتور"...

(*) صدرت هذه الرواية بالفعل عن المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٨، أى بعد كتابة هذه المقدمة. وصدرت فى أربعة أجزاء بترجمة صبرى محمدى التهامى.

أما كاتبنا خوان باليرا (١٨٢٤-١٩٠٥) فقد كان ليبراليًا معتدلاً ومتسامحًا و"ديكارتيًا متأنقًا" فيما يتصل بالظاهرة الكاثوليكية فى إسبانيا فى القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من بعد الشقة الآن عن الماضي، فقد كانت إسبانيا على مدار العصور وحتى وفاة فرانكو معقلاً عتيدًا للكاثوليكية؛ لذا كانت "المسألة الكاثوليكية" من ضمن اهتمامات المفكرين وشغلهم الشاغل فى بحثهم عن طرائق جديدة ومسارات للمجتمع المدني. ففى مواجهة الفكر الظلامى ظهرت شخصية "المفكر الحر" الذى يراهن على الحرية والديمقراطية والعلم. أتأتى من هنا راهنية هذا النص؟ أتخطئ هنا مقولة ثربانتس "لا طيور اليوم فى أوكار الأمس"؟ هذا ما سوف يجيب عنه القارئ بعد أن يقرأ هذا المترجَم.

ولأن باليرا كان ناقدًا أدبيًا أولاً قبل أن يكون روائيًا، فهو عدو لأية مبالغة فانتازية أو عاطفية ذات أصل رومنطيقي، بل يميل إلى رسم مناخات واقعية محددة، ولكنها أميل إلى المثالية، وشخوص من الواقع – خاصة النسائى منها – تميز الكاتب فى تحليلها نفسيًا. وباليرا له أيضًا أفضل أسلوب أدبى من بين الكُتّاب الواقعيين فى القرن التاسع عشر بعد "كلارين"؛ فهو صاحب عبارة رقيقة وفيض أسلوبى متدفق وولع بدقيق التفاصيل وملاحة أهل الجنوب وخفة ظلهم، ومن ثم متعة قراءته.

وباليرا كاتب روائي خرج من عباءة واقعية العادات والتقاليد ليكتب فيما بعد أعمالاً تنطوى على بعض الطروح النظرية، وهو هنا ينضم إلى ذلك العرض المهيب من كُتّاب الغرب الذين كتبوا روايات بطلاتها نساء (لا أود الخوض كثيرًا فى هذا المنحى؛ لأن المترجمة أعدت دراسة ضافية عن المؤلف والرواية).

والرواية التى نحن بصددها هى - بإجماع النقاد - رائعة أعماله، وتكشف عن براعته الروائية؛ إذ يقدم لنا تنويعات رفيعة من التحليل النفسى على خلفية اختار الكاتب الرواية الرسائلية قالبًا لها.

قد يكون ذلك كافيًا، بيد أنه لم يكفِ باليرا الذى يخط مبكرًا طريقًا لما نعرفه الآن بـ"الميتا رواية" أو "الميتا سرد". فعلى صفحات الرواية، يناقش الكاتب أساليب كتابة الرواية المختلفة بين رومنطيقية وواقعية، ويفرد مساحة لآرائه حول جنس الرواية، يفعل ذلك فى نقاء ودعابة رهيفة. ومن ثم يعود إليه الفضل -هو وأقرانه- فيما حققته الرواية الواقعية الإسبانية من تطور تأسس عليه ما أنجزه روائيو إسبانيا فى القرن العشرين من تطوير وتجديد فى لغة السرد وتقنياته وأغراضه، فقد ابتعدت الأجيال التالية من الروائيين، فى ذكاء ورشاقة، عن الموضوعات المكرورة، فاتخذت المنحى الفلسفى على يدى ميجل دى أونامونو، ومنحى التجديد على يدى بايي-إنكلان، كما سارت فى مجرى الواقعية الأصيل على يدى بيو باروخا.

- والحق أن الأستاذة الدكتورة ثريا سعد الدين، بما لها من طويل باع فى الأدب الإسبانى، وبحكم التخصص الدقيق – فلها أطرؤحة أكاديمية يرجع إليها فى أدب خوان باليرا– قد اجتهدت بالغ الاجتهاد، وترجمت باليرا بعين المتخصص الخبير، وذلك بالثناء أجدر.

محمد أبو العطا

مصر الجديدة – ٢٠٠٧

تقديم المترجمة

"عندما تسمى الفلسفة ببيتا خيمينث
لا تنسى أبدًا"

كلارين

خوان باليرا من رواد المدرسة الواقعية فى إسبانيا التى تسمى بجيل ٦٨، والزاخرة بكتاب مثل جالدوس، وإميليا باردو باثان وكلارين وألاركون وبيريدا. يعد باليرا بعد جالدوس ثانى أهم روائى فى القرن التاسع عشر، وفخر الأندلس، بدأ فقط فى كتابة الرواية وهو فى الخامسة والخمسين من عمره.

ولد فى مدينة كابرا الجميلة، مقاطعة قرطبة، فى الثامن عشر من أكتوبر عام ١٨٢٤، وينتسب والداه إلى العائلات المتميزة فى المنطقة. فوالدته، ماركيزة لابانيجا، كانت أيضًا من عائلة ألكلا جاليانو. ووالده، خوسيه باليرا دى بيانا، موظف بالبحرية.

عاش باليرا فى كابرا فترة كبيرة من شبابه، بالرغم من أنه قضى فترات طويلة فى قرطبة ومدريد ومالقة حيث كان يعمل والده. لا نعلم كثيرًا عن حياة باليرا فى هذه المرحلة من عمره، لكنه كان دائما قارئًا دؤوبًا، نذكر من بعض قراءاته: تاريخ رولان القديم فى ترجمة لبيانوبيا، فولتير، شكسبير، والرومنطيقيين ثورّيا وهوفمان

وسكوت. درس المرحلة الثانوية فى معهد مالقة الدينى، ثم درس القانون فى مدرسة ساكرومونته بغرناطة، وفى جامعات غرناطة ومدريد.

فى ذلك الوقت نشر بعض القصائد فى مجلات أدبية محلية، منها، على سبيل المثال، جريدة "جوادالورث" بمالقة و"الحمراء" و"لا ترانتولا" و"البساتيمبو" فى غرناطة فى عام ١٨٤٤، كلف والده طباعة أولى دراساته الأدبية، كتاب لم يبع منه نسخة واحدة، وانسحب بعدها من المجال.

انتهى باليرا من دراسته عام ١٨٤٦، وانتقل بعدها إلى مدريد. وبفضل علاقاته الأسرية كان دائم حضور الصالونات الأدبية وحفلات الرقص بالقصر الملكى، كما كان يحضر الصالون الأدبى بمقهى "الأمير" حيث تعرف إلى بعض الأدباء. وكانت لديه ملكة اجتذاب الناس فحظى بإعجاب الجميع؛ بعد قليل، بدأ يشعر بموهبته، لكنه لم يستقر على الوجهة التى سيتجهها. أخيرًا، فى أوائل عام ١٨٤٧، حاولت عائلته إلحاقه بالسلك الدبلوماسى، وحصل على وظيفة ملحق بلا مرتب بسفارة إسبانيا فى نابولى، وكان السفير حينذاك دوق ريباس، وظل هناك نحو ثلاثة أعوام. كانت هذه الفترة من حياته هى الأكثر سعادة وحماسة، انسجم كثيرًا مع رئيسه، والتقى علية القوم من مثل ماركيزة "بدمار" وسيدة من روما متزوجة من إسبانى شجعتاه على الكتابة والقراءة بالإيطالية واليونانية. تميز باليرا

برسوخ منحاه الكلاسي، النادر في عصر ما بعد الرومنطيقية. ووضح ذلك في تأثره به سواء في قصائده أم في مقالاته النقدية؛ حيث كان يعبر دومًا عن إعجابه بالمبادئ الكلاسية في الآداب وفي المنطق. كما تعرف على شخصية أخرى في .إيطاليا، الأديب إستيبانث كالديرون الذى كان له تأثير مباشر على باليرا؛ فبفضل قراءاته لـــ"المستوحد" بدأ يهتم بالأدب الإسباني وأدب العادات والتقاليد. بعد ذلك صرح: "إن من عمدني في الأدب وغمر رأسي إلى إخمص قدمي في مياه نهري التاجه والوادي الكبير، وجعلني صلبًا وشامخًا لأكون كاتبًا قشتاليًا (أي كاتبًا إسبانيًا أصيلاً)، في النثر والشعر، هو الشهير دكتور إستيبانث كالديرون، الذي هو بموهبته وعلمه وطريقته في الإحساس والتعبير عما يشعر به، أنموذج يحتذى، خريطة، شفرة الهوية الإسبانية".

بعد ذلك انتقل باليرا إلى لشبونة، عاصمة البرتغال، مع عمه السفير أنطونيو ألكلا جاليانو. هناك، اكتشف جمال المدينة رغم كونها أقل كوزموبوليتانية من نابولي وأكثر هدوءًا. انتقل من هناك بعدها إلى ريو دي جانيرو بالبرازيل، سكرتيرًا بالسفارة الإسبانية، وكان رئيسه هناك خوسيه ديلافات، والذي كانت ابنته دولورس في عامها السابع. بعد خمسة عشر عامًا تزوج منها. وريو دي جانيرو كانت المكان الآخر الرائع، ويوجد صدى هناك في روايته "وجه وموهبة". لكن مناخ المدينة لم يناسب صحته فعاد بعد عامين إلى أوروبا. وعلى

الرغم من أن باليرا أشار فى خطاباته خلال هذه الفترة إلى مشاريع أدبية مختلفة، فإنه لم يحقق فى الواقع إلا القليل جدًا، بعض القصائد فقط.

عند عودته إلى مدريد فى خريف ١٨٥٣، بدأ يتفرغ بجدية للنقد الأدبى. أول مقال له عن قصائد من البرازيل نشر فى "المجلة الإسبانية للعالمين".

وبمضى الأعوام التالية (١٨٥١-١٨٥٣) تعززت مشاركاته بالنقد الأدبى وبقصائده فى المجلة نفسها وفى مجلات أخرى.

نشر مجلدًا شعريًا عام ١٨٥٨، يضم قصائد كان ضمنها مقالاته الأدبية وأخرى نظمها حديثًا. فى ذلك العهد، قام باليرا بنشاطات أخرى، عمل فى وزارة الخارجية، واختير نائبًا فى البرلمان، ثم عمل فى سفارة إسبانيا فى روسيا، وكان يرسل لوكيل الوزارة ، ليوبولدو أوجستو دى كوويتو، رسائل مهمة ومرحة فى الوقت نفسه، يحكى بذكاء شديد مظاهر الحياة الروسية، ويسخر من رئيسه الأبله بلا شفقة.

على مر السنوات العشر التالية استمر نشاطه الصحفى. فى نوفمبر عام ١٨٥٩، أسس مع ألاركون وسانتوس آلباريث ومالدونادو ماكاناث الجريدة الساخرة "لا مالبا" التى لم تستمر سوى ثلاثة شهور، وبعد ذلك بعام شارك أنطونيو ماريا سيجوبيا إصدار مجلة أخرى

فكاهية "الكوكورا". فى أواخر ١٨٦٠، أسس "المعاصر"، جريدة معتدلة برعاية ماركيز سالمنكا، مع خوسيه لويس ألباريدا مديرًا وباليرا رئيسًا للتحرير حتى يناير ١٨٦٣.

عامان من العمل المكثف، فبالإضافة لعمله صحفيًا، كان سياسيًا ونائبًا فى البرلمان. نشر فى جريدة المعاصر مقالات فى السياسة والأدب، ورواية "مارجريتا وأنطونيو" التى لم يكملها. فى عام ١٨٨٤، خرجت للنور دراساته النقدية حول الأدب والسياسة وعادات عصره جمعت فى مجلدين ضخمين، وهى من أحسن المقالات التى كتبها حتى ذلك التاريخ.

فى عام ١٨٦٥، عين وزيرًا فى فرانكفورت، وشغل ذلك المنصب عامًا واحدًا فقط، وفى عام ١٨٦٧، عندما كان يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عامًا، تزوج أخيرًا من دولورس ديلافات. من عام ١٨٦٧ حتى ١٨٧١، ظهرت على التوالى ثلاثة كتب مترجمة من القصائد وفن العرب فى إسبانيا وصقلية للكاتب الألمانى شاك(أى ترجمها من الألمانية إلى الإسبانية).

اعتزل بعد ذلك الحياة العامة، وتفرغ نحو سبع سنوات مكبًا تمامًا على الأدب. إنها الفترة الأكثر خصوبة فى حياته بأكملها، والتى أثمرت خمس روايات: "ببيتا خيمِنِث"، "أوهام دكتور فاويستينو"، "الكوميندادور ميندوثا" "دونيا لوث"، وترجمته من اليونانية لرواية

"دافينس وكلوى"، وبعض القصص القصيرة والمسرحيات ، وبعض الخطب الأكاديمية والسياسية، وحوالى خمسة وعشرين مقالاً من مختلف الأنواع. فى عام ١٨٦٨ أصدر "مجلة إسبانيا"، ورأس تحريرها صديقه خوسيه لويس ألباريدا. خلال عشرين عامًا شارك بمواد شتى للمجلة: مقالات ، تعليقات سياسية، روايات قصيرة، مقاله الشهير "مذكرات حول الفن الجديد فى كتابة القصة"، ورده الشهير أيضًا على إعلان المذهب الطبيعى لإميليا باردو باثان، " القضية النابضة"، وروايتان أخريان. وفي واقع الأمر كان نتاجه الأدبى غزيرًا فيما بين ١٨٧٠ و١٨٨٠، غير أنه لم يكد يحصل منه على أدنى منفعة اقتصادية رغم أن رواياته كانت محل إعجاب النقاد.

بعد ذلك، أصبح مثقلاً بمطالب امرأة مسرفة واحتياجات ملحة فى وجود ثلاثة أبناء، انخرط مرة أخرى فى الحياة الدبلوماسية، وعلى مدى سبع سنوات عمل بالتوالى وزيرًا مفوضًا فى لشبونة (٨١-١٨٨٣)، وفي واشنطون (٨٤-١٨٨٧) وفي بروكسل (٨٦-١٨٨٧)، وبعد غياب ثلاثين عاماً، أعجبته لشبونة كثيرًا عن ذى قبل، ولم ترغب زوجته فى مصاحبته وظلت فى أوروبا، وواشنطون أعجبته أكثر من لشبونة وخصوصًا الحياة الاجتماعية، وكان يتألم من سياسة أمريكا في كوبا والتدخل فى شئونها، مكث بعد ذلك أكثر من عام فى بروكسل، التى عنّت له عاصمة برجوازية وتافهة. على الرغم من أن التزاماته فى هذه المناصب لم تكن كبيرة، وبعيدًا عن

مناخ مدريد الثرى، لم يشعر برغبة كبيرة فى الكتابة، فلم يثمر قلمه الكثير.

عاد بعد ذلك إلى مدريد فى نوفمبر عام ١٨٨٧، واستمر هناك إلى فبراير ١٨٩٣ حين صعد إلى منصب مستشار دولة، ولكنه خصص وقته للنقد الأدبى. من بين أشياء أخرى، كتب أول سلسلتين من "رسائل أمريكية"، نشرت أولاً فى مجلة "إسبانيا الحديثة"، وفى الجريدة اليومية المدريدية "إمبارثيال"، وبعض المواد لموسوعة أمريكا اللاتينية "مونتانير"، وأيَّد كامبوامور فى جدله "حول الميتافيزيقا والشعر".

من فبراير عام ١٨٩٣ إلى يوليو ١٨٩٥، عمل باليرا سفيرًا لبلاده فى فيينا، آخر مهامه الدبلوماسية.

أعجبه جو العاصمة النمساوية كثيرًا، والخطابات التى أرسلها من هناك تحظى بأهمية كبرى.

وفى العقد الأخير من حياته، والذى قضاه باليرا فى هدوء، لم يكن يبرح منزله، وكانت خروجاته الأساسية للذهاب لجلسات الأكاديمية المحببة لنفسه، وكان له صالون أدبى كل أسبوع فى شقته فى لاكويستا دى سانتو دومنجو، واعتاد حضوره أصدقاء العمر، أمثال مننندث بلايو ونارسيسو كامبيو وكونت لاس ناباس وإميليا باردو باثان وعدد من شباب الأدباء، مثل الأخوين كينيترو وألفونسو

دانبيلا وغيرهم. فى أواخر أيامه، فى السبعين من عمره، كف بصره، واحتاج إلى إملاء كل شيء على سكرتيره الخاص بدرو دى لا جالا، لكنها، على الرغم هذه العوائق، كانت مرحلة إنتاج حقيقية. ظهرت ثلاث روايات:" خوانيتا الطويلة"، و"وجه وموهبة"، و"مورسامار"، ظهرت بين عامى ١٨٩٥و١٨٩٩. بالإضافة إلى ذلك كتب بعض القصص القصيرة، وسبع خطب أكاديمية، ومائة وخمسين مقالاً حول الأدب والسياسية والتاريخ، واهتم بالأخص بالقضية الكوبية. وعندما كان يكتب خطابًا أكاديميًا حول "اعتبارات حول دون كيخوتى" للاحتفال بالذكرى الثالثة بعد المائة لهذه الرواية، وافته المنية، وتوفى فى ١٨ أبريل عام ١٩٠٥.

باليرا الكاتب

باليرا مؤلف حقيقى وبارع فى علوم شتى، مارس الأنواع كافة؛ فبالإضافة إلى الرواية، كتب الشعر والنقد والمسرح والقصة القصيرة. ومثل كثير من الأدباء الشبان، بدأ بنظم الشعر، ونشر أول قصيدة له، " فانتازيا"، فى جريدة "جوادالورثي" فى مالقة، فى السادسة عشرة. كان يحلم بالشهرة الواسعة شاعرًا، ونشر ثلاث مجموعات من قصائده – بالإضافة إلى المقالات الأدبية السابق ذكرها والأغانى والشعر الشعبى والقصائد – عام ١٨٨٥. لقد تخلى عن الشعر فقط فى أواخر أيامه ودائما كان يشعر بخيبة أمل لعدم نجاحه كشاعر خصوصًا عندما يرى الثناء الذى يحظى به كامبوامور ونونييث دى أرثي، وشعراء كان يعتبر شعرهم مبتذلاً وسوقيًا. يجب أن نسلم بأن شعر باليرا كان فاترًا، بالرغم من أنه صحيح لغويًا، وكان كلاسيًا محدثًا، وهو الآن فى طى النسيان تقريبًا.

أما باليرا الناقد الأدبى فيحظى بمرتبة أكبر– تقريبًا مثل رجال عصر النهضة– على أن الذى يهمه إجمالاً الأدب والتاريخ والفلسفة والاقتصاد السياسى.

وثقافة باليرا ثقافة جد واسعة؛ فبالإضافة إلى معرفته باللاتينية واليونانية، كان يتحدث البرتغالية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية والألمانية، وله أيضًا معرفة كبيرة بآداب هذه اللغات، وأيضًا ذوق

رفيع واهتمامات كاثوليكية، فضلاً عن نزاهته وعدم تحيزه فيما كان تنقصه فقط الحيوية لكي يكون ناقدًا عظيمًا.

كتب بعض المقالات بتميز حقيقى، من بينها ثلاث حول دون كيخوتى وآخر حول صديقه ورئيسه القديم دوق ريباس، وعن الرومنطيقية فى إسبانيا وإسبرونثيدا.

بيد أن له الكثير والكثير من الأعمال الصحفية، مقالات خفيفة كمعظم رسائله الأمريكية، التى كتبها على عجالة بغرض الكسب المادى المحدود.

بين نقاد القرن التاسع عشر يحتل باليرا مرتبة مرموقة جديرة بالتقدير والاعتبار.

ببيتا خيمينيث هى أولى روايات باليرا وأهمها، نشرت عام ١٨٧٤، عندما كان الكاتب فى الخامسة والخمسين من عمره، نشرت أولاً في مجلة إسبانيا على حلقات من مارس إلى مايو، ثم تحولت إلى كتاب بعد ذلك مباشرة، ومنذ ذلك تضاعفت الطبعات.

عندما ظهرت؛ هوجمت من قبل بعض النقاد والروائيين، فقد نعتوها بغير الأخلاقية، لكنها سرعان ما قوبلت بالترحيب عامةً، وبإعجاب شديد؛ فقد أنصفها جمهور القراء والنقاد بعد ذلك، وعلى مدى قرن استطاعت الرواية أن تحتل مكانًا مشرفًا فى أى منتخب أدبى فى القرن التاسع عشر.

لقد كتبت ونشرت عندما كانت الواقعية فى أوج تألقها، لكن دون أن تكون غارقة بأسلوبها ولهجتها فى الواقعية. وعلى الرغم من أنك قد تجد – فى معظم أعمال باليرا – أن الطابع الذاتى يسم نصوصه الروائية، لا نجد ذلك في ببيتا خيمينث، وإذا استشعرنا بعض نبض شخصيته المباشر ففى العارض فقط من أحداث الرواية.

ببيتا خيمينث هى فى أساسها حدث حقيقى فى حياة باليرا، حدث قريب جدًا منه، وقع لأحد أفراد عائلته الخاصة.

خوان باليرا، حتى عام ١٨٧٤، كان ناقدًا وكاتب قصة قصيرة وأديبًا، ولكنه لم يكن روائيًا، استوحى النص من حدث انتقل من فم إلى فم بين أفراد عائلته، وفى وقت قليل، كانت الرواية واجبة الكتابة فى أواخر ١٨٧٤. فى البداية كان للرواية عنوان غريب، لقد سماها: *Nescit Labi Virtus* [(١)] عنوان غريب جدًا، حتى باليرا نفسه أدرك أن هذا لا يمكن أن يكون العنوان هكذا باللغة اللاتينية؛ لأن معنى هذا أن الرواية لن تجد قارئًا واحدًا يقرؤها؛ بعد ذلك، غيَّر هذا العنوان وسماها "ببيتا خيمينث".

---

(١) العنوان اقتباس لمقولة شاعر الهجاء ديسيموس لونيوس جوفيناليس (أواخر القرن الأول من الميلاد – بداية القرن الثاني): "الفضيلة لا تخطئ". (المراجع)

عن مصادره الروائية تحدث باليرا فى أكثر من مناسبة، فى مقدمة طبعة الترجمة الإنجليزية للرواية، والتى نشرت فى نيويورك عام ١٨٨٧.

يحكى باليرا أن مطالعته الكتب الصوفية الإسبانية التى قرأها فى بعض المناسبات تركت فى نفسه أثرًا عميقًا.

فى تلك الآونة، كانت إسبانيا تغلى خصوصًا فى سنوات ثورة سبتمبر عام ١٨٦٨، العقائد المختلفة تجتاح المجتمع، معارك حول الحركة "الكراوسية" الفلسفية الغربية *Krausismo*، التى رأى فيها باليرا إحياء للمثال الصوفى القديم. وتجده فى دفاعه عن مذهب كراوس -الذى لم يحد باليرا عن السخرية منه- قد أولى اهتمامه لدراسات وأعمال دفعته إلى تبنى هذا الموقف الصوفى الذى هو فى حقيقته، فى نهاية الأمر، وعلى نحو من الأنحاء، أميل إلى العشق الإنسانى.

يؤكد باليرا أنه عزم على ذلك فقط لمواجهة الرجعيين والمتعصبين. لكنه يضيف، فى مقدمة الطبعة الأمريكية: "بما أننى رجل عصرى، دنيوى"، ولست مثاليًا فى حياتى، ومشهور بأننى لا أعتقد، لم أجرؤ على الكلام باسمى، فاخترعت طالب لاهوت لكى يتحدث".

إذن القارئ هنا أمام دراما سيكولوجية، ثقافية أكثر من كونها تأثيرية. رواية "ببيتا خيمينث" هي رواية سيكولوجية مع بعض الملامح من التقاليد والعادات في إقليم الأندلس بجنوب إسبانيا. وببيتا خيمنث رواية رسائلية قوامها خطابات يرسلها البطل إلى عمه الأسقف، يعكس فيها التطور النفسي الذي يعاني منه، والذي هو عقدة الرواية (الصراع بين الشعور الدنيوي والشعور الديني). الرواية مقسمة إلى ثلاثة أجزاء:

١- "خطابات من ابن أخي"، نحو خمسة عشر خطابًا، مكتوبة بصيغة المتكلم ومحددة التواريخ.

٢- "سفر الأيام": رواية يتدخل فيها المؤلف ويحكي الأحداث، حتى تنعكس على تطور النزاع السيكولوجي للبطل، وتحكي في ضمير الغائب.

٣- خاتمة: "خطابات من أخي" تنحصر في مجموعة من الخطابات موجهة من دون بدرو والد البطل إلى أخيه الأسقف.

هذه الخطابات غير مؤرخة، بالرغم من أننا نستطيع متابعة تسلسل الأحداث. من ناحية أخرى، تعد ببيتا خيمينث مرآة تعكس ثقافة واسعة جدًا لباليرا؛ حيث يبرز فيها عوامل ضرورية من وجهة النظر الثقافية؛ لأنها تقدم لنا ثقافة أوروبية واسعة.

فى الواقع، إنه عمل مميز لأديب إنسانى عظيم؛ حيث يستطيع القارئ تقدير التنوع والكم الهائل من الإشارات المختلفة: الإنجيلية والتاريخية والأدبية والثقافية على وجه العموم، والحاضرة بوفرة فى الرواية.

فى ذلك كله، تكمن القيمة الثقافية للرواية؛ فباليرا يجمع على صفحات روايته شخصيات تاريخية (ملوكًا وقديسين) وأساطير (من جالاتيا إلى إيجريا) وأدبية (بباتريس، لورا، دون كيخوتى)... إلخ.

ترجمت هذه الرواية إلى عدة لغات هى: الإنجليزية، الفرنسية، الإيطالية، الألمانية، الروسية، البولندية، البرتغالية. إلى جانب هذه الإضافة؛ الترجمة إلى اللغة الإسبانية التى تعد حلقة الوصل الترجمى بين لغات العالم.

ثريا سعد الدين

خطابات من ابن أخى

٢٢ مارس

عمى العزيز وأستاذى الموقر: وصلت من أربعة أيام إلى هذا المكان الذى شهد مولدى بكل السعادة والسرور؛ حيث وجدت والدى والسيد نائب الأسقف وجميع الأصدقاء والأقارب بصحة جيدة. إن سرورى لرؤيتهم والتحدث معهم، بعد طول غياب، جعلنى شديد الحماسة وسرق الوقت منى، لسوء الحظ لم أستطع الكتابة لسيادتك من قبل.

اغفر لى هذا؛ لأننى قد خرجت من هنا صغيرًا جدًا. وعدت بعد ذلك رجلاً. إن انطباعى لفريد نحو هذه الأشياء التى احتفظت بها فى ذاكرتى، كل شيء يبدو لى صغيرًا عما كان فى مخيلتى، لكنه أجمل بكثير مما كنت أتصور. منزل والدى الذى كنت أتخيله كبيرًا جدًا، هو دون شك منزل كبير لمزارع ثرى، لكنه أصغر بالطبع من المعهد الدينى الذى أدرس به.

إن الذى أفهمه الآن وأقدره تمامًا هو الريف، هنا بساتين الفواكه والأزهار بالأخص مبهجة، يا لها من طرق جميلة جدًا. على جانب الطريق، وأحيانًا على الجانبين تجرى المياه الرقراقة بهمس مفرح. شواطئ الترع (أى السواقى) مغطاة بالحشائش ذات الروائح

العطرة والورود المختلفة الأنواع. يستطيع المرء قطف حزمة من زهور البنفسج فى لحظة. وتنفح أشجار الجوز البهية العملاقة والتين والأشجار الأخرى المختلفة هذه الطرق ظلالاً وارفة، وتحدها شجيرات الورود والرمان وسلطان الجبل. وتترع الطيور الهائلة العدد هذه الحقول والمنتزهات بالبهجة والسرور.

إننى سعيد جدًا بهذه البساتين، وأتنزه بينها ساعتين كل مساء، والدى يريد اصطحابى معه لكى أرى مزارع الزيتون والكروم وجميع القرى الصغيرة التى يمتلكها، لكننا، إلى الآن، لم نرَ بعد أى شيء من هذا. لم أخرج من المكان ولا من البساتين المجاورة إلى الآن.

فى الواقع، إنهم لم يتركوا لى وقتًا للراحة من كثرة الزيارات. حضرت خمس سيدات لرؤيتى، كلهن كن مربياتى، احتضننى وقبلننى، وجميعهن يناديننى بـــ "لويس الصغير" أو بـــ "ابن" السيد بدرو، بالرغم من أننى أتممت عشرين عامًا، وكلهن يسألن أبى عن "طفله" عندما لا أكون أمامهن.

أتصور أن الكتب التى أحضرتها معى لقراءتها ليست لها فائدة هنا؛ لأنهم لم يتركونى لحظة واحدة وحدى. إن هيبة صاحب الأملاك، الذى كنت أتصوره دعابة، وجدتها شيئًا جادًا للغاية؛ فوالدى هو صاحب الأمر والنهى فى هذا المكان.

لا يوجد أحد هنا يفهم ما يسمونه ولعى الشديد بأن أصبح راهبًا، فهؤلاء الناس الطيبون يقولون لى، بكل سذاجة وفطنة، يجب علىّ أن أخلع ثياب الرهبنة، لأنه حسب فهمهم أن يكون المرء راهبًا فهذا شىء حسن للفقراء فقط. لكن أنا بصفتى وارثًا ثريًا يجب أن أتزوج وأرضى شيخوخة أبى بإعطائه نصف دستة من الأحفاد والحفيدات الجميلات والأصحاء، يقول عنى الرجال والسيدات هنا، لكى يتملقوا أبى ويتملقونى، إننى شاب بمعنى الكلمة، ظريف جدًا، خفيف الظل، وأن عينى مليئتان بالخبث وحماقات أخرى كثيرة تضايقنى، مع أنى لست خجولاً وأعرف فى الوقت نفسه تعاسة وجنون هذه الحياة لكى لا يثيرنى أو يفزعنى شىء.

إن العيب الوحيد الذى يجدونه فىّ، هو أننى نحيف من كثرة الاستذكار. ولكى أسمن، يحاولون عدم تركى للمذاكرة أو القراءة، ولو ورقة واحدة طالما أنا موجود بينهم، بالإضافة إلى ذلك، يصرون على أن آكل بعض الأطباق المتقنة الصنع والحلويات التقليدية التى تصنع فى المكان. الأمر واضح: يريدون تسمينى. لا توجد عائلة معروفة هنا إلا وأرسلت لى بعض الهدايا، يرسلون لى تورتة من البسكويت، رقائق سكرية، هرمًا من كعك الموز، برطمانات عسل... إلخ.

وليس فقط الهدايا التى يرسلونها إلى المنزل، بل دعانى إلى مأدبة ثلاثة أو أربعة من أهم شخصيات المجتمع فى المكان.

غدًا سنأكل فى منزل الشهيرة ببيتا خيمِنيث التى ربما سمعت عنها سيادتك، دون شك. لا يوجد أحد يجهل تطلع والدى إلى خطبتها.

والدى، على الرغم من أعوامه الخمسة والخمسين، فى أحسن حالاته حتى إنه يغرس الحقد فى قلوب الشباب الأكثر رشاقة؛ فهو يمتلك قوة جذابة لا تقاوم عند بعض السيدات، وذلك لكثرة نزواته السابقة، ولشهرته، وبأنه كان فى السابق من قبيل الـــ "دون چوان".

لا أعرف حتى الآن ببيتا خيمِنيث. الجميع يأكدون أنها جميلة جدًا. أغلب الظن أنها حسناء فاتنة، قروية. أما بشأن ما يحكى عنها، لا أستطيع أن أقرر، إذا كانت طيبة أو العكس أخلاقيًا، لكن يبدو أنها على قدر كبير من الذكاء الطبيعى، ببيتا تبلغ من العمر عشرين عامًا، أرملة، تزوجت ثلاثة أعوام. هى ابنة لدونيا فرانثيسكا جالبث، أرملة نقيب متقاعد كما تعلم سيادتك: ترك لها عند موته سيفه المشرف فقط إرثًا،

كما يقول الشاعر. عاشت ببيتا مع والدتها حتى بلغت العاشرة من عمرها، تعانى من الفقر المدقع، فى بؤس شديد تقريبًا.

كان لها عم يدعى دون جومرسيندو، يمتلك وقفًا بسيطًا جدًا، وكان من الذين يتباهون فى الأوقات السالفة. شخص عادى، كان من الممكن أن يعيش على إيجار هذا الوقف فى ضيق مستمر، متقلاً

بالديون التى لا تسد، دون أن ينجح فى الحفاظ على البريق والوقار الخاص بطبقته، لكنه كان شخصًا غير عادى، وعبقريًا فى الاقتصاد. لا نستطيع القول إنه خلق ثراء، لكن كانت لديه ملكة الاستثارة بالغير، وكان من الصعب العثور على شخص مثله على وجه الأرض يمتلك المحافظة على قوته وصيانتها ورفاهيتها، والسعى وراء الطبيعة وصناعة البشر. لم يعرف كيف كان يعيش، لكن القصة هى أنه عاش حتى بلغ من العمر ثمانين عامًا، يوفر إيجاراته بأكملها، ويعمل على زيادة رأس ماله بتقديم قروض جد مضمونة العائد. لا يوجد هنا أحد يتهمه بالبخل، على الأصح يصفونه بأنه محب للخير؛ لأنه كان معتدلاً فى كل شىء، وحتى فى بخله، ولم يعتد الحصول على أكثر من عشرة فى المائة سنويًا، بينما كان جميع الناحية يأخذ عشرين وحتى ثلاثين فى المائة ويهيأ لهم أنه ربح قليلاً.

وفقًا لذلك، بهذه المهارة وهذه الحماسة المكرسة دائمًا لإنماء ثروته، وليس لإنقاصها ودون أن يسمح لنفسه بترف الزواج أو إنجاب الأنجال أو حتى التدخين، بلغ دون جومرسيندو ذلك العمر الذى ذكرته؛ وهو يملك رأس مال مهمًا دون شك إذا نظرنا إليه من أية زاوية، وهذا يعد ضخمًا، بالنسبة إلى فقر هؤلاء القرويين، وعلى الطبيعة الأندلسية المبالغة، كان دون جومرسيندو حريصًا ونظيفًا فى نفسه، كان عجوزًا لا يبعث الاشمئزاز فى النفس، ثيابه كانت بالية إلى حد ما، لكن دون بقعة واحدة وتظهر للعيان نظافتها مع أنه، منذ

زمن، لم يعد أحد يذكره، معروف بالمعطف نفسه، الجاكيت نفسه، البنطلونات نفسها. أحيانًا كان البعض يتساءل دون فائدة إذا كان أحد رآه يومًا ما يلبس ثوبًا جديدًا.

بكل هذه العيوب، التى تعد هنا وفى مناطق أخرى فضائل، على الرغم من أنها فضائل مبالغ فيها، كان دون جومرسيندو لديه صفات ممتازة، لطيفاً، خدوماً، رحيماً، يتفانى فى أن يكون مفيدًا للجميع، حتى لو كلفه ذلك عناء وسهرًا وإرهاقاً، ما دام لم يكلفه ذلك ريالاً واحدًا. ولكونه رجلاً مرحًا وصديقًا للدعابات والسخرية، كان حاضرًا فى كل الاجتماعات والاحتفالات، مادام لا يدفع شيئاً، ويفرحهم بفكاهة تعامله وظرفه، ولكن بتحفظ قليل. لم يكن شعوره بالحب نحو امرأة معينة إطلاقًا، لكن ببراءة، وكان يحبهن جميعاً، كان العجوز الأكثر صداقة الذى يغازل الفتيات والذى يضحكهن أكثر حتى لو كان على بعد فرسخ من الناحية.

لقد ذكرت أنه كان عمًا لبيبيتا. عندما كان يناهز الثمانين، كانت قد أكملت السادسة عشر، هو ذو نفوذ وهى فقيرة معدمة.

كانت والدتها امرأة سوقية، ذات أفق ضيق وغريزة فطنة، كانت بالطبع تعبد ابنتها، لكنها دائمًا تشكو بمرارة عميقة التضحيات التى بذلتها من أجلها، ومن الحرمان الذى تعانى منه، ومن الشيخوخة الكئيبة والموت الحزين الذى سيأتيها وسط هذا الفقر الشديد.

بالإضافة إلى ببيتا كان لديها ابن أكبر قد صار عربيدًا كبيرًا في الناحية، مقامرًا ووقحًا، تمكن بعد ضيق شديد من أن يحصل على عمل في هافانا، أدى إلى موته بعد ذلك في قضية ما. هكذا وجدت نفسها وقد تحررت من مشاكله. رغم هذا؛ فبعد إقامة الشاب بأعوام قليلة في هافانا، أدى سلوكه السيء إلى طرده من العمل وإزعاج والدته بإرسال خطابات يطلب منها نقودًا لا تكاد الأم تجد منها ما يكفيها هي وببيتا، كانت يائسة، غاضبة، تلعن حظها ونصيبها بقلة صبر وإيمان، وتعول على إيجاد عمل جيد لابنتها لكي يخرجها من هذه الضائقة. وفي ظروف كانت تكابد فيها الأم شظف العيش، بدأ دون جومرسيندو زياراته المستمرة لمنزل ببيتا وأمها، وبدأ في مغازلة ببيتا بإصرار عنيف ورغبة شديدة على غير ما اعتاد مع الأخريات.

كان – على الرغم من ذلك – بعيد الاحتمال جدًا وغير محتمل تمامًا افتراض أن رجلاً قد تجاوز الثمانين دون رغبة في الزواج، يفكر في هذا الجنون عندما تكون قدماه في القبر، فلا والدة ببيتا ولا ببيتا نفسها على الأقل يشكان أبدا في أفكار دون جومرسيندو الجريئة وهذه حقيقة. لكن هكذا حدث يومًا، إذ أصيبت الاثنتان، الابنة والأم، بالذهول عندما انطلق دون جومرسيندو بكل جدية وتفوّه بهذا النوع من السؤال موجهًا إياه لببيتا:

أيتها الفتاة، هل ترغبين الزواج مني؟

ببيتا، بالرغم من أن السؤال قد أتى بعد مزاح كثير، ومن الممكن أن يؤخذ كدعابة وبالرغم من أنها أيضًا ليست خبيرة بأمور الدنيا، لكن بفطرتها النسائية، خاصة الشابات، وبسذاجة ما، عرفت أن هذا الكلام جاد، وليس دعابة، احمر وجهها مثل الكريز ولم تجب بشيء. أجابت الأم بالنيابة عنها، آمرة إياها:

- بنت، لا تكونى عديمة التربية، أجيبى عمك بما يجب أن تقوليه:

- عمى، بكل ترحاب، عندما تريد سيادتك.

يقولون إن عبارة "يا عم، بكل ترحاب، عندما تريد سيادتك" خرجت حينئذ وعدة مرات بعد ذلك تلقائيًا من بين شفتى ببيتا المرتجفتين فى خضوعها لتوبيخات أمها وخطبها وشكواها بل ولأوامرها.

أرى أننى أسرف فى الحديث إليك عن ببيتا خيمِنِث هذه وعن تاريخها، لكن يهمنى - وأفترض ذلك - أن تهتم، لأن هنا الجميع يأكدون أنها سوف تصبح زوجة أبى وزوجة أخيك.

سأحاول على أية حال عدم التوقف إزاء التفاصيل بل التحدث فى أشياء مختصرة، ربما سيادتك تعلمها بالرغم من عدم حضورى إلى هنا منذ فترة.

تزوجت ببيتا من دون جومرسيندو.

انتشر الحقد ضدهما فى الأيام التى سبقت الزفاف وبعض الشهور بعد ذلك.

القيمة الأخلاقية لهذا الزواج كانت – فى الواقع ودون جدال – أكثر للفتاة، التى استجابت لتوسلات أمها وشكواها، حتى أوامرها، نعم، اعتبرت أنها بذلك تهيئ لوالدتها شيخوخة هادئة وتجنب أخاها العار والفضيحة، فكانت ملاكه الحارس؛ ومن وحى العناية، لذا فإن الفتاة تستحق تخفيف الاتهام.

من ناحية أخرى، كيف لنا أن نخترق أو نتوغل فيما هو من صميم القلب، فى السر المختبأ فى عقل شابة، فتاة بكر، من الممكن أن تكون نشأت فى عزلة وتجهل كل شىء، ولا فكرة لها عن الزواج؟ ربما كانت تفهم أن الزواج من ذلك العجوز هو أن تكرس حياتها لرعايته، تمرضه، تلطف أواخر سنوات عمره، لكى لا تتركه – فى وحدة وإهمال – يقترب وحده من العلل والسقم، بل تعاونه يد مباركة، تنير وتلهم آخر فترة من عمره بشعاع رائع ولطيف من جمالها وشبابها مثل الملاك فى هيئة إنسان. فإذا كان شيء من هذا هو ما فكرت فيه الفتاة، ولم تتوغل براءتها في أسرار أخرى، يظل ما فعلته من قبيل طيبة القلب.

مهما يكن، لنترك هذه التحريات النفسية جانبًا، فليس لى النهوض بها، لأننى لم أعرف ببيتا خيمِنِث، لقد عاشت حقيقة فى

سلام مع هذا العجوز ثلاثة أعوام، كان هذا العجوز يبدو فيها أكثر سعادة من أى وقت مضى، وكانت هى ترعاه وتلاطفه بعناية فائقة، وفى أواخر مرضه المؤلم قامت على خدمته، وسهرت الليل دون ملل وبعاطفة حنون؛ حتى توفى بين يديها تاركًا لها ثروة كبيرة.

على الرغم من مرور أكثر من عامين على وفاة والدتها، وأكثر من عام ونصف العام على ترملها، مازالت ببيتا ترتدى ملابس الحداد. إن من ير هدوءها وحياتها المنعزلة وحزنها هُمَّ لدرجة قد يخالها تبكى موت زوج شاب جميل. أحيانًا كان يظن بعض الناس أن كبرياء ببيتا بعد أن أصبحت غنية قد أبدلت ضميرها؛ فصار مختلاً ومتشككًا، وأنها لخجلها من نفسها ومن الرجال، تبحث عن التقشف والانعزال عزاء أو سلوى كى يبرأ جرح قلبها.

هنا، مثلما يحدث فى كل الأماكن، يولع الناس بالمال. لقد أخطأت بقول "فى كل مكان". ففى المدن الآهلة بالسكان، فى المراكز الحضارية الكبيرة، ثمة مزايا أخرى يُطمح إليها أكثر من المال، لأنها تمهد الطريق وتعطى صيتًا واعتبارًا للإنسان فى الدنيا، لكن فى القرى الصغيرة فلا أمجاد أدبية أو علمية، ولا رفعة فى السلوك، ولا أناقة، ولا رصانة أو رقة فى المعاملة، ولا توجد درجات أخرى تسجل الطبقات أو الرتب الاجتماعية إلا لمن يمتلك قدرًا أكثر أو أقل من المال أو أى شىء ذى قيمة وشأن.

لذا فإن ببيتا بما لديها من مال وجمال وحسن تصرف – كما يقال– في ثروتها؛ هى اليوم موضع احترام الجميع، لذلك حضر من هذه القرية ومن كل المدن المجاورة أكثر الرجال مكانة وتألقًا، وشبان من أعلى الطبقات، لكن – كما يبدو – صدتهم جميعًا بعذوبة بالغة، فلا تحاول خلق أعداء لها وتصطنع أن نفسها مفعمة بالتقوى والورع وأن تفكيرها دائم فى تكريس حياتها لفعل الخير وتقوى الله والبر.

ووالدى لا يبزُّهم فى ذلك، ولم ينل منها مطلقًا أكثر من غيره – حسبما يقال – من الخطاب الآخرين، لكن ببيتا، التى تعمل بالمثل القائل "إن الشجاعة لا تكون على حساب اللياقة" ، تعمل على إظهار أشد صنوف الصداقة شفافية وتعاطفًا ونزاهة، تتخلص معه من المغازلات ولفت الأنظار، وهى دائماً، لأن والدى يحاول التحدث معها عن الحب؛ تضع لذلك حدودًا فتؤنبه فى عذوبة؛ تذكره ذنوبه الماضية، وتحاول أن تكشف له زيف الدنيا وأبهتها الزائلة.

أعترف لسيادتك بأننى قد أصبح لدى فضول لمعرفة هذه المرأة؛ من فرط ما أسمعه عنها. ولا أعتقد أن فضولى بلا أساس أو ينطوى على باطل أو على شيء آثم، أنا نفسى أشعر بالذى تقوله ببيتا، أنا نفسى أرغب فى أن يقبل والدى، فى عمره المتقدم، على حياة أفضل، فينسي ولا يجدد قلاقل وعواطف شبابه، لكى يصل إلى شيخوخة هادئة، سعيدة وشريفة.

أختلف فقط مع إحساس ببيتا فى شىء واحد؛ فى اعتقادها أن والدى، بدلاً من كونه أعزب، يجب أن يجد زوجة فاضلة طيبة تحبه. من أجل ذلك نفسه، أرغب فى التعرف إلى ببيتا لأرى هل يمكن أن تكون هى هذه السيدة، هذا يهمني، وإن شاب ذلك بعض من الكبرياء العائلية فإذا كان شرًا أرغب فى نبذ أى ازدراء من جانب الأرملة الشابة المذكورة، مهما تكن عذوبته وحلاوته.

لو كنت فى ظروف أخرى، لفضلت أن يظل أبى أعزب، فلكونى الابن الوحيد، سوف أرث إذن كل ثروته، وتقريباً، لا أقل من منصب زعيم ملاك الدائرة. لكن سيادتك تعلم ثبات قرارى.

وعلى الرغم من أننى مازلت غير مؤهل لذلك ومتواضعًا، أشعر بانجذابى نحو الرهبنة ولا تأثير لنعيم الدنيا إطلاقًا على نفسى. لو يوجد شىء فى نفسى من الحماسة التى تعترى مرحلة الشباب ومن شدة العواطف الخاصة بهذه المرحلة، كل ذلك يجب استخدامه أو استغلاله فى تعزيز البر والصدقة المفيدة والمثمرة؛ حتى الكتب الكثيرة التى أعطيتنى سيادتك إياها لكى أقرأها، ومعرفتى بتاريخ الحضارات القديمة لشعوب آسيا تثير فى نفسى الفضول العلمى والرغبة فى نشر العقيدة المسيحية، وتدعونى وتحرضنى على الذهاب مبشرًا إلى بلاد الشرق البعيدة.

أعتقد أننى ما إن أخرج من هذا المكان، حيث أرسلتنى سيادتك بنفسك لقضاء بعض الوقت مع والدى، وما إن أبلغ شرف الرهبنة، وبالرغم من أننى جاهل ومخطئ، أشعر أننى قد منحت هبة خارقة للطبيعة، من لدن المولى سبحانه وتعالى، ملكة التسامح عن الأخطاء والذنوب ومهمة تعليم الناس؛ ما إن أتلقى المعروف الدائم والمعجز بين يدى الدنستين نفحة الإله نفسه، سوف أترك إسبانيا وسأذهب إلى أراض بعيدة لأبشر بالدين المسيحى، لم يحركنى بذلك أى غرور، ولا أريد الاعتقاد بأننى أعلم أكثر من أى رجل آخر، إنها قوة الإيمان وشعورى المستمر بأننى أهل لذلك كله، بعد الفضل والنعمة لله، أدين بذلك للتربية السليمة، للتعاليم المقدسة، وللمثل الحسن، لمثل سيادتك يا عمى العزيز.

لا أستطيع أن أبوح لنفسى تقريبًا بشيء ما، لكنه ضد إرادتى، هذا الشيء، هذا التفكير، هذا الإفراط فى التفكير، يجول بخاطري. وما دام يجول بخاطري، يجب أن أعترف لسيادتك به، فليس من حقى إخفاؤه عنك. فأنت قد علَّمتنى تحليل كل ما يدور فى خاطرى والبحث عن أصله خيرًا كان أو شرًا، وإمعان النظر فى أعماق القلب، وامتحان الضمير امتحانًا دقيقًا.

لقد فكرت كثيرًا فى منهجين مغايرين من التربية؛ منهج أولئك الذين يسعون وراء الاحتفاظ بالبراءة ، ويخلطون البراءة بالجهل، معتقدين أن الشر غير المعروف يتجنبه الإنسان بطريقة أفضل من

الشر المعروف؛ ومنهج أولئك الذين يعتقدون بحماسة أنه لكى يصل الطالب رشده، ويجتاز رقة الحياء، يعرض عليه الشر فى أبشع صوره، وبكل عوراته المرعبة، بحجة أنه لكى يتّجنب الرذيلة، يجب ممارستها، ليتأكد من بشاعتها. إننى أدرك أن الشر يجب أن يعرف لكى نستطيع تقدير الخير الإلهى الذى ليس له حدود؛ غاية مثالية وبعيدة المنال لكل الخير الذى أرغبه. إننى أشكر لسيادتك أن جعلتنى أعرف مثلما يقول الكتاب المقدس، بالعسل والزبد علمتنى كل ما هو شر وكل ما هو خير؛ من أجل استنكار الأول، والتطلع للآخر، بحماسة وبحرص شديدين، وبإصرار ومعرفة تامة للأسباب. إننى منشرح الصدر لأننى لن أكون ساذجًا وسوف أتجه نحو الفضيلة، وعندما تسمح الظروف لكل ما هو إنسانى، نحو الكمال، على وعى بكل المحن، بكل الخشونة فى الأسفار البعيدة التى يجب علينا القيام بها فى وادى الدموع هذا، وغير جاهل أيضًا بالبسيط والسهل، بالعذب، المزروع بالورود الذى فى ظاهره، الطريق الذى يقود للهلاك والموت الأبدى.

شىء آخر أعتبره من واجبى أن أشكر لك إياه؛ وهو الغفران والتسامح، على الرغم من عدم دبلوماسيته ولطفه. لقد عرفت سيادتك كيف توصينى نحو الأخطاء وذنوب الإنسان قبيل الاعتبار.

أقول ذلك لأننى أريد أن أتحدث مع سيادتك فى قضية شائكة جدًا، ولا أجد لها مبررًا كى أشرحها لك.

في قرارة نفسي بالنسبة لهذه القضية، أتساءل مرارًا. هدفي هذا، هل أساسه، أو جزء منه على الأقل، مرتبط بعلاقتي بوالدي؟ في أعماق قلبي، هل غفرت له سلوكه مع والدتي المسكينة ضحية فجوره؟

أتأمل ذلك بتمهل ولا أجد ذرة حقد في صدري تجاه والدي، على العكس؛ الامتنان والعرفان بالجميل يملآن كل شيء، لقد رباني والدي بالحب، حاول دائما غرس احترام ذكرى والدتي في نفسي، ونستطيع القول بأنه عندما رباني، واعتنى بي، ودللني وصقلني عندما كنت صغيرًا حاول تهدئة طيفها الثائر، إذا كان طيفها، إذا كانت روحها، وكانت ملاكًا من الطيبة والوداعة، قادرة على الغضب. أكرر إذن، إنني مترع بالامتنان لوالدي، لقد اعترف بي، وبالإضافة إلى ذلك، أرسلني لسيادتك عندما بلغت من العمر عشر سنوات، والذي أدين له بما أنا فيه الآن.

إذا كانت في قلبي ذرة من الفضيلة، لو يوجد في عقلي أي مصدر من المعرفة، لو يوجد في إرادتي أي غرض شريف فإنني أدين بكل ذلك لسيادتك.

عطف والدي عليَّ يفوق الحدود، شيء عظيم التقدير يحتويني به، كبير للغاية، أكبر مما أستحقه. أفي ذلك غرور؟ في الحب الأبوي يوجد شيء من الأنانية، امتداد للأنانية قيمتي كلها، إذا كانت توجد

قيمة فيَّ، والتى يعدها من صنعه، كما لو كنت أنا منبثقًا من شخصيته، هكذا فى الجسد كما فى الروح؛ لكن، على أية حال، أعتقد أنه يحبنى وأن فى هذا الحنان شيئًا مستقلاً وأكبر من كل هذه الأنانية المغتفرة التى تحدثت عنها.

أشعر بطمأنينة عظيمة، بارتياح نفسى شديد، وأتقدم من أجل ذلك بكل الشكر لله عندما انتهيت إلى ملاحظة أن صلة الدم، أواصر الطبيعة، هذا الرباط الخفى الذى يجمعنا، يأخذنى - دون أى اعتبارات للواجب - لأحب والدى وأحترمه.

من المرعب حقًا ألا أحبه، وأن أضطر لحبه مراعاة لتعاليم الرب. مع ذلك، وهنا يعود شكى؛ غرضى فى أن أصبح راهبًا، وعدم قبول أو قبول جزء صغير فقط من الأموال الوفيرة التى سوف أحصل عليها من الميراث، والتى من الممكن أن أتصرف فيها فى حياة والدى، هل هو نابع من ازدرائى للأشياء الدنيوية، أو هو ميل حقيقى إلى الحياة الدينية؟ أو نابع أيضًا من كبرياء، من حقد دفين، من شيء بداخلى، يجعلنى لا أغفر ما غفرته أمى بكرم زائد؟

هذا الشك يهاجمنى ويعذبنى أحيانًا، لكنى دائمًا ما أجد له حلاً لصالحى، وأعتقد أننى لست متغطرسًا على والدى، أعتقد أننى أتقبل كل ما عنده إذا احتجته، وأرتضى بأن أكون ممتنًا جدًا له على القليل مثل الكثير.

إلى اللقاء، يا عمى، من الآن فصاعدًا سوف أكتب لسيادتك باستمرار وبإسهاب مثلما كلفتنى، ومن الأفضل ألا يكون كثيرًا مثل اليوم، كى لا أرتكب خطيئة الإسهاب.

٢٨ مارس

بدأ الملل يتسلل إليّ من طول إقامتى فى هذا المكان، وكل يوم تزداد رغبتى فى العودة إليك واستقبال الأوامر منك، لكن والدى يريد أن أكون بصحبته، وأن أبقى فى هذه الاحتفالية الكبيرة، ويحثنى على البقاء معه هنا لمدة شهرين على الأقل.

والدى لطيف جدا وحنون جدا معى لدرجه تجعلنى لا أستطيع أن أرفض له طلبا، لهذا سوف أمكث هنا حسبما يريد، ولكى أرضيه أحاول جاهدًا أن أبدى إعجابى بوسائل الترفيه الموجودة هنا، والنزهات الريفية التى يصحبنى إليها، حتى فى رحلات الصيد، أذهب معه أينما كان، وأحاول أن أبدو أكثر سعادة وصخبًا عما أنا معتاد.

بما أنهم فى القرية هنا يلقبوننى بالقديس - فى نبرة مديح مشوبة بسخرية - فأنا أحاول بتواضع إخفاء مظاهر الرهبنة، أو أخفيها بشكل لطيف، متظاهرًا بسعادة هادئة لا تتعارض مع القديسين.

ومع كل هذا، أعترف بأننى بدأت أشعر بالملل تجاه الضحكات والدعابات والحفلات الصاخبة التى تقام هنا، لا أريد أن أخوض فى سير الناس ولا أغتاب أحدا، لكنى فى بعض الأحيان أفكر أن من الصعب جدا تهذيب أخلاقيات هؤلاء الناس أو حثهم على التدين.

وأفكر فى أننى ربما يكون من الأفضل لى الذهاب إلى الهند أو إيران أو الصين، تاركًا من خلفى ضائعين وضالين؛ من يدرى؟ فالبعض يقول إن الأفكار الحديثة والمادية، إلى جانب عدم الإيمان بالله؛ هى سبب كل ما يدور حولنا من أشياء سلبية، فإنها تتم بشكل غريب وساخر وشيطانى.

لا يوجد هنا من يقرأ كتابًا سواء أكان جيدا أم لا، فأنا لا أعلم كيف يمكن لهذه الأفكار السلبية أن تضللهم، هل الأفكار السلبية تنتشر فى الهواء كالوباء؟ هل يتحمل الراهب هذا الوِزر؟ أطرح هذا السؤال وأنا أشعر بالأسف لهذه الفكرة الخاطئة، ولا أستطيع أن أبوح بذلك إلا لك. هل جميع الأشخاص قادرون على تلك المهمة؟ على نشر الوعى وتثقيف الناس دينيًا، ربما يكون المسئول عن ذلك هم الرهبان أنفسهم.

هل هناك دعوة ربانية حقيقية يتسم بها هؤلاء الرهبان الذين يكرسون أنفسهم للحياة الدينية، ولشفاء النفس؟ أم أن الرهبنة مجرد وظيفة يُتكسَّب من ورائها، شأنها شأن أى وظيفة أخرى، مع الفارق وهو أنه فى وقتنا هذا لا يُستغل بها إلا الفقراء الذين ليس لديهم أى طموح أو أمل وليس لديهم ما يعينهم على الحياة. إن مستقبل هذه الوظيفة ليس كمستقبل غيرها من الوظائف. أيًا كان السبب؛ فليكن ما يكون، فقلة عدد رجال الدين المثقفين الصالحين تبعث فى نفسى الرغبة فى أن أصبح راهبا. لا أريد أن يخدعنى حب الذات،

مع اعترافى بجميع عيوبى؛ فإننى أشعر فى أعماقى بقدرتى على أن أصبح راهبًا، وأرى أن هذه العيوب من الممكن أن تتغير بمساعدة إلهية.

منذ ثلاثة أيام ذهبنا إلى المأدبة؛ التى حدثت سيادتك عنها من قبل، والتى أقيمت فى منزل ببيتا خيمنث، وبما أننى لم أكن أعرفها حتى تلك اللحظة - بسبب عزلتها - فقد بدت لى هذه المرأة جميلة جدا كما سمعت عنها؛ فى ذلك اليوم لفت نظرى (العلاقة الحميمة التى تربطها بوالدى، والتى تعطيه الأمل فى أن تقبل عرضه بالزواج).

وبما أنها من المحتمل أن تصبح زوجة أبى، كنت أدقق النظر إليها ورأيت أنها امرأة ممتازة، لديها صفات أخلاقية لم أستطع تحديدها بدقة، ففى ملامحها هدوء وسلام خالصان ينبعان من راحة النفس والقلب، من احترامها لذاتها، وتواضعها النابع من روحها وهدوئها المنبعث من ضميرها، وتفكيرها فى واجباتها التى يفرضها عليها المجتمع، وذهنها المتجه نحو الآمال العريضة.

وليس فى شخصيتها ما يخالف الصورة العامة التى تشغلها، لأن كل شيء لديها محسوب، أو لأنها تمزج حياتها بأحلامها فى تناغم مثالى، فلها طبيعة خاصة تميزها عمن حولها.

حتى مظهرها لا يتأثر سواء أكانت ترتدى رداء ريفيًا أم ملابس عصرية، فتجمع بين المظهرين بصورة تجعلها تبدو كسيدة مجتمع.

وكما لاحظت؛ فهى لا تهتم كثيرا بوضع مستحضرات التجميل، فيداها وأظافرها وجميع مظاهر العناية والنظافة فى كل ما ترتديه دليل على اهتمامها بنفسها كثيرا، ولا يمكن لأحد أن يتوقع هذا فى امرأة تعيش فى الريف، بالإضافة إلى ما سمعته عن ازدرائها الحياة الدنيا واهتمامها فقط بالحياة الدينية.

وأما منزلها؛ فهو بالغ النظافة والنظام، حيث يوضع كل شيء فى مكانه، بالرغم من أن الأثاث ليس بباهظ الثمن، إنه يتسم بالبساطة وعدم التكلف، ولكى تضفى لمسه جمالية على المكان؛ توجد النباتات والزهور بكثرة فى كل مكان، تراها فى الفناء والغرف والأروقة، وبالرغم من أنها ليست زهورًا نادرة، تبدو كذلك من شدة العناية بها، كما يوجد أيضا الكثير من عصافير الكناريا الموضوعة فى أقفاص ذهبية، والتى تضفى على المكان جوًا من المرح والحيوية بتغريدها.

فى أحد أركان الغرفة الرئيسية يوجد شيئ يشبه المصلى؛ حيث تتألق صورة للسيد المسيح وهو أبيض وأشقر ووسيم، عيناه زرقاوان، يرتدى ملابس من الساتان الأبيض، وعباءة زرقاء منقوشًا عليها نجوم ذهبية كثيرة، مغطاة بالحلى والجواهر.

تزين المذبح؛ الذى يعلو صورة السيد المسيح، باقات من الورد، وأصص النباتات من لسان الفرس وإكليل الغار، ويوجد أيضا الكثير من الشموع المضيئة.

عندما رأيت كل ذلك، كدت لا أعلم بماذا أفكر، ولكنى اعتقدت أن الأرملة تحب نفسها أكثر من أى شيئ.

فمن المعروف أن صاحبة المنزل تحتاج إلى أناس تعاملهم بحنان، ولديها مجموعة من الخدم الذين تم اختيارهن بعناية، إذ إن ذلك كله لا يمكن أن يكون من قبيل المصادفة، فكلهن جميلات؛ كما أن لديها، مثل النساء المتقدمات فى العمر، عدة حيوانات مستأنسة، مثل الببغاء والكلاب واثنتين أو ثلاثًا من القطط الأليفة.

لا أستطيع أن أنكر أن ببيتا خيمنث امرأة كتوم، فلم تخرج من شفتيها كلمة واحدة قلتها لها، سواء دعابة سخيفة، أم سؤال غير لائق حول إلهامى الربانى، أو عن المسوح التى سوف أتلقاها فى خلال فترة قصيرة.

لقد تحدثت معى فى الأشياء التى تحيط بنا فى القرية، الزراعة، آخر محصول عنب، إنتاج الزيت، كيفية تحسين صناعة النبيذ؛ كل هذا فى تواضع طبيعى دون محاولة ادعاء الذكاء أو الفهم.

كان والدى شديد الرقة، وكل حواسه متجهة نحو المرأة؛ التى تشغل باله، وكانت تلك المشاعر تلقى ترحيبًا إن لم يكن بالحب فبالامتنان.

حضر المأدبة كل من الطبيب وموثق العقود، والسيد نائب الأسقف والذى يعتبر صديق ببيتا الحميم وأباها الروحى. كان ينظر إليها نظرة احترام وتقدير، لقد كان يحدثنى عنها فى أحيان كثيرة، عن إحسانها وعن الصدقات الكثيرة التى تؤديها، وعن مدى حنانها ومعاملتها الحسنة لكل من حولها. باختصار ، ذكر لى أنها مثل القديسة.

من استماعى لما يقول السيد نائب الأسقف، وثقتى فى حكمه؛ لم يبقَ لى بعد ذلك سوى أن أبارك لوالدى الزواج من ببيتا.

ولعدم قدرة والدى على الحياة بلا ذنوب، سيكون الزواج من ببيتا هو السبيل الوحيد لاستقامته ولتغيير مسار حياته الثائرة، الهائجة، ووضع حد لها، وإذا لم يكن مثاليًا بعد ذلك، فعلى الأقل سيكون منظما ومسالمًا.

عندما عدنا إلى منزلنا، أفصح لى والدى عن مشروعه المستقبلى، وذكر لى أنه كان فاسقًا كبيرًا وقد سلك حياة مملوءة بالخطايا، ولا يرى سبيلا إلى تصحيحها - بالرغم من مرور السنين - إذا رفضته تلك المرأة، التى يعتبرها منقذته، حبه، ورفضت

الزواج منه، ولو أنه يظن أنها تحبه وسوف تتزوجه، وقد تكلم معى والدى عن أمواله وعن الميراث. ذكر أنه رجل ثرى للغاية، وأنه سيترك لى نصيبا من الميراث، بالرغم من أن لديه أبناء آخرين، وأجبته قائلا إننى بحكم خططى وأهداف حياتى، لن أحتاج إلا القليل من المال، وأن قمة سعادتى هى أن أراه سعيدًا مع زوجه وأبنائه، متناسيا كل أخطائه القديمة، ثم حدثنى عن آماله الغرامية بصراحة، حتى يمكن القول إننى كنت الأب وهو الابن.

ولكى يشرح لى قدر خطيبته وصعوبة الوصول إليها والفوز بها؛ روى لى مكانة الأشخاص الخمسة والعشرين الذين تقدموا لخطبتها، والذين تم رفض طلبهم جميعا. ولكن فى حالته، حسب ما شرح لى، كاد طلبه أن يرفض، حتى وقت معين، ولكنه لم يكن رفضا نهائيا، نظرًا إلى أن ببيتا تميزه وتضعه فى منزلة مختلفة عن الآخرين، وإظهار مودتها الشديدة والتى إن لم تكن حبا، فمع طول العشرة وشغفه الشديد بها، من الممكن أن تتحول إلى حب بسهولة. إن ببيتا لا تريد العيش وحيدة فى أحد الأديرة، ولا تميل إلى حياة الزهد على الرغم من انطوائها وورعها الدينى.

إن النقاء والاعتناء بنفسها ليسا من قبيل الزهد، بل عزة النفس – كما يقول والدى – وهو سبب سلوكها الغريب وإعراضها عنه، فهى أنيقة ومتميزة ورفيعة المقام بإرادتها وذكائها، لذلك، كيف لها أن تسلم قلبها للريفيين الذين طلبوا يدها؟ إنها تظن أن روحها مفعمة

بالحب الصوفى، وأنها تشعر بالرضا مع الله فقط، والسبب فى هذا هو عدم وجود شخص مميز ورصين يجعلها تنسى حتى الله، وأضاف والدى، بالرغم من أنه ليس من التواضع أن يعتقد ذلك، فإنه يفتخر بأنه هو هذا الشخص المحظوظ.

عمى العزيز، هذه هى الهموم التى تشغل بال والدى فى هذه القرية، وهى الأشياء نفسها الغريبة عنى، والبعيدة عن أهدافى وأفكارى التى طالما تحدثت معى عنها.

يبدو أن التسامح الشديد الذى عاملتنى به هو الشيئ الوحيد الذى جعل شهرتى تنتشر فى هذا المكان كرجل حكيم، يسدى للناس النصائح وكأنى نبع من العلم، فالجميع يقصون علىّ همومهم ويطلبون منى أن أرشدهم إلى الطريق الذى يجب أن يسلكوه، حتى السيد نائب الأسقف كان يكشف لى عن أسرار هؤلاء الذين يذهبون إليه للاعتراف، ويستشيرنى فى عدة أمور تخص الضمير، والتى كانت قد عرضت عليه فى الكنيسة على كرسى الاعتراف.

وقد لفتت نظرى كثيرا إحدى هذه القضايا التى كان يرويها لى، لما تتسم به من غموض شديد، وذلك دون أن يذكر لى اسم الشخص الذى يتحدث عنه.

ذكر لى أن إحدى بنات أبروشيته تتملكها شكوك كبيرة لشعورها بأنها مدفوعة دفعًا لا يمكن مقاومته نحو الحياة الدينية

المنعزلة، التأملية، ولكنها تخشى أحيانا، ألا يصاحب تلك الحمية الدينية خشوع حقيقى؛ بل يثيرها ويدفعها شيطان التكبر والخيلاء.

إن حب الله أكثر وأكبر من أى شيئ آخر، والبحث عنه فى مركز الروح – حيث يوجد – والتطهر من جميع العواطف الدنيوية للتوحد به، كلها تعتبر رغبات دينية وقرارات سليمة، ولكن الشك يوجد فى المعرفة والتأمل فيما إذا كنا نخلق أم لا من حب للنفس مبالغ فيه.

هل نحب الله؟ أهو الحب الذى يعلو فوق كل شيء بلا حدود أم أكثر من القليل المعروف الذى أحتقره وأزدريه، والذى لا يستطيع أن يملأ قلبى؟ إذا كان تدينى على هذا الأساس؛ إذن فيشوبه عيبان كبيران، الأول: هو أن تدينى لا يستند إلى حب نقى لله، الحب المفعم بالخشوع والإحسان، بل يستند إلى التكبر؛ والعيب الثانى: هو أن تدينى ليس قويًا أو صحيحًا ولكنه هائم فى الهواء، فمن منا يستطيع أن يؤكد أن الروح لا تستطيع أن تنسى خالقها عندما تحبه بشكل محدود.

حول هذه القضية التى تخص الضمير، والمملوءة بالتعقيد والحيرة، والتى تشغل بال إحدى البنات اللاتى يعشن فى القرية، جاء الأب نائب الأسقف ليأخذ بنصيحتى.

أردت الاعتذار عن قول أى شيئ بخصوص هذه القضية، وذلك لقلة خبرتى وصغر سنى، لكنه أصر على ذلك، ولم أجد أمامى سوى التفكير فى هذه القضية.

يسعدنى كثيرا أن يروقك رأيى، فأنا أعتقد أن ما يهم هذه الفتاة الحزينة؛ هو أنها تنظر بنظرة شديدة الرفق إلى الرجال المحيطين بها، وبدلا من التحليل ومحاولة تشريح لغز خطاياهم بمشرط النقد، الأفضل أن تغطى هذه الأخطاء بعباءة من الإحسان، وتحاول إبراز خصالهم الحسنة وتنعم النظر فيها كثيرا، بهدف حبهم وتقديرهم، فعليها أن تجتهد لترى فى كل إنسان شيئا يستحق الحب، تبحث عن شخص حقيقى مثلها، شخص يكمن فى أعماقه كنز من الخصال والفضائل الممتازة؛ شخص، فى نهاية الأمر، على صورة الخالق وشاكلته، وبهذا نرفع قدر كل من حولنا، فنحب البشر ونقدرهم لما هم عليه أو أكثر، أن نسعى كى لا ننظر إليهم على أننا أفضل منهم فى أى شيئ؛ بل، على العكس، نحاول أن نسبر بكل شجاعة أعماق ضمائرنا لنكشف كل أخطائنا وآمالنا، وأن نكون على قدر من التواضع وعدم المبالغة فى حب الذات، أن نملأ قلوبنا بالعواطف الإنسانية، ونقدر بشدة قيمة الأشياء والأشخاص، فإذا تم ذلك؛ يبرز الحب الإلهى بقوة لا تقهر، ولا يولد هذا الحب الذى يقدر الذات بشكل رفيع بالتكبر وازدراء غير عادل للبشر، بل يولد وينبع من الاعتبار النقى للجمال والخير بلا حدود.

إذا كانت هذه الفتاة؛ التى يتحدث السيد نائب الأسقف عن شكوكها وأحزانها – هى ببيتا – كما أعتقد. فيبدو لى أن والدى لا يستطيع أن يتفاخر بعد الآن بأنه عزيز عليها جدًا، ولكن إذا أبلغها نصيحتى وقبلتها وقامت بتنفيذها؛ فإنها ستترك جانبًا كل هذه الأحاسيس التى تعتريها، وسوف تشعر بالسعادة عند قبول يد والدى وقلبه، فهو بالتأكيد ليس أقل منها قدرًا.

٤ أبريل

إن الحياة الرتيبة التي أعيشها في هذا المكان بدأت تسبب لي ضيقاً، ولا يعود السببَ في هذا إلى أن حياتي السابقة كانت أكثر حيوية، فأنا هنا أتنزه كثيرا سواء على قدمي أم ممتطيا الحصان، إنني أذهب إلى الحفل والكازينو، وأحضر الاجتماعات لكي أرضي والدي فقط، باختصار، إنني أعيش خارج بيئتي، وحدود طبيعتي، فأصبحت حياتي الثقافية فارغة، لم أعد أقرأ أي كتاب، لأنهم لم يتركوني لحظة، لم يعطوني أي فرصة للتفكير والتأمل في هدوء، إن كل ما أفعله هنا يبدو لي في غاية الملل، الشيئ الوحيد الذي يجعلني أتحمل هذه الحياة هو الصبر الذي عودتني عليه، وأوصيتني أن أتحلى به؛ لألجأ إليه في مثل هذه المناسبات.

يوجد سبب آخر يجعل روحي غير مطمئنة هنا، هو الاشتياق الذي أشعر به يزداد يوما بعد يوم إلى الحياة؛ التي طالما تمنيتها منذ سنوات عديدة، أشعر في هذه اللحظات التي أكون قريبًا جدًا من تحقيق حلم حياتي، أن من الإثم أن أشغل تفكيري بأشياء أخرى.

هذه الفكرة تعذبني كثيرا، طالما كنت أمعن النظر فيها، وهي أن إعجابي بجمال المخلوقات وبالسماء المملوءة بالنجوم في تلك الليالي الهادئة من فصل الربيع، وفي هذه المنطقة من الأندلس، وبالحقول التي تشع سعادة؛ وهي مغطاة بالزرع الأخضر، وبهذه

الأراضى ذات الطرق المحفوفة بأشجار الحور الجميلة الظليلة، ذات جداول المياه، والسواقى الهادئة المنبعث منها خرير المياه، والطيور التى تملأ المكان مثل هديل الحمام وأصوات العصافير؛ التى تغرد بإيقاع موسيقى جميل، والزهور الكثيرة، والأعشاب العطرة، إن فى هذا الإعجاب والحماس الذى كان يتملكنى فى وقت ما، يبدو لى متفقًا مع الشعور الدينى الذى يملأ روحى، فيحثها ويرتقى بها بدلا أن يضعفها، أما الآن، فهذا الشعور يبدو لى إثمًا فيه ذنب ومعصية ونسيان للأشياء الخالدة وذكر للأشياء الفانية، لكى أذكر المخلوق وأنسى الخالق.

بالرغم من قلة تعمقى فى الدين، ومن أن روحى لم تتحرر بعد من أطياف الخيال، ومن عدم خلو نفسى من الإنسان الذى بداخلى، ذى الانطباعات الخارجية وكثرة التفكير والتأمل المرهق، ومن عدم قدرتى على الاستغراق فى التفكير بمنطق العقل؛ لرؤية الحقيقة خالية من أى صور أو أشكال، أؤكد لك أننى أشعر بالخوف تجاه طريقة صلاتى التى أفتقد فيها الخشوع، مثل صلاة أى فرد عادى، وليس رجل دين مثلى.

إن التفكير العقلانى يبعث فى نفسى الريبة، فأنا لا أرغب فى إلقاء خطب لمعرفة الله، أو إعطاء مبررات لحبه، بل أرغب فى أن أرتفع وأطير نحو التأمل الجوهرى، فمن يعطينى أجنحة مثل أجنحة الحمام لكى أطير إلى المكان الذى تهواه روحى؛ ولكن أين مميزاتى؟

أين قيامى بواجباتى الدينية؟ أين عذاب النفس على مدى الصلوات والصوم عن المعاصى.

يا إلهى، ماذا فعلت كى تفضلنى من بين الآخرين؟

أعرف جيدًا أن هنالك فى يومنا هذا أناسًا لا يعتنقون أى دين، ولا يحترمون الأديان، وهم بذلك يسيئون إلى ديننا المقدس، ويزعمون أن الأديان تحث الأنفس على الضجر تجاه كل الأشياء الدنيوية، إلى احتقار الطبيعة وازدرائها، بل والخوف منها أحيانا، وكأن بها مسًا شيطانيًا، إذ يرون أننا نقصر حبنا وعاطفتنا على ما يسمونه أنانية الحب الإلهى المفرطة، فهم يعتقدون أن النفس تحب الله إذا أحبت نفسها.

أعرف جيدًا أن ذلك خطأ، وأن تلك ليست العقيدة الحقة، فالحب الإلهى فى البر، ويعنى حب الله حب كل الأشياء، لأن كل شيء فى الله، والله فى كل شيء على نحو عليٍّ وفائق الوصف. عندما أحب الأشياء من خلال حبى لله لا أرتكب معصية، لأن، ما هو الحب الذى يفوق حب الله؟ وعلى الرغم من ذلك، لا أعرف ما هذا الخوف الغريب؟ وهذا الشك، وتأنيب الضمير الذى يعذبنى الآن؟ عندما أشعر - كما كنت أشعر فى أيام أخرى من أيام شبابى وطفولتى - بعواطف الحنان ونشوة الحماسة عند دخولى حديقة غنَّاء

وارفة الأفنان، وأنا أسمع شدو العندليب فى هدوء الليل وشقشقة العصافير وصوت الطيور المحبة عند رؤية الزهور أو النجوم.

أعتقد أن فى كل هذه الأشياء جانبًا من اللذة الحسية، شيئًا يجعلنى أنسى – ولو للحظة – تطلعاتى السامية.

لا أريد أن تتعارض الروح مع الطبيعة البشرية، وفى الوقت نفسه؛ لا أريد لجمال الماديات ولذتها، حتى اللذات التى تشعر بها النفس، مثل الهواء المنعش المترع بشذى الحدائق العطرة، وغناء الطير والهدوء الساكن المهيب لتلك الساعات المتأخرة من الليل فى هذه الحدائق والأراضى الزراعية، أن تصرف تفكيرى بعيدا عن الجمال الأعلى وتضعف حبى ولو للحظة تجاه خالق كل هذا التناغم الرائع للحياة.

أعلم أن الأشياء المادية؛ مثل حروف الكتاب أو الرموز والشخصيات التى تستطيع الروح، المهتمة بقراءتها، أن تخترق شعورًا عميقًا، وأن تقرأ وتكتشف جمال الله، وأقول لنفسى: إننى إذا أحببت جمال هذه الأشياء الدنيوية بشىء من المبالغة، فسيتحول هذا الحب إلى نوع من عبادة الأوثان، وبالتالى، يجب على أن أحبها كرمز لجمال الله الخفى الذى يساوى أكثر من ذلك ألف مرة، والذى يفوق كل شىء بلا نظير.

منذ أيام قليلة أتممت عامى الثانى والعشرين، وأنا مازلت أشعر بغيرتى على دينى، وأؤمن بأنه لا يوجد حب أعظم من حب الله النقى، وحب الدين المقدس، الذى أريده أن ينتصر وينتشر فى كل أرجاء المعمورة.

وأعترف بأن هذا الحب الطاهر كثيرا ما يشوبه شعور دنيوى فاسد، وأنت تعرفه يا عمى، إذ إننى حدثتك عنه ألف مرة، وكنت تنظر إلىّ بنظرتك المتسامحة المعهودة، وتجيبنى قائلا: "إن الإنسان ليس ملاكًا وإن التظاهر بذلك يعتبر كبرًا وتفاخرًا، فعلىّ أن أكون معتدلاً فى هذا الشعور".

إن حب المعرفة والمجد، إذا تم بشىء من الاعتدال والتواضع، وكان الهدف من ورائه هدفًا نبيلاً، فلا يعد إثمًا، بل حافزًا ومساعدًا للتوصل إلى القرارات الأكثر حسما ونبلاً.

إذن، فوخز الضمير الذى أصابنى اليوم، ليس شكًا نفسيًا أو شكًا فى شعور زائد بالثقة فى النفس، أو رغبة فى المجد الدنيوى أو اشتياقى الزائد للمعرفة، فأى من هذا ليس له علاقة بالأنانية، بل على العكس تمامًا. أنا أشعر بالفتور وانهيار قواى، وفقدان الإرادة ورغبة شديدة فى البكاء، إننى أبكى بسهولة عند رؤيتى لزهرة جميلة، أو عند تأملى الضوء الغامض الخافت الرقيق لنجمة بعيدة، لدرجة تشعرنى بالخوف، قل لى ما رأيك فى هذه الأشياء، وهل هناك ما يشوب حالتى النفسية.

٨ أبريل

مازالت التسليات الريفية مستمرة، وأنا مضطر للاشتراك فيها رغم أنفي. لقد صاحبت والدى لكى أرى جميع مزارعه، إن والدى وكل أصدقائه يصرون على ألا أكون جاهلاً بجميع الأشياء التى تخص الريف، يعتقدون أن الدراسة الدينية، التى تخصصت فيها، هى عكس كل معرفة بالأشياء الطبيعية.

وكم أعجبوا بمعرفتى العميقة فى هذا المجال، عندما شاهدونى أميِّز بين مزارع الكروم التى بدأت تبرز أوراق العنب، وأعلم عن تسمين ماشية بدرو خيمنث والسيد يوينو، كما أعجبوا أيضا بمعرفتى بالمزارع الخضراء وتمييزى لشعير القمح وأوراق اليانسون من أوراق ثمرة اللوبيا، وكيف أعرف الكثير عن أشجار الفواكه التى لها ظلال، وحتى الحشائش التى تنبت عشوائيا فى الريف، مؤكدًا لهم بالأسماء المختلفة، وأشير إلى أوضاع وفضائل بعينها.

عندما علمت ببيتا خيمنث من والدى كم أنا مولع بالمزارع هنا، وجهت لنا الدعوة لنشاهد المزارع التى تمتلكها على بعد مسافة قصيرة من هنا؛ ولكى نتذوق الفراولة الطازجة التى تزرعها.

هذه الرغبة الملحة من جانب ببيتا لإكرام والدى كثيرا، لأنه سوف يطلب يدها، وهى تتدلل عليه كثيرًا، تبدو لى مما يستوجب

الاستنكار، ولكن عندما رأيت ببيتا خيمنث بعدها، ووجدتها طبيعية جدًا، وعلى قدر كبير من النضج والبساطة، رحل عن ذهنى لحظتها أى تفكير سيىء، وأتصور أن كل ما تفعله هو من قبيل طيبة القلب وليس لها هدف آخر سوى الاحتفاظ بالصداقة التى تربطها بعائلتى.

ما علينا، بعد ذلك ذهبنا أول أمس ظهرًا لمزرعة ببيتا. إنها مكان من أجمل وأروع ما يمكن تصوره. جميع المزارع تقريبا يرويها نهر صغير يتدفق منه الماء الأحمر إلى آلاف السواقى، مارًا بجانب المكان الذى أتينا إليه مكونًا هناك خزانًا، وعند صرف المياه الفائضة للرىّ، يسقط فى جرف على جانبيه أشجار الحور والليمون والصفصاف الأسود، ونباتات برية مزهرة، وأشجار أخرى كثيرة ومورقة.

شلالات المياه النقية والشفافة تسقط فى قاع النهر مكونة زَبدًا، وتتبع بعد ذلك مجرى ملتويًا تفتحه الطبيعة لنفسها، تزدان ضفتاه بآلاف الحشائش والورود، ويغطيهما الآن الكثير من الياسمين.

فضلاً عن أن السفوح القريبة من المكان مليئة أيضا بأشجار الجوز والتين والبندق، وأشجار أخرى من الفواكه. أما الجزء الذى به سهول فتوجد عنده مساحات مربعة من الخضروات، والفراولة والطماطم والبطاطس والفاصوليا والفلفل الرومى، أما حديقتها الصغيرة فبها أزهار وفيرة جدا من التى تنمو هنا عادةً.

يوجد منها آلاف الأنواع المختلفة، أما بيت البستانى هنا فهو أكثر جمالا ونظافة من الذى نعتاد رؤيته فى هذه الأرض، وعلى الجانب الآخر من هذا البيت، يوجد مبنى آخر صغير مخصص لصاحبة الضيْعة، حيث احتفلت بنا ببيتا وقدمت لنا وجبة رائعة، تذوقت من خلالها الفراولة، التى كانت سببًا رئيسيًا فى الزيارة. إن كمية الفراولة كانت مذهلة فى هذا الفصل من السنة، والتى طرحت مبكرًا، وقدمت لنا مع اللبن الطازج من الماعز الذى تمتلكه ببيتا.

لقد حضر معنا لهذه النزهة، الطبيب وموثِّق العقود وعمتى كاسيلدا، كما لم يغب نائب الأسقف بالطبع والذى لا غنى عنه، الأب الروحى لببيتا، بل هو أكثر من ذلك، فكم هو معجب بها ودائم الثناء عليها.

لم يحضر الجناينى ولا زوجته أو نجله، ولا أى فلاح آخر ممن يقومون على خدمتنا أثناء الأكل، كشىء من الترف. إلا فتاتان وصبيتان من الخدم مقربات إلى ببيتا، يرتدين ملابس ريفية، غاية فى النظافة والأناقة، ملابسهن قطنية ذات ألوان زاهية، قصيرة وملتصقة بالجسد، ومناديل من الحرير تغطى ظهورهن، مكشوفة رؤوسهن، حيث يلمع ويبرق الشعر الأسود، المضفَّر والمربوط على شكل كعكة من الشعر ومن الأمام دبوس مثبت يزين الشعر ويكشف عن باقة من الزهور الطبيعية فوق خصلة الشعر.

أما ثوب بيبتا فتميز بالبساطة، من قماش فاخر لونه أسود، وعلى نفس طراز الوصيفتين، دون أن يكون قصيرًا جدًا، أو زاحفًا يلتقط غبار الطريق، تضع منديلاً متواضعًا من الحرير الأسود، يغطى أيضا ظهرها وصدرها؛ على نفس طريقة أهل المكان، لا تضع أية وردة ولا حلية فى تسريحة شعرها، إلا أن شعرها الأحمر اللون طبيعيا. إن الشىء الوحيد الذى لاحظته فى بيبتا هو عنايتها بيديها إلى حد ما، وتستخدم لذلك قفازين، مما يبعدها عن بقية أهل الريف.

من الواضح أنها تعتنى بيديها كثيرا، ربما من باب الغرور أو الخيلاء لكى تحتفظ بهما ناصعتى البياض وجميلتين، بأظافر لامعة ومتوردّة، حتى لو كان ذلك من باب الغرور أو الخيلاء، فهو مقبول ومغتفر فى الضعف الإنسانى، وأخيرا، على ما أذكر، أعتقد أن القديسة تيريسا كان عندها نفس الغرور، وهى فى مقتبل العمر، وهذا لم يمنعها من أن تكون قديسة كبيرة جدا.

وعلى رغم ذلك فأنا لا أغفر هذا الغرور الماكر. إنه من الأرستقراطية ومن التميز الاحتفاظ بيدين جميلتين، لدرجة أننى أتصور أحيانا أن هذا شىء رمزى. لأن اليدين هما الأداة التى نقوم بها بأعمالنا، إذن هى رمز نبلنا، الوسيلة التى يغلف بها العقل بشكل ما أفكاره الفنية، هى التى تجسد الإرادة وتمارس النفوذ الذى وهبه الله للإنسان دون سائر المخلوقات.

إن اليد الخشنة، العصبية، القوية، المتصلبة أحيانًا لعامل بسيط، أو لخادم؛ تستطيع أن تبرز بنبل هذا النفوذ، ولكن فيما يختص بما هو عنيف أو آلي. فى المقابل، يدا ببيتا اللتان تبدوان شفافتين مثل الرخام الأبيض، رغم كونهما أميل إلى الوردي، حيث يعتقد المرء أنه يرى سريان الدم نقيًا ورقيقاً، مما يعطى أوردتها لمعانًا أزرق خفيفًا، أقول إن هاتين اليدين ذواتى الأنامل الرقيقة، الفريدتين فى اكتمال رسمهما، تبدوان رمز النفوذ السحرى للسيادة الخفية التى تمتلكها وتمارسها الروح الإنسانية، دون قوة مادية، فوق كل الأشياء المرئية والتى خلقها الإله، سبحانه وتعالى، ثم أكملها وحسّنها من خلال الإنسان.

يبدو أن من يمتلك يدين مثل يدى ببيتا مستحيل أن تكون له أفكار غير طاهرة، أو فظة، أو مشروع فاشل لا يوافق اليدين النقيتين اللتين يجب أن تنجزا ما تقومان به.

لا نستطيع القول إن والدى كان يبدو مفتونًا كعادته بببيتا، بل كان حريصًا على التعامل معها برقة. فى الواقع، إن والدى، بالرغم من السمعة التى تتردد من أنه عادة يتصرف بعدم احترام وقلة حياء مع النساء، يعامل هذه السيدة باحترام وتقدير، كما لو كان أماديس Amadis، وهو يفعل أكثر من ذلك مع السيدة أوريانا[1] Oriana،

---

[1] أوريانا هى السيدة التى أحبها أماديس، الذى يعتبر نموذجًا أو مثال الفارس الجوال، والتى يمتدحها فى جميع مغامراته، والتى أيضا يعاملها بمنتهى الاحترام، وفى =

فلا كلمة جارحة ولا مغازلة سخيفة أو مزعجة ولا نكتة من نكت الحب التى اعتاد الأندلسيون السماح بها.

فلا يكاد يتجرأ بقول "عيناك جميلتان"، وفى الواقع لو قالها لما كذب، لأن عينيها نجلاوان، وخضراوان مثل عينى سيرس[1] الجميلتين الخضراوين، وما يعطى ببيتا ميزة وقيمة؛ أنها كما يبدو لا تعرف ذلك، لأنك لا تكتشف فيها أدنى اهتمام لإعجاب أحد ولا لجذب أحد بنظراتها العذبة، من الجائز أنها تعتقد أن العيون تستخدم للرؤية فقط وليس لشىء آخر. هذا على عكس ما كنت أظن (أو أسمع)، المفروض أن أغلبية النساء الشابات الجميلات، يستخدمن عيونهن كسلاح لمعركة أو كجهاز كهربائى، شبيه بالصاعقة، لكى يقهرن القلوب ويستأثرن بها، أما عينا ببيتا فليستا هكذا بالتأكيد، حيث تجد فيهما الهدوء والسلام مثل السماء الصافية.

وفى الوقت نفسه لا نستطيع أن نقول: إن عينيها تنظران ببرود ولا مبالاة، بل تنثران المحبة فى شعاع من النور، فى زهرة، أو حتى فى أى شيئ غير مباشر، عيناها مليئتان بالمحبة والعذوبة، بما يفوق المودة ومظاهر الإحساس الأكثر لطفا وإنسانية ووداعة،

=حضورها يشعر باضطراب، وبالكاد يجرؤ على النظر إليها، وفى غيابها لا يخونها حتى ولا فى فكره، و"أماديس دى جاولا" هى رواية إسبانية شهيرة من روايات الفرسان فى العصور الوسطى (أماديس وأوريانا هما بطلا الرواية).

[1] سيرس، فى الأسطورة اليونانية، هى الساحرة ذات العينين الخضراوين التى فتنت عوليس.

تبث فى الغير المحبة، حتى لو كان هذا الغير شابا رشيقًا ومعتزًا بنفسه، إنك لتشعر بصداقة مفضلة فى تلك النظرة الهادئة والساذجة.

إننى أفكر كثيرا فى أن هذا كله لو كان مدروسًا لكانت ببيتا ممثلة كبيرة، ولأصبح النفاق صريحًا والرواية الهزلية مضمرة، الأمر الذى يبدو لى مستحيلا، إذن ، فالطبيعة هى التى تعود وتصلح كقاعدة أساسية لهذه النظرة وهاتين العينين. ببيتا أحبت والدتها أولاً، بدون شك، وبعد ذلك قادتها الظروف لحب دون جومرسيندو؛ زوجها كواجب عليها، كرفيق حياتها، وبعد ذلك، مما لاشك فيه، أبعدت نفسها عن كل عاطفة توحى لها بأى شيئ دنيوى، وأحبت الله كثيرا، ومن أجل حبها لله، أحبت كل الأشياء، ووجدت نفسها ربما فى وضع من الروحانية الهادئة، المرغوب فيها، ربما تكون أنانية – هى نفسها – لا تلاحظها.

إن الحب بهذه الطريقة الناعمة يكون مريحا، دون ألم أو عاطفة يصارعانه، هذه الطريقة تجعل من الحب ومن المودة إضافة للغير ومجاملة للحب نفسه.

أحيانا أتساءل إذا وضعت حالة ببيتا هذه فى قفص الاتهام، بينى وبين نفسى، لن أكون أنا من يتهم، فمن أكون أنا كى أخترق ضمير هذه السيدة وأتهمها؟ ربما لأننى أعتقد أننى أرى روحها، وليست روحى التى أراها؟ لا أمتلك أى عاطفة كى أنتصر عليها، كل

ميولي، وفطرتي الحسنة والسيئة، هي بفضل المعرفة التي علمتني سيادتك إياها، وترجع دون عقبات أو عرقلة إلى الهداية لنفس الغرض، ليس فقط ترضي رغباتي النبيلة وغير المغرضة، بل ترضي أيضا أنانيتي، حبي للمجد، حبي الشديد للمعرفة ، وفضولي لمعرفة بلدان بعيدة مختلفة، لهفتي لاكتساب اسم وشهرة. إن ذلك كله لمرهون ببلوغي ذروة المهنة التي أقدمت على اختيارها.

من هذا المنطلق، أتصور أحيانًا أنني متهم أكثر من بيبيتا، لو افترضنا أنها تستحق الاتهام.

لقد تلقيت أسرار الرهبنة الصغرى، واستبعدت من روحي غرور الدنيا، إنني مقبول في صف الإكليروس، لقد كرست نفسي للكهنوتية، ومع ذلك المستقبل الطموح أراه أمام عيني، وأرى أنني يشرفني أن أستطيع الوصول إليه، ويسرني تأكيد صلاحية ظروفي لذلك، مهما استعنت بالتواضع كي لا تغرني ثقتي الزائدة بنفسي. في المقابل، هذه السيدة، ماذا تريد؟ وإلامَ تتطلع؟ إني أتهمها لعنايتها بيديها، وأنها تنظر أحيانا مسرورة بجمالها، أتهمها لعنايتها الشديدة بنفسها، بمظهرها، ولا أعرف ما هذا التدلل الموجود في تواضعها وبساطتها كما تبدو لنا.

إذن، ماذا؟ هل الفضيلة لابد من إفسادها؟ وهل لابد للقداسة أن تتلوث؟ روح نظيفة ونقية، لا يمكن الاقتناع بأن الجسد أيضا يكون هكذا؟

إن هذا الحقد الذى أنظر به إلى مهارة ونظافة ببيتا لشىء غريب. ربما أفعل ذلك لأنها ستصبح زوج أبى؟ ولكن ماذا لو كانت لا ترغب فى ذلك؟ أو لو كانت لا تريد أبى؟ من يعلم لو فى أعماقها لا تشعر بميل ورغبة فى الزواج منه، مستخدمة تلك المقولة، التى تقول: "إن ما هو ثمين يكلف كثيرًا"، نفترض ذلك، لو تأذن لى سيادتك بالكلمة: هى أولاً تسحقه بازدرائها وتخضعه لخدمتها، وتختبر حقيقة مشاعره لكى تعطيه فى النهاية ردها السعيد بالموافقة. لننتظر ونرى!

وهذا لأن الحفلة فى المزرعة كانت ممتعة وهادئة، تحدث الجميع عن الزهور، عن الفواكه، عن تطعيم النبات للزراعة، فى آلاف الأشياء المختلفة الخاصة بالزراعة، كانت ببيتا بارعة فى ذلك، فى معرفتها بشئون الزراعة، منافسةً والدى فى ذلك، وأيضا معى ومع نائب الأسقف، الذى يظل فاغرًا فاه كلما تحدثت ببيتا، وكان يقسم بأنه على مدار حياته - وقد جاوزت السبعين - وفى سفراته الطويلة - التى جاب فيها كل مكان فى الأندلس تقريبا - لم يعرف قط سيدة أكثر فطنة وصواب رأى فيما تفكر وتقول مثل ببيتا.

عند عودتى من أى رحلة كهذه إلى المنزل، أعود لإصرارى مع والدى بشأن عودتى إلى حياة الرهبنة معك، بغرض وصولى للخطة التى أتلهف عليها، لأرى نفسى وقد بلغت مرتبة الراهب، لكن والدى مسرور جدا لوجودى بجانبه، إنه يشعر بالسرور فى هذا المكان، مستمتعا بمزارعه، وبممارسة سلطانه بمنصب محافظ المديرية، مولهًا بببيتا ومستشيرًا إياها فى كل شىء كما لو كانت ملهمته. ربما يجد والدى أعذارًا خلال بعض الشهور لكى يبقينى هنا معه. إنه يقول: لابد من تصفية النبيذ من لا أدرى كم من البراميل، ولابد من نقله من إناء إلى آخر، الآن، ويجب تقليب أرض كروم العنب، الآن، من الضرورى حرث أرض أشجار الزيتون، والحفر أسفل هذه الأشجار، خلاصة الموضوع، إنه يبقينى هنا على غير رغبتى، بالرغم من أننى أقول ذلك ضد إرادتى، لأننى أرى أنه لشىء عظيم أن أعيش مع والد طيب جدا معى مثله.

الشىء السيئ فى هذا؛ أننى أخشى أن أصبح مع هذه الحياة ماديا أكثر من اللازم: فأنا أشعر ببعض الفتور الروحى أثناء قيامى بالصلاة، حماستى الدينى تضاءل، الحياة العامة بدأت تتسلل وتتسرب إلى طبيعتى، عندما أقوم بالتسبيح أعانى من شرود الذهن، لا أركز فيما أقول، وأنا منفرد بنفسي، عندما يجب على الروح أن تصعد إلى الله سبحانه وتعالى، تلك اليقظة التى كنت عليها من قبل، عذوبة قلبى الذى لا يستقر على شيئ فى محله، الذى لا يستغرق فى الذى يجب

فعله، يتدفق وكأنه انغمس فى مناسبات وموضوعات وظروف تافهة جدا، وهو ما يبدو لى غريبا ومثيرًا للسخرية، ويشعرنى بالخجل، فإذا استيقظت فى سكون الليل المتأخر، واستمعت لأحد الفلاحين الولهين حبًا وهو يغنى ويعزف على أوتار قيثارته أغنية شعبية، أو لحنًا من ألحان الأندلس، رغم أنه ليس شاعريًا أو رقيقًا بأى حال، يحن قلبى، ويؤثر فىّ كثيرا، كأننى سمعت أروع الألحان السماوية. إنه حنو جنونى غير صحيح. كل هذا يعترينى أحيانا.

فى اليوم التالى رأيت أولاد ناظر الزراعة؛ الذى يعمل عند والدى، وقد أمسكوا بعش للعصافير، عندما رأيت الطيور التى مازالت دون أجنحة وقد أبعدت بعنف عن الأم الحانية، شعرت بمنتهى الضيق، وأعترف أننى ذرفت الدموع وقتها.

منذ أيام مضت، حضر إلينا أحد الفلاحين من الريف؛ ومعه عجل صغير مكسور الساق، وكان ذاهبًا به إلى السلخانة، أتى لوالدى خصيصا ليسأله عما يريده لمائدته من هذا العجل. طلب والدى منه بضعة أرطال من اللحم، إلى جانب الرأس والأرجل، ولقد تأثرت كثيرا لرؤية ذلك العجل الصغير، وكنت على وشك أن أشتريه من الرجل، ولكن منعنى الخجل من ذلك، ووددت لو استطعت شفاءه والاحتفاظ به حيًا. فى النهاية، عمى العزيز، أنا محتاج إلى ثقتى الكبيرة فى سيادتك لكى أقص عليك هذه الأعراض التى تنتابنى من الأحاسيس الفاسقة والمبهجة فى نفس الوقت، ولكى ترى سيادتك من

خلالها حاجتى إلى العودة إلى حياتى السابقة فى الدير، واحتياجى إلى دراستى وتأملاتى العليَّة، وإلى أن أتخرج لكى أعطى روحى الغذاء الصحى الذكى المقدر لها.

١٤ أبريل

مازلت أمارس الحياة المعتادة نفسها، ومازلت مُحتَجَزًا هنا بتوسلات من والدى.

إن أكثر شيء يسرنى وأستمتع به هنا، بعد العيش بجوار والدى، هو التعامل والحديث مع السيد نائب الأسقف؛ الذى اعتدت التنزه معه وحدى لأوقات طويلة. يبدو من المستحيل أن رجلاً فى مثل سنه - التى جاوزت الثمانين - بهذه القوة وهذا النشاط، أن يكون رياضيًا مشَّاءً هكذا.

إننى أشعر بالتعب قبلما يشعر به هو، ولا يوجد مكان ريفى أو وعر، أو أعلى قمة هضبة شديدة الانحدار فى هذه الضواحى، لم نصل إليه.

السيد نائب الأسقف آخذ فى مصالحتى على رجال الدين الإسبان؛ الذين ألقيت إليهم - أنا نفسى باللوم فى غير مرة، وأنا أتحدث إليك لقلة استنارتهم. وكم أسائل نفسي: ألا يفوق هذا الرجل المفعم بالفطرة والنيات الطيبة، البالغ العطف والبراءة، ألا يفوق أى رجل آخر، مهما قرأ من الكتب، لا تتقّد فى نفسه كما فى نفس هذا الرجل، بذات الأجيج، نار البر مقرونةً بأصدق الإيمان وأطهره! ولا تحسب فكر السيد نائب الأسقف مبتذلاً، هو روح غير مثقف، لكنه

نقي وشفيف. أحيانا أتصور أن هذا مرده رأيي المواتي ومبرره حسن إنصاته لي، لكن، إن لم يكن هكذا، فيبدو لي أنه يفهم كل شيئ جيدا بفطرته الثاقبة. وهو يجمع بين الحب الذي يصدر من أعماق القلب، حبه للدين المقدس، ولكل الأشياء الجميلة التي أفرزتها الحضارة الحديثة. يسرني بالأخص البساطة والقناعة، دون مبالغة في إظهار العاطفة وعدم التكلف الذي ينجز به، في نهاية الأمر، أشق أعمال البر. فلا توجد محنة لا يعالجها، ولا نكبة إلا ووجد لها مخرجا، ولا بلية إلا ووجد لها سلوى، ولا مهانة أو خضوع لا يرده، ولا فقير إلا وقد خف إلى مساعدته وغوثه.

وفي هذا كله – ولا بد لي أن أعترف – لديه معاون قدير في شخص بيبتا خيمنث؛ التي يشيد دائمًا بتقواها وطبيعتها البارة.

هذا النوع من العبادة الذي يظهره السيد نائب الأسقف لبيبتا يأخذ طابعًا يختلط تقريبا بممارسة ألف عمل خيري: الصدقات، التسبيح، الصلاة، خدمة الفقراء.

وبيبتا لا تعطي الفقراء وحدهم، بل أيضا من أجل عبادة الأيام التسعة، والخطب الدينية، احتفالات أخرى للكنيسة. وإذا كانت مذابح الكهنوتية في الكنيسة تتألق أحيانا مزيّنة بأزهار جميلة جدا، فهذه الورود من كرم وسخاء بيبتا، التي أحضرتها من مزرعتها. واليوم أيضًا الغطاء الذي ترتديه عذراء الآلام؛ المصنوع من القطيفة

السوداء والمطرزة بالفضة الأسود حل محل الغطاء المهلهل والبالى؛ الذى كانت ترتديه سابقًا، لأن ببيتا قد دفعت نفقات صنعه خصيصًا.

والسيد نائب الأسقف دائم الإشادة ومديح هذا وذاك من مناقبها. وهكذا، إذا لم أتحدث أنا عن أهدافى الدينية، عن عباداتى، عن دراستى، التى سلبت عقل السيد نائب الأسقف للغاية وأذهلته، فى الغالب يكون هو المتحدث وأكون أنا الذى ينصت، والحديث، بعد ألف جولة وصولة، يقف دائما بعد ذلك عند الحديث عن ببيتا خيمنث. وعمن يأتى حديث السيد نائب الأسقف، فى نهاية المطاف؟ عن تعامله مع الطبيب، مع الصيدلى، مع أثرياء الفلاحين هنا، وهو ما لا يكاد يستغرق ثلاث كلمات من الحديث.

وبما أن من صفات السيد نائب الأسقف، النادر وجودها فى ريفي، أنه لا يلوك سير الغير أو فضائحهم، فإنه لا يتحدث سوى عن هذه السيدة المذكورة التى يزورها دائما ويتحدث معها، حسب ما يذكر، يتحدث فى أدق الأمور.

لا أدرى أى كتب تقرؤها ببيتا، ولا أى ثقافة عندها، لكنها – حسبما يحكى لى السيد نائب الأسقف – ذات نفس قلقة وباحثة، حيث تطرح أسئلة لا نهاية لها، ومشكلات تتلهف على تفسيرها وحلها، وتقدمها لكى يوضحها لها السيد نائب الأسقف؛ الذى تربكه أسئلتها إلى حد ما.

إن هذا الرجل، المتعلم على الطريقة الريفية، من رجال الدين العاديين - كما يقولون عامة - يتميز بعقل مفتوح على كل ضوء من الحقيقة بالرغم من افتقاره للمبادرة، وكما أرى، فإن مشكلات ببيتا خيمنث وأسئلتها التى تطرحها عليه تفتح له آفاقًا جديدة، وطرقًا جديدة هو، رغم غموضها وإبهامها، لم يتوقعها، ولا يستطيع أن يحددها فى دقة، لكن غموضها وجدتها وحداثتها وأسرارها تأخذ بلبه.

إن السيد نائب الأسقف ليجهل أن هذا شيئ خطير جدا، وأنه وببيتا يتعرضان - دون علم - لبعض الإلحاد، لكن بهدوء، لأنه بعيد عن كونه لاهوتيًا كبيرًا، يعرف كتاب تعليم أصول الدين بالحرف الواحد، ويعتقد كثيرًا فى الله سبحانه وتعالى، الذى يضىء له نور المعرفة، ويتمنى ألاّ يضل طريقه، ويؤكد أن ببيتا ستتبع نصائحه ولا تضل الطريق أبدا.

هكذا يتصور كلاهما آلاف القصائد، فالبرغم من أنها غامضة، فهى جميلة، وبالأخص لأنها تحتوى على ديننا وبنود عقيدتنا. كما عبادتها وإخلاص لماريا القديسة لا يقاس بشىء آخر.

إننى لأدهش كثيرا: كيف يعرفان وصل المفهوم الشعبى للعذراء ببعض الأفكار الدينية التى ترجع إلى عهد بعيد جدا.

من بين الأحاديث التى يقصها السيد نائب الأسقف عن ببيتا خيمنث، أرى أن فى نفس ببيتا جرحًا عميقًا وسط ما تبديه من هدوء

وسكينة، وهناك سهم مرشوق قوامه ألم عميق يوجد ألمًا عميقًا: فهنالك عشق للطهارة يتعارض كل ذلك مع حياتها السابقة. لقد أحبت ببيتا دون جومرسيندو كشريك حياتها، وجالب الرفاهية والحياة الرغدة لها، الرجل الذى تدين له كثيرا، لكن يعذبها ويخجلها أيضا ما يذكرها بأن دون جومرسيندو كان زوجها.

تكتشف فى عبادتها للعذراء شعورًا بالمذلة والألم فتتأثر ذاكرتها بذلك الزواج غير الكريم والعقيم.

حتى فى عبادتها ليسوع الطفل؛ ممثلا فى الصورة البديعة التى تمتلكها والمنقوشة فى منزلها، يرجع إلى حب أمومة بدون هدف، حب الأمومة؛ التى تبحث عن هذا الهدف فى شخص لا يولد من خطيئة أو من نجاسة.

الأب نائب الأسقف يقول: إن ببيتا تعشق الطفل يسوع كما لو كان إلهًا، لكنها تحبه بحب غريزة الأمومة التى تحب طفلها لو كان لديها، ولا يوجد شيئ تشعر هى بالخجل منه.

لقد لاحظ السيد نائب الأسقف أن ببيتا تحلم بالأم المثالية، وبالطفل المثالى، كليهما خال من الدنس، هذا واضح عند التسبيح للعذراء القديسة، وعند عنايتها بتمثال الطفل يسوع الجميل.

أؤكد لسيادتك، أننى لا أعرف كيف أفكر فى هذه الأشياء الغريبة. ما أعرفه عن النساء قليل، وما يقصه علىّ السيد نائب

الأسقف عن ببيتا يدهشني، دائما أفهم من حديثه أن ببيتا امرأة صالحة، ليست سيئة، لذلك يعتريني شيئ من الخوف أحيانا من أجل والدي- فقد تجاوز الخامسة والخمسين - أعتقد أنه غارق في حبها، وببيتا -على الرغم من كونها صالحة فرضًا-، تستطيع دون قصد أن تكون أداة لروح الشر، من الممكن أن تمتلك شيئًا من الدلال الطائش والغريزي، الذي لا يقهر، دلال فعال ومحزن، والذي من الممكن أيضا أن تسلكه مع سبق الإصرار.

أحيانا أقول لنفسي: من يعرف؟ هل يمكن أن تتأسس عاطفة السيد نائب الأسقف نحو ببيتا على الأعمال الصالحة التي تقوم بها من تسابيح وحياة صلاح وعزلة، وبرها الكثير بالفقراء، وهباتها للكنيسة...، أم هنالك أيضًا سحر دنيوي، سحر شيطاني في هذه السمعة التي تحيط بها، والتي تأخذ بلب هذا الأب الساذج، وتجعله لا يفكر ولا يتحدث سوى عنها في كل لحظة؟

إن هذه السيطرة نفسها التي تمارسها ببيتا على رجل زنديق مثل والدي، وعلى طبيعة ذكورية وغير عاطفية على هذا النحو، هي، في الواقع، شيء غريب جدا.

كما لا تفسر أيضا الأعمال الخيرية التي تقوم بها ببيتا الاحترام والمحبة اللذين تثيرهما عموما في هؤلاء الريفيين. الأطفال صغار السن يخفون إلى رؤيتها في المرات القليلة التي تخرج فيها

للشارع، يقبلون يديها، يبسم الشباب لها ويحيونها بمحبة، ويخلع الرجال جميعا قبّعاتهم عند مرورها، وينحنون باحترام تلقائى، بكل عطف وبساطة وطبيعية.

ببيتا خيمنث التى شهد كثير منهم ولادتها، ورأوها جميعًا فى فقرها، وهى تعيش مع والدتها، ورأوها بعد زواجها من دونجومرسيندو العجوز البخيل، تجعلهم يتناسون ذلك كله، وتظهر كأنها مخلوق غريب، أتى من أرض بعيدة، من دائرة عليا، نقية ومتألقة، فتوجب وتحرك الاحترام الودود، الإعجاب البالغ الحب فى أهل بلدتها.

أرى أننى، شارد الذهن، أقع فى العيب نفسه الذى أتهم به الأب نائب الأسقف، وأننى لا أحدثك إلا عن ببيتا خيمنث. لكن هذا شيئ طبيعى. فهنا لا يتحدث أحد فى أمر آخر. ويمكن القول: إن المكان بأكمله مفعم بروح هذه السيدة المتفردة وفكرها وصورتها، ومازلت لا أجزم بالتحديد إذا كانت ملاكًا أو امرأة رفيعة مختالة مملوءة بغريزة المكر، مع تناقض هذه النعوت. لأن ما أعيه تماما؛ أن هذه السيدة لا تتذلل، ولا تحلم باكتساب إرادة الآخرين لكى ترضى غرورها.

هنالك صدق وبراءة فى ببيتا خيمنث. يكفى أن تراها كى تعتقد ذلك. مشيتها المتشامخة الهادئة، قدها الرشيق، جبهتها المصقولة

والوضاحة، الضوء الناعم النقى الذى ينبعث من نظراتها، كل ذلك يتفق فى إيقاع مناسب، كل ذلك يجتمع فى تناغم تام، فلا تشذ نغمة واحدة.

كم يثقلنى حضورى إلى هنا ومكثى فترة طويلة! لقد قضيت حياتى فى منزل سيادتك وفى الدير، لم أر ولم أتعامل إلا مع زملائى وأساتذتى، ولم أعرف شيئًا عن هذه الدنيا إلا بالتخمين أو نظريًا، وبغتةً، دون مقدمات، أجد نفسى ملقىً بى فى وسط الدنيا، بعيدا عن دراستى، عن تأملاتى وصلواتى بآلاف الأشياء الدنيوية.

٢٠ أبريل

عمى العزيز، خطاباتك الأخيرة، كانت بمثابة تهدئة سارة لنفسى. حذرتنى سيادتك بلطف، كالعادة، وبصرتنى بنصحائك المفيدة والرصينة.

حقيقة؛ رغبتى الشديدة فى بلوغ الهدف، دون وضع الوسائل، تستحق الملامة، أريد بلوغ الهدف دون المشى خطوة خطوة على الطريق الشاق.

أعانى من فتور النفس عند أداء الصلاة، ومن شرود الفكر ومن بذل حنانى فى توافه الأمور، وأتوق إلى التحليق للتعامل الحميم مع الله، إلى التأمل الجوهرى، وأستخف بالخطب الخيالية، والتفكير العقلانى. كيف، دون بلوغ النقاء، دون رؤية النور، سأستطيع أن أنال متعة الحب؟

مازال فى نفسى غرور كثير، ولا بد من إخضاعى أمام عينى، لكى لا تذلنى روح الشر، لقد أجازه الله، عقابًا لغرورى وكبريائى.

بالرغم من كل ذلك، لا أعتقد، كما نصحتنى سيادتك، أن من السهل على نفسى أن أقع فى خطيئة قبيحة وغير متوقعة، لا أثق فى نفسى، بل أثق فى رحمة الله، وفى فضلك على، وأتمنى ألاّ يحدث ذلك.

على أية حال، لك كل الحق فى نصيحتى بألا أوثّق كثيرًا عرى صداقتى مع ببيتا خيمنث، لكنى بعيد بما يكفى عن أى ارتباط بها.

لا أجهل أن رجال الدين المحترمين والقديسين، الذين يجب أن يكونوا مثالا وقدوة لنا، عندما جمعت الألفة والحب بينهم وبين النساء، كان ذلك في الشيخوخة، وكانوا شديدى التقوى، هدَّهم الندم، أو كان هنالك فارق ملحوظ في العمر بينهم وبين من يختارونهن من الصديقات الورعات، كما يحكى عن القديس جيروم والقديسة باولينا[1]. وفى عصر آخر بعد ذلك ، كانت بين القديس خوان دى لا كروث والقديسة تريزا صداقة شبيهة بذلك.

ومع ذلك، ورغمًا عن كونه حبًا فى الله فى جميع جوانبه، فإنه قد يعيبه الإفراط فيه. لأن الله وحده يجب أن يشغل نفوسنا، كمالكها وزوجها، وأى كائن يسكن هذه النفس لابد أن يكون فقط تحت مسمى خل أو عبد أو من مخلوقات القرين وقرة عينه.

---

(١) القديس جيروم (٣٤٧- ٤٢٠م) صاحب الترجمة اللاتينية (الفولجاتا) للعهد القديم والعهد الجديد. رجل ذو ثقافة واسعة كلاسية ودينية، ونفوذ دينى كبير فى الفاتيكان، تفرغ لحياة الرهبنة، بمصاحبة بولا وإيستاكيا، وكان يشعر نحوهما بمحبة كبيرة، ثم توجه إلى بيت لحم وأسس هناك ديرين، أحدهما للنساء وآخر للرجال، وقد أصبحت صديقته القديسة باولينا رئيسة الدير.

لا تعتقد سيادتك، إذن، أنى أباهى بكونى لا أقهر، أو أنى أستخف بالمخاطر أو أتحداها وأبحث عنها، فمن يتمادى فيها يهلك دونها. فقد ابتلى النبى الملك[1]- الأثير إلى قلب الرب والمشمول برعايته- وابتلى سليمان عليه السلام بالرغم من علمه الخارق الواسع، لقد ضلا واقترفا المعصية أيضا. لأن الله أشاح بوجهه عنهما، أفلا أخاف أنا، البائس الخطّاء، الشاب الغرير، غير المتمرس فى خبث الشيطان، لين العريكة، غير ذى الدربة فى معارك الفضيلة؟!

لم أنس نصائح سيادتك وتحذيراتك الحكيمة، مفعمًا بتقوى الله وبعدم ركونى إلى ضعفى، أسبح بحماسة فى عباداتى، وأتأمل الأشياء الإلهية، لكى أتخلى عن الأشياء الدنيوية، التى فيها ما هـو بغيض، لكن أؤكد لسيادتك، أنى حتى الآن، مهما غصت فى أعماق النفس وسبرت متوجسًا أركانها الخفية، لا أجد شيئًا يجعلنى أخشى الذى تخشاه سيادتك.

إذا كانت خطاباتى السابقة نتج عنها إطراء على نفس ببيتا خيمنث، فإن الذنب يرجع لوالدى، وللسيد نائب الأسقف، وليس ذنبى

(١) يرى الكاتب باليرا أن النبى الملك، داود عليه السلام، مسئول عن موت أوريس، إذ أحب زوجه وأرسل لأيوب قائد الجيوش يأمره: ضع أوريس على رأس الجيش فى المعركة الأكثر احتداما،... إلى نهاية القصة.

أنا، وبعيدًا عن كونى مفضلاً عند هذه السيدة، كنت دائما متحاملاً عليها بغير إنصاف.

أما فى مسألة جمال ببيتا وملاحتها، فلك أن تصدق أننى أشرت إلى ذلك كله بطهارة فكر. ومع أنه صعب القول، ويؤلمك قليلا، سأعترف لك بأن بقعة صغيرة أتت لتلطخ مرآة نفسى الوادعة واللامعة، والتى تنعكس فيها ببيتا. إنه شكك القاسى الذى قادنى للحظة تقريبا إلى الشك فى نفسى أيضا.

لكن لا. فيم فكرت؟ ما الذى رأيته؟ بم أعجبت فى ببيتا؟ لا لأحد أن يقول إنى أميل إليها فى شىء غير الصداقة والإعجاب الطاهر البرىء الذى تثيره فىَّ تحفة فنية، تحفة فنية من عمل الخالق المبدع العظيم، بل هى معبده نفسه.

من ناحية أخرى، لابد أن أعيش فى هذه الدنيا، عمى العزيز، يجب أن أتعامل مع الناس، يجب أن أراها ولا أقتلع عيني. لقد ذكرت سيادتك لى ألف مرة، أنك تريدنى فى الحياة الاجتماعية النشيطة، أبشر بالقانون الإلهى وأنشره فى أرجاء العالم، ولا أترك نفسى لحياة التأمل، فى الوحدة والعزلة.

حسن، إذا كان الأمر هكذا، وهو هكذا بالفعل، فبأى شكل علىّ أن أتصرف أنا كى لا ألتفت إلى ببيتا خيمنث؟ فيما عدا أن أضع نفسى موضع السخرية وأغمض عينى فى حضورها، أنا مجبر على

رؤيتها وملاحظة جمال عينيها، نصاعة وتورد ونضارة وجهها، وأسنانها الصدفية النضيدة، التى أكتشفها عندما تبتسم، وشفتيها النضرتين، وهدوء وجهها الغض، وآلاف الأشياء الأخرى الجذابة التى وضعها الإله فيها. وبالطبع فإن الذى يحمل فى نفسه بذرة الأفكار الفاحشة، ضمير الرذيلة، كل واحدة من الانطباعات التى تنتج عن ببيتا؛ من الممكن أن تشعل كل شيء وتلتهمه، لكن بالحذر ضد هذا الخطر، وتجنبى وتحصُّنى جيدا بشعار التعقل والبصيرة المسيحية، لا أرى أى شيئ يثيرنى. وبالإضافة إلى أن هناك مجازفة فى البحث عن الخطر، فإن من الجبن عدم معرفة مواجهته والهروب منه إذا لاح.

لا تشك فيما أقوله لسيادتك، إننى أرى أن ببيتا مخلوق جميل من صنع الله سبحانه وتعالى، ولله أحبها أختًا لى. إذا كنت أشعر ببعض الميل تجاهها، فهذا من كثرة الإطراء الذى أسمعه دائما من والدى، ومن كثرة مديح السيد نائب الأسقف، وكل من فى هذا المكان تقريبا.

من منطلق حبى لوالدى، أتمنى أن تتخلى ببيتا عن أفكارها وخططها عن حياة العزلة التى تعيشها وتتزوجه، لكن بصرف النظر عن ذلك، إذا رأيت أن والدى تتملكه نزوة فقط وليس حبًا حقيقيًا، فسأكون سعيدًا من موقف ببيتا الثابت فى الإبقاء على حالة الترمل، وعندما أكون أنا بعيد جدًا عن هنا، فى الهند أو فى اليابان أو فى

بعض المهمات الأكثر خطورة، سيكون عزائى الوحيد فى الكتابة إليها شيئًا عن أسفارى البعيدة وعن عملى. وعندما أتقدم فى السن سأعود إلى هذا المكان، سأستمتع بصداقتها الحميمة، وستكون هى أيضا عجوزًا، وأتجاذب معها حوارات روحية ومواعظ على الطريقة التى يتعامل بها الأب نائب الأسقف معها. ومع هذا، فاليوم، بما أننى مازلت شابا، أقترب قليلا من ببيتا، ولا أكاد أتحدث معها، أفضل أن أكون خجولا، غبيًا، فظًا، جافًا معها، كى أعطى أقل فرصة لشعورى نحوها بما لا يجب، لكن ليس للشك ولا للافتراء عليها.

أما فى شأن ببيتا فلا أتفق مع سيادتك لا من بعيد ولا من قريب، فى الذى تخمنه من شبهة فى علاقتى بها. ما الخطر الذى تشكله لرجل مثلى سوف يصبح قسيسًا فى غضون شهرين أو ثلاثة هى التى رفضت الكثيرين؟ لماذا لابد أن تولع بى أنا؟ أعرف نفسى بما فيه الكفاية، أعلم جيدا أننى لا أستطيع ، من حسن الحظ، أن ألهب غرام أحد، يقولون هنا: إننى لست قبيحا، لكننى غير لبق، ثقيل الفهم، غير بارع، بغير البصيرة، غير لطيف، أبدو كما أنا فى الواقع، طالب متواضع. من أكون أنا إلى جانب الشباب الرشيق الذى خطب ود ببيتا، على الرغم من كونهم قرويين بعض الشيء إلا أنهم فرسان أذكياء مرحون فى الحديث، صيادون مهرة مثل نمرود [1] يتسمون بالأناقة والرشاقة فى كل الممارسات البدنية، مطربون رقيقون،

[1] القناص الماهر فى الإنجيل.

مداحون في جميع أعياد الأندلس الشعبية، رماحون بهيجو المنظر، وبارعون في كل شيء ويتميزون بالأناقة، فإذا كانت ببيتا رفضت كل هؤلاء فكيف ستنظر إلى؟ أنى لها أن تضع مثل هذه الخطة الجهنمية والمشروع الأكثر شيطانية لتعكر به سلام نفسى وهدوء روحى، لتجعلنى أترك دعوتى الدينية، أو ربما لكى تفقدنى صوابى؟ لا، مستحيل. أنا أعتقد أن ببيتا امرأة صالحة، وأنا أيضا، أقول ذلك دون تواضع زائف، أعتقد أننى لا قيمة لى. مفهوم أننى أعتقد ألا قيمة لى كى أجعلها تحبنى وليس لكى أصبح صديقها، لا لكى تقدرنى ويأتى اليوم الذى تكن لى بعض التفضيل، عندما أثبت أننى جدير بهذا التفضيل بعد حياة من الكد والورع.

وأستميحك العذر إذا كنت أدافع بحماسة مفرطة بشأن بعض التحفظات التى وردت بخطابك، والتى تعكس اتهامات وتكهنات مزعجة.

إننى لا أشكو من هذه التحفظات، إنك تعطى تنبيهات متعقلة أوافق على جزء كبير منها، وأفكر فى اتباعها. وإذا كنت تذهب مذهبًا بعيدا عن الإنصاف فذلك ، دون شك، لاهتمامك بى، وأنا أقدر لك ذلك، من صميم القلب وأشكره لك كثيرا.

٤ مايو

أتعجب من أننى لم أستطع الكتابة لسيادتك منذ أيام كثيرة، لكنها الحقيقة. والدى لا يتركنى أتوقف لحظة والزيارات تحاصرنى. فى المدن الكبيرة من السهل عدم استقبال أحد، العـزلة، أن تخلق لنفسك جوّا من الوحدة، كمثل مدينة طيبة القديمة أو "طيبايد"، ملاذ العباد والزهاد وسط الضوضاء، أما فى مكان مثل الأندلس، خصوصًا أن لى الشرف أن أكون نجل صاحب الضيعة، فأنا فى حاجة للعيش وسط الجمهور، إنهم لا يتسللون إلى الحجرة التى أكتب فيها وحدها، بل إلى مخدعى دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض، السيد نائب الأسقف، الكاتب، كوريتو نجل عمتى كاسيلدا، وآلاف آخرون يوقظوننى لو كنت نائما، ويذهبون بى حيثما يريدون.

النادى هنا ليس للتسلية المسائية فقط، بل لكل ساعات اليوم، يمتلئ بالناس منذ الحادية عشرة صباحًا، يتحدثون ويقرأون الصحف لمعرفة الأخبار، ويلعبون الورق أيضا. هناك أشخاص يقضون عشر ساعات أو اثنتى عشرة يلعبون ذات اللعبة. فى نهاية الأمر، يوجد هنا نوع من الكسل الساحر، الذى ليس له مثيل، فالمتع كثيرة، بغرض التسلية فى هذا الكسل. هنالك ألعاب ورق أخرى، أما السيدات فيلعبن الشطرنج والدومينو دون إغفال. وأخيرا، يوجد شغف شديد بلعبة مصارعة الديوك.

كل ذلك إلى جانب كثرة الزيارات، والذهاب إلى الريف لتفقد العمل هناك، مثل مراجعة الحسابات مع الخولى كل مساء، وزيارة مصانع الخمر والحانات، وتصنيف النبيذ وإعداده، والتعامل مع الغجر ومروضى الخيول، والتجار والحرفيين للشراء والبيع، أو لتبديل الخيول والبغال والحمير، والتعامل أيضا مع المتخصصين فى نبيذ شريش؛ الذين يأتون لشراء محصول النبيذ من والدى. كل ذلك يشغل هنا السادة أوالنبلاء أو أيًا كان اسمهم، يوميا. فى مناسبات غير عادية، ثمة أعمال وتسليات تثير فى الجميع حماسة أكثر، مثل موسم جنى العنب أو محصول الزيتون أو مولد أحد القديسين، أو معبد به صور معجزات مريم العذراء، حيث يحضر إلى هذا المهرجان عدد غير قليل بقصد الفضول والاستمتاع، والتسوق أيضا لصديقاتهم اللاتى يغازلونهن فى المولد. إن الذين يأتون للعبادة أو لوفاء نذر كثيرون. توجد معابد على قمم الجبال المرتفعة جدا، ومع ذلك لا ينقص هذا المكان سيدات رشيقات يصعدن إلى هناك بأقدامهن الحافية والمجروحة من الأشواك والأحجار، فى الطرق الوعرة الشديدة الانحدار.

إن الحياة هنا لها سحر خاص، للذى لا يحلم بالآخرة، للذى ليس عنده طموح، أفهم جيدا أن هذه الحياة لذيذة ومريحة جدا. لدرجة أن الوحدة ممكن بلوغها بصعوبة بالغة. ولأننى هنا لفترة وجيزة، لا أستطيع ولا يجب أن أفعل ذلك، لكننى لو كنت مقيمًا بصفة دائمة،

كنت سأجد صعوبة في ذلك، دون مضايقة أحد، أغلق الغرفة عليّ وأنعزل ساعات كثيرة أو أثناء النهار كله بهدف التفرغ لدراستى وتأملاتى.

خطاب سيادتك الجديد الذى وصلنى أخيرًا أحبطنى بعض الشيء.. أرى أنك مصر على شكوكك نحوي، ولا أدرى كيف أثبت براءتى بغير الذى ذكرته لك.

تقول سيادتك: إن النصر الكبير فى بعض المعارك يتلخص فى الهروب؛ إن الهروب هو النصر. كيف أنكر أنا ما قاله العديد من رجال الدين والكنيسة؟ ومع ذلك، إنك لتعلم جيدا أن الهروب ليس متعلقًا بإرادتى. إن والدى لا يريدنى أن أرحل، ويرغمنى على البقاء ضد إرادتي، ويجب أن أطيع أوامره، وأنا محتاج إذن أن أنتصر بطرق أخرى وليس بالهروب.

لكى تهدأ، أكرر لك أن الصراع لم يحتدم بعد، فأنت تحمّل الأشياء أكثر مما تحتمل.

لا يوجد أقل دليل على أن ببيتا خيمنث تحبنى، وحتى لو كانت هكذا، سوف يكون بطريقة أخرى غير التى تفعلها النساء اللاتى ذكرتهن سيادتك، لتكون عبرة لي. إن سيدة شريفة وعلى خلق فى أيامنا هذه مثل ببيتا ليست كالنساء السوقيات أو المتعطشات اللاتى يمتلئ بهن التاريخ القديم.

والفقرة التى توردها سيادتك كحجة؛ على لسان يوحنا كريسوستوم جديرة بالاحترام، لكنها ليست ملائمة لهذه الظروف. إن السيدة العظيمة التى أحبت ابن يعقوب المفضل فى مصر، لابد من أنها كانت جميلة جدا، والمعجزة الكبيرة تصور أن يوسف لم يحترق فى لهيب حبها كما لم يحترق الصبية الثلاثة الذين أمر نبوخذ نصر بإلقائهم فى أتون فأنقذهم تمسكهم بإيمانهم.

أما فيما يختص بالجمال: لا أتصور أن امرأة ذلك الأمير المصرى أو رئيس خدمة قصر الفراعنة أو شيئًا مـــن هذا القبيل، كانت تفوق ببيتا فى جمالها، كما أننى لست كسيدنا يوسف، حائز جميع الصفات والعطايا الإلهية، ولا ببيتا سيدة دون حياء ولا دين؛ وحتى لـــو كان ذلك كذلك، ولو افترضنا كل هذه الأخطاء، لا أجد تفسيرًا لذكر مشابهة القديس يوحنا كريسوستوم، إلا لأنه كان يعيش فى العاصمة الفاسدة، الكافرة، وفى ذلك العصر الذى أدان فيه الرذيلة بقسوة، وحيث كانت الإمبراطورة إيبيودوكسيا نفسها مثالا للفساد والفضيحة. لكن، اليوم وقد غزت الأخلاق المسيحية قلب المجتمع المسيحى بعمق، يبدو لى مبالغا فيه؛ الاعتقاد بأن رفض ابن يعقوب العفيف أكثر إعجازًا من عدم احتراق أجساد صبية بابيلونيا الثلاثة.

نقطة أخرى تطرقها سيادتك فى خطابك قد ألهبت حماستى وأعجبتنى للغاية، تهتم سيادتك للعاطفة المبالغة فيها؛ والميل إلى التأثر والبكاء لأسباب تافهة، مثل التى ذكرتها والتى أعانى منها

أحيانا، لكن هذه العاطفة المخنثة فى نفسى، والتى توجد بداخلى، لحسن الطالع، لا أخلط الآن بينها وبين العبادة والتأمل ولا ألوّثها. سيادتك تعترف وتمتدح فى شخصى عزيمة الرجولة الحقيقية؛ التى يجب أن تتوفر في الإخلاص وفى العقل؛ الذى يتشوّف الصعود إلى الله سبحانه وتعالى. العقل؛ الذى يصارع من أجل تفهمها، لابد أن يكون ذا عزيمة قوية، والإرادة التى تقهر تماما هى التى تنتصر على نفسها، تتصارع فى معارك شجاعة مع كل الرغبات وتهزم وتتجنب كل الإغراءات، العاطفة نفسها ترتقى وتتوقد، حتى فى المخلوقات البسيطة والصغيرة النفس تستطيع أن تسمو وتصعد إلى بارئها بنشوة الحب التى تبلغها بإلهام خارق الطبيعة، وهذه العاطفة وليدة شخصية راسخة ونزيهة فضلاً عن كونها من النعم الإلهية. وهذا الفتور، ضعف الإرادة هذا والحنان المرضى، ليس له صلة بالإيمان ومحبة الله، ليس له صلة بالعبادة وبالمحبة الإلهية. وهو لا يخص النساء بل الرجال، الملائكة. نعم إن سيادتك على حق لثقتك بى، وبأنك تأمل أننى لن أضيع، لأن الورع المتساهل لن يفتح أبواب قلبى على الرذائل. إن الله سينقذنى، وأنا سوف أقاوم لكى أنقذ نفسى بعون منه؛ لكنى حتي لو ضللت الطريق، فإن أعداء النفس والخطايا المهلكة لن تتسلل خفية إلى حصن ضميرى، بل ستدخل بالرايات الخفاقة المعلنة، بالدم والنار، وبعد كفاح مرير.

سنحت لى فرصة فى الأيام الأخيرة كى أدرب النفس على الصبر الجميل وأميت حبى الخاص بأشد الطرق قسوة. أراد والدى أن يرد لبيبتا مأدبة بستان الفاكهة فدعاها إلى زيارة منزله الريفى عند عزبة سولانا. لن أنسى هذا التاريخ. كانت الرحلة يوم ٢٢ أبريل، وضيعة سولانا على بعد أكثر من فرسخين من هنا، ولا وسيلة إلى هناك غير طريق للدواب، لذلك اضطررنا إلى الذهاب هكذا، وبما أنى لم أتعلم ركوب الخيل، كنت أذهب مع والدى فى جميع الرحلات السابقة على ظهر بغلة صغيرة، وديعة، وهي، حسب ما ذكر لنا السيد دينيتّس البغال، أنبل من الذهب، وأصيلة وأكثر هدوءًا من أية سيارة. فكانت الرحلة إلى ضيعة سولانا على نفس هذه الشاكلة.

كان والدى والكاتب وكوريتو ابن عمتى يمتطون خيولاً جيدة. وعمتى كاسيلدا -التى تزن أكثر من ١١٥ كيلو جرامًا- على حمار ضخم وقوى، فوق ظهره سرج خاص. والسيد نائب الأسقف على بغلة هادئة ووديعة مثل التى أمتطيها. أما بيبتا خيمنث، التى كنت أتصور أنها ستأتى أيضا فوق ظهر حمار بسرج خاص لأنها لا تستطيع ركوب الخيل مثلى، فقد فاجأتنى ممتطيةً حصانًا عصبى المزاج، سريعًا جدا ونشيطًا، مرتدية لباس الفروسية وتقود الحصان بمهارة فائقة.

لقد سررت عندما رأيت بيبتا بهذه الرشاقة فوق ظهر الحصان، لكننى – طبعا – بدأت أتعذب وشعرت بالخجل من الدور

الفاشل الذى أقوم به إلى جانب عمتى كاسيلدا والأب نائب الأسقف، وبينما كنا ذاهبين فى مؤخرة الموكب، مسالمين وهادئين مثل السيارة، كان الموكب البارع يعدو ويحفر الأرض من جرى الفرس السريع، يحلق ألف مرة ويتموَّج كالبحر.

تصورت فى الوقت نفسه أن ببيتا تنظر إلىَّ بعين الشفقة عند رؤية وجهى الذى يرثى له فوق البغلة التى أمتطيها. نظر لى كوريتو ابن عمتى بابتسامة ساخرة، وبدأ فى الحال يمزح معى ويؤلمنى. تمتدح سيادتك استسلامى للقدر وصبرى الشجاع، هكذا فعلت على نحو جيد وسريع، حتى مزاح كوريتو انتهى عندما لاحظ عدم اكتراثى. لكنى كم تألمت كثيرًا من داخلى، هم "يرمحون"، يتقدموننا كثيرا فى الذهاب وفى العودة. وأنا والسيد نائب الأسقف مكثنا فى هدوء مثل البغال دون الخروج عن الطريق، والسيدة كاسيلدا تسير بيننا.

لم أتمكن على الأقل من التسلى بالتحدث إلى الأب نائب الأسقف؛ الذى كان حديثه يمتعنى دائما، ولا بالخلو إلى نفسى، ولا بالركون إلى أحلامى، ولا بالتمتع منفردًا بجمال الأرض التى نطوف بها. فالسيدة كاسيلدا ثرثارة فظيعة، وكنا مرغمين على سماعها. ذكرت لنا كم يوجد من النكت فى القرية، وحدثتنا عن مهاراتها، شرحت لنا كيف تطهو سجق الخنزير، وتعجن الفطائر وتعد السجق المحشو، وألف صنف آخر من ألوان الطعام والهدايا. لا أحد ينتصر

عليها فى أعمال المطبخ، وفى ذبح الخنازير، حسبما تذكر، إلا أنطونيونا مرضعة ببيتا المسئولة اليوم عن إدارة منزلها. إننى أعرف أنطونيونا هذه من قبل، لأنها تذهب وتأتى للمنزل حاملة رسالات، بالفعل هى سريعة البديهة، ثرثارة أيضا مثل عمتى كاسيلدا، لكنها كتوم ألف مرة عنها.

الطريق إلى ضيعة سولانا ممتع، لكننى كنت متكدرًا لدرجة أننى لم أستمتع به. عندما وصلنا إلى منزل الضيعة، وهبطنا من فوق البغال، زال عن عاتقى حمل ثقيل، كما لو كنت أنا الذى أحمل البغلة وليست هى التى تحملنى.

ما إن ترجلنا، رحنا نجول بالأملاك التى هى فى غاية الجمال ومدهشة ومتنوعة وشاسعة. يوجد هناك أكثر من مائة وعشرين فانيجا من الكروم القديم والجديد الذى يأتى ثماره، كل ذلك فى أرض واحدة، وأكثر من ذلك توجد أشجار الزيتون ثم غابة البلوط الكبير والنادر فى إقليم الأندلس. ومياه ضيعة سولانا تكون مجرى صغيرًا صافيًا وغزيرًا؛ حيث تأتى إليه كل الطيور من الجوار لتنهل منه، وحيث يصطادون الطيور بالمئات، بواسطة شبكة يشد إلى وسطها ما يشبه الطائر فتطمئن الطيور وتهوى إليه. تذكرت هناك أوقات اللهو أثناء طفولتى، وكم من المرات ذهبت لصيد الطيور بهذه الطريقة المذكورة.

تابعنا السير فى اتجاه النهر، وبالأخص عند المنخفض، حيث تكثر أشجار الحور، وأخرى عالية مليئة بالأعشاب والحشائش فتكون ممرًا ضيقًا متشابكًا وغابة ظليلة. كما تنمو أيضا آلاف النباتات البرية والعطرة بطريقة عشوائية. وما أصعب تخيل شيئ أكثر من هذا جفافاً، من الصعب بلا شك تخيل مكان ريفى ومنعزل أكثر هدوءًا وسكينة. تخيل هناك حرارة الجو ظهرًا، عندما تنثر الشمس نورها بغزارة، تحت سماء صافية، دون غيوم، فى القيلولة الحارة والهادئة، نفس الرعب الغامض من ساعات الليل. يمكن تخيل هناك أيضا حياة البطاركة القدامى وحياة الأبطال البدائية والرعاة، والأشباح التى تعكس حوريات الغابة فى السواقى والآلهة والملائكة، فى وضح النهار.

أثناء سيرى فى تلك الغابة، أتت لنا فرصة لا أستطيع أن أقول كيف سنحت؛ فى لحظة وجدت نفسى أنا وببيتا وحدنا، أنا بجانبها، وباقى الركب ظل خلفنا. حينئذٍ شعرت برعشة تنتاب جسدى كله، كانت هذه أول مرة أجد نفسى وحدى مع ببيتا فى مكان منعزل كهذا، وفى لحظة كنت أفكر فيها، فى الأشباح التى تظهر عند زوال النهار، فى أشباح إما شريرة وإما وادعة، لكنها دائما خارقة للطبيعة، من رجال العصور القديمة.

كانت ببيتا قد تركت تنورتها الطويلة التى كانت ترتديها فوق ظهر الحصان فى المنزل الريفى؛ وارتدت ثوبًا قصيرًا لا يضايق

حركاتها الرشيقة المليحة. وتضع فوق رأسها قبعة أندلسية صغيرة مثبته برشاقة، وبيدها السوط الذى تخيلته مثل عصا الفضيلة كى تستطيع أن تسحرنى به تلك الخادعة.

لن أخاف هنا من تكرار الثناء على جمالها. كانت تبدو لى أكثر جمالاً فى تلك الأماكن القروية. فيما انتابنى الحذر الذى ينصحون به الزاهدين، بالتفكير فيها وقد نالت منها السنون بسبب الأمراض، وقد ماتت وتحللت وأكلها الدود، أتت كل هذه المزاعم إلى مخيلتى رغم أنفى، وأقول رغم أنفى لأننى لا أفهم على الأحرى جدوى هذا الحذر المزعج. لا يوجد أى إثم فيما هو دنيوى، لا وسواس أزعج به نفسى، أو بوسعه أن يلوث إرادتى ومشاعرى.

ما طرأ على بالى بالفعل؛ هو برهان لى كى يبطل على الأقل فى نفسى تأثير هذا الحذر. فالجمال عمل فنى فائق وإلهى من الممكن أن يكون زائلا، أن يختفى فى الحال، لكن فكرته خالدة، راسخة فى عقل الإنسان، تحيا حياة خالدة لو أدركت. وجمال هذه السيدة، كما هو واضح اليوم، سوف يختفى خلال سنوات قصيرة، هذا الجسد الرشيق، هذا الرأس النبيل، المرفوع بلطف فوق الكتفين، كل ذلك سوف يصبح نهبًا لديدان نجسة، لكن لو أن لابد للمادة أن تتحول، فماذا عن الشكل، الفكر الفنى، الجمال نفسه، من الذى سيحطمه؟ أليس موجودًا فى العقل الإلهي؟ ألن يعيش فى نفسى، بعد أن أستوعبه وأعرفه، فيقهر الشيخوخة بل والموت؟

هكذا فكرت عندما كنت قريبًا من ببيتا، هكذا كنت أهدئ من نفسي وأخفف عنها الشك؛ الذى تمكنت سيادتك من الإيحاء به لي. أريد ولا أريد فى الوقت نفسه، أن يأتي الآخرون. يسرنى ويحزننى فى نفس الوقت المكث وحدى مع تلك السيدة.

خرق الصمت صوت ببيتا الفضى وأخرجتنى من تأملاتى. قالت:

- ما لى أراك صامتًا وحزينًا هكذا يا سيد لويس، يحزننى أننى ربما أكون السبب، أو على الأقل فى جزء منه، أساء والدك بإحضارك إلى هنا لقضاء وقت غير سعيد فى هذه الأماكن الموحشة، وإخراجك من أماكن أخرى أكثر عزلة، حيث لا تجد شيئًا يصرفك عن صلواتك وقراءاتك الدينية.

لا أعرف بماذا أجبت على ذلك. لابد أنى فعلت بقول واحدة من حماقاتي، لأنى كنت مرتبكًا ولا أريد المجاملة لببيتا بقول عبارات دنيوية لطيفة ولا أن أكون فظاً.

أردفت هى:

- اغفر لى سوء ظني، لكنى أتصور - إلى جانب الضيق الذى ترى نفسك فيه لأنك منفصل اليوم عن مشاغلك المفضلة- أن هنالك شيئًا آخر يعكر مزاجك.

قلت لها:

- ما هذا الشيء الآخر فى رأيك أنت، التى تكشفين كل شيء أو تظنين ذلك؟

أجابت بيبتا:

- هذا الشىء الآخر ليس شعورًا أحرى بمن سيصبح راهبا فى وقت قريب، بل بشاب فى الثانية والعشرين من العمر.

شعرت بالدم يصعد إلى وجهى عند سماعى هذا الكلام، وبأن وجهى يشتعل. تصورت آلاف الأطوار الغريبة تنتابنى، اعتقدت أننى أصبحت فريسة للهواجس. اعتبرت نفسى مستفزًا من جانب بيبتا، وأنها تريد أن تُفهِمنى أنها تعلم أنها تروقنى، حينئذ تبدل خجلى إلى كبر جريىء وأنعمت النظر إليها. شيء ما كان غريبًا فى نظرتي، لكن بيبتا لم تلاحظه أو أخفته بتحفظ رقيق، مشيرة إلى ذلك بطريقة أكثر بساطه:

- لا تنزعج من اكتشافى بعض الخطأ، إن الذى لاحظته يبدو لى شيئًا تافهًا. إنك مستاء من مزاح كورينو (لنقل ذلك على نحو دارج) لأنك لعبت دورًا لا يليق على متن بغلة وديعة مثل السيد نائب الأسقف البالغ من العمر ثمانين عامًا، وليس على ظهر حصان متألق؛ كما يجب أن يكون فى حالة شاب فى مثل عمرك وظروفك. الذنب يرجع لعمك القُمُص، الذى لم يفكر فى تعليمك الفروسية، إن ركوب الخيل لا يتعارض مع الحياة الدينية؛ التى

تفكر في اتباعها، وأعتقد أن والدك - بما أنك موجود هنا - يجب أن يعلمك في أيام قليلة. فإذا ذهبت إلى إيران أو إلى الصين مثلا، سوف تعطي صورة سيئة لعدم معرفتك ركوب الخيل، خصوصًا أن هذه الأماكن لا توجد بها قطارات. أحيانًا يسيء المبشر إلى سمعته بين هؤلاء الهمجيين غير المتحضرين، نظرًا إلى عدم مهارته هذه، وبعد ذلك يكون من الصعب أن تنجح دعوته.

هذا كله، وأحاديث أخرى كثيرة أسمعتنيها ببيتا لكي أتعلم الفروسية، حتى صرت مقتنعًا تماما بالفائدة التي تعم على المبشر من تعلم الفروسية، ووعدتها بالتعلم في الحال، آخذًا والدي مدربًا لي. قلت:

- في أول رحلة نقوم بها بعد الآن لابد أن أمتطي صهوة أقوى جياد أبي لا أية بغلة كالتي أتنزه بها اليوم.

أجابت ببيتا بابتسامة أشد ما تكون نعومة:

- كم سيسعدني ذلك...

بعد ذلك، وصل الجميع إلى حيث كنا. لقد كنت مسرورًا بداخلي وسررت أكثر، لا لشيء إلا خوفي من ألاّ أنجح في تحمل الحديث معها، ومن خروج ألف سذاجة من فمي لعدم خبرتي في الحديث مع النساء.

بعد التنزه، فوق الحشائش اليانعة، فى المكان الأكثر جمالاً بالقرب من النهر الصغير، قدم لنا خدم والدى وجبة ريفية وفيرة. كان الحديث مرحًا جدًا، أظهرت بيبتا موهبة وخفة روح لافتتين. عاد كوريتو ابن عمتى إلى التهكم على طريقتى فى ركوب الخيل، وعلى وداعة البغلة التى كنت أمتطيها، نادانى باللاهوتى وقال إنى بدوت كمن يوزع البركات وأنا فوق تلك البغلة.

لكنى هذه المرة بعد إصرارى وعزمى الثابت أن أصبح فارساً، أجبت بجرأةٍ لاذعة. لزمت الصمت، عاقدًا العزم فى قرارة نفسى على تعلم الفروسية. فكرت بيبتا بدون شك، مثلى، على الرغم من أننا لم نتفق على شيئ، بأن نلتزم الكتمان لكى يفاجأ الجميع بعد ذلك بإجادتى ركوب الخيل، ولم تذكر شيئًا من حديثنا. من هنا نشأ بيننا طبيعيًا وفى بساطة؛ هذا السر الذى أوجد فى نفسى رد فعل غريبًا.

لم يحدث شيء آخر يستحق الذكر ذلك اليوم.

فى المساء، عدنا من المكان مثلما أتينا. ومع ذلك أنا على بغلتى الوديعة بجانب عمتى كاسيلدا، دون تأفف أو حزن عند العودة مثل الذهاب، واستمعت إلى عمتى كاسيلدا أثناء الرحلة دون الشعور بتعب من حكاياتها، وسلّيت نفسى بلحظات وتصورات شاردة فى ذهنى.

لا شيء من الذى مر بنفسى يجب أن يكون غامضًا لك. أبوح لك بأن صورة ببيتا كانت هى المركز والنواة لهذه التصورات التى طافت فى مخيلتى. لقد جلبت إلى ذاكرتى جميع الأشباح، بطيفها المعقد، الظليل والصامت مثل الغصون الخضراء الوارفة، كل الأشباح الطيبة والشريرة، الكائنات العجيبة، ذات الطبيعة الأرفع والأسمى من أنفسنا، والتى قرأت عنها فى المؤلفات المقدسة المذكورة فى الإنجيل.

أجل، لقد بدت لى ببيتا فى عينى، وفى المسرح الداخلى لمخيلتى، ليست كما كانت فوق الحصان أمامنا، بل بطريقة مثالية وسماوية فى الغابة المنعزلة، مثل إينياس وأفروديت، والدته، مثل كليماخو، مثل الراعى البوهيمى كروكر، الذى تخيل بعد ذلك ليبوسا، مثل ديانا عندما ظهرت لابن أريستيوس، مثل ظهور الملائكة للبطريرك فى سهل مامبرى، مثل القديس أنطونيو أباد فى طيبة؛ الذى تبدى له الشيطان فى صورة سنتور (مخلوق نصفه إنسان ونصفه جواد).

أرى أن الذى غيَّرته ببيتا فى ذهنى هو شىء طبيعى جدا، عندما لاحظت ثبات هذه الفكرة، اعتقدت فى لحظه ما أن الوسواس تسلطت على عقلى، ثم أيقنت، كما هو واضح، أنه لم يحدث شيء غير طبيعى، أو مبتذل فى الدقائق القليلة التى كنت فيها وحدى مع ببيتا بجانب نهر سولانا الصغير، رحلت بعدها قانعًا بما أنا فيه،

أسير بهدوء فوق البغلة، لكن بعدما ظهر لى شيطان ما، التف حولى خفية وأنا أفكر فى ألف حماقة.

فى تلك الليلة عرضت على والدى رغبتى فى تعلم الفروسية، لم أرد أن أخفى عنه أنها فكرة ببيتا، وأنها هى التى حثتنى على ذلك. شعر والدى بسعادة كبيرة، احتضننى وقبلنى وذكر لى أن سيادتك لن تكون وحدك أستاذى بعد الآن، إنه سوف يحظى بهذا الشرف لكى يعلمنى شيئًا. أخيرا، أكد لى أنه فى خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع سيجعل منى أبرع فارس فى الأندلس، وسأكون قادرًا على الذهاب إلى "جبل طارق" لجلب البضائع المهربة، والعودة من هناك خادعًا الذين يراقبوننى، ومعى أكياس مليئة بالتبغ والقطن الجيد، وسأذهل جميع الفرسان الذين يتفوقون فى مهرجانات إشبيلية ومايرينيا، وأمتطى صهوات "بابيكا" – جواد "السيد قمبيطور" – و"بوسيفالوس" – جواد الإسكندر الأكبر – بل وحتى جياد الشمس ذاتها – جياد هليوس أو أبولو، بيرويس وإيكوس وفايتون وفليجونتي، لو هبطت مصادفة إلى الأرض لأمسك بها من اللجام.

لا أدرى ماذا تفكر سيادتك فى فن الفروسية الذى أتعلمه، إننى أتوقع أن سيادتك لن ترى غضاضة فى ذلك. لو أنك رأيت والدى، كم هو فرح ومبتهج بتعليمى، منذ اليوم التالى للرحلة التى أشرت إليها، يعطينى ساعتين يوميا، أثناء النهار، فوق ظهر الحصان، كانت الدروس فى فناء المنزل الأسبوع الأول، لأنه فناء طينى، واستخدمناه

كحلبة لترويض الخيل. بعد ذلك بدأنا فى الخروج إلى الريف. حاولنا ألا يشاهدنا أحد. والدى لا يريد أن يرانى أحد، ولا أظهر أمام الناس حتى تحكم الخطة التى رسمناها بإتقان وذكر لى أنه مذهول شخصيا بتقدمى، فإذا كان غروره كأب لا يخدعه، سيصير ذلك سريعا، لأن لدى استعدادًا مدهشًا كى أصبح فارسًا جيدًا.

يصيح والدى مهللاً عندما يرى تقدمى ويقول: حسنا ترى أنك الآن ابنى.

ووالدى رجل طيب جداً، أتعشم أن تغفر له سيادتك لغته السوقية، ونكته الخليعة وغير المحترمة. إننى أتعذب وأعانى من داخلى بسبب ذلك كله، لأننى أثير الشفقة الآن من ألم فى العضلات بسبب الدروس المستمرة والطويلة، وينصحنى والدى بأن أمرّن الجسد على التحمل والجلَد، وأن أكتب لسيادتك وأذكر لك ذلك.

والدى لا يرغب فى التقاعس عن تعليمى، ويقول بما أنه أثبت أنه علمنى الفروسية بجدارة فى فترة وجيزة، يقترح على دروسًا أخرى شاذة، أعتقد أنها غير ملائمة بالمرة لراهب مثلى على وشك التخرج، فمرات يريد اصطحابى إلى أشبيلية لتعليمى مصارعة الثيران من فوق ظهر الحصان، لكى أبهر من يتفاخرون بالقوة والشجاعة فى سهول "تبلادا". فى مرات أخرى يتذكر أيام شبابه عندما كان حارسًا فى الـ"كوربس" (الحرس الملكي)، ذكر لى أنه

سيبحث عن حزامه والقفاز، والقناع لكى يعلمنى لعبة الشيش. وأخيرا يتفاخر بأنه الأمهر فى استخدام المدية، وعرض على أن يعلمنى هذه المهارات.

سوف تجيب سيادتك على قدر هذا التهور فى أفكار والدى ورغباته. يذكر لى، أن فى الزمن القديم كان رجال الدين، ليس هم فقط، بل كان الأساقفة أيضا يمتطون الجياد ويلهبونها بالسوط دون رحمة، وأنا أرى أن هذا ممكن حدوثه فى العصور الهمجية، وليس الآن، فعلى رجال الكنيسة أن يتذرعوا بسلاح العقيدة والإيمان. يضيف والدى، ألا يكون حسنًا إعمال الحجج باستخدام الضرب؟ إن المبشر الجيد - حسبما يفهم والدى - يجب أن يلجأ إلى هذه الوسائل "البطولية" فى بعض الأحيان. أبى قرأ كثيرًا عن الرومانسية والتاريخ، ويذكر أمثلة كثيرة مستندًا برأيه إليها. منها على سبيل المثال، يستشهد بـ"شانت ياقب" الذى إلى جانب كونه نبيًا كان يطعن المسلمين الذى يوعظهم ويقنعهم من فوق حصانه الأبيض. ويشير كذلك إلى "بدرو دى بيرا" الذى ذهب مع سفارة الملوك الكاثوليك إلى أبوعبد الله الصغير، آخر ملوك غرناطة، وفى باحة الأسود بقصر الحمراء" اشتبك مع المسلمين فى مشادات دينية، ولضيقه بهذه الأسباب، أخرج سيفه وهاجمهم لكى يقضى عليهم ويتخلص منهم، ويشير أخيرا إلى الشريف الباسكى "دون إنييجو دى لويولا" الذى كان فى جدال مع أحد المسلمين حول طهارة القديسة مريم، فاستاء من

سبّها بالكفر ومن معارضة المسلم له، وهجم عليه والسيف فى يده، ولولا فرار المسلم لأقنعه بأسلوب مرعب. أما فى شأن واقعة القديس إجناسيوس، فقد أجبت على والدى بأن هذا منذ زمن بعيد قبل أن يصبح القديس راهبًا، وبخصوص الأمثلة الأخرى، ذكرت له أنه لا يوجد وجه للمقارنة. أدفع عنى بقدر ما أستطيع مزاج والدى وأقتصر على أن أكون فارسًا جيدًا دون تعلم هذه الفنون الأخرى غير الملائمة بالمرة لرجال الدين، بالرغم من أنه يؤكد لى أن عددًا غير قليل من رجال الدين الإسبان يعرفونها ويمارسونها بصفه دائمة فى إسبانيا، حتى يومنا هذا، بهدف انتصار العقيدة والمحافظة على وحدة الكاثوليكية وإصلاحها.

أسفت من صميم القلب، لأن والدى يفكر هكذا؛ لأنه يتحدث بعدم احترام ويسخر من الأشياء الأكثر جدية، لكن لا ينبغى علىّ – كابن محترم – الذهاب بعيدًا فى شجب أفكاره واتهامه بالزندقة. بل أسمى أفكاره هذه "فولتيرية" لأننى لا أجزم بتفسيرها جيدًا.

إن والدى كاثوليكى طيب فى أعماقه، وهذا يطمئننى.

كان الأمس عيد الصليب، المكان كان مزدحمًا وبكل شارع ستة أو سبعة صلبان مليئة بالورود، لكن لم أر أجمل من التى تعلقها ببيتا على باب منزلها، عبارة عن بحر من الزهور التى تزينه. [١]

حضرنا فى المساء حفلاً فى منزل ببيتا، وضعت الصليب الذى كان موجودًا فى الشارع فى صالة كبيرة منخفضة بها بيانو، وبدأت ببيتا فى العزف فى مشهد بسيط وشاعرى؛ كنت رأيته فى طفولتى لكننى لم أكن أتذكره.

تدلت من رأس الصليب سبعة أشرطة من الحرير، اثنان بلون أبيض واثنان بلون أخضر وثلاثة باللون الأحمر، الألوان التى ترمز للفضيلة الدينية. أمام الشرائط السبعة المتدلية من الصليب سبعة أطفال تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسادسة، يمثلون القرابين السبعة المقدسة، يرقصون على طريقة الكونترادانثا (باشتراك أكبر عدد من الراقصين)، مدربين على أكمل وجه. أما التعميد فكان عبارة عن طفل يرتدى رداء التعميد الأبيض الفضفاض، وطفل آخر يمثل رجل دين، يرتدى ملابس راهب لتثبيت العماد، وأحد الأساقفة يمسح على مريض، وغريب بعصا طويلة ورداء يوضع فوق الكتفين فوق

---

[١] عيد الصليب، كما يطلقون عليه، يوم صليب مايو، يحتفل به فى اليوم الثالث من هذا الشهر، ومازال حتى الآن يحتفظ بطابع شعبى فى بعض المدن والقرى فى إسبانيا. زهور، مشروبات، حلويات.

الملابس ملىء بالأصداف، وزوجين عروسين، وصورة للمسيح على الصليب وتاج من الأشواك، التكفير عن الذنب.

كان الرقص أقرب إلى بعض الانحناءات والخطوات، ورفع وثنى الركبة تعبدًا واحترامًا، على أنغام موسيقى ليست رديئة تشبه نوبة السير، وكان عازف الأكورديون يعزف بمهارة فائقة. كان الأطفال من عائلة وخدم ببيتا، وبعد القيام بدورهم، ذهبوا للنوم مسرورين بالهدايا والحفاوة التى تلقوها؛ بعد ذلك، استمر المنتدى حتى الساعة الثانية عشرة. قدمت المرطبات ومشروبات عبارة عن فنجان صغير من العسل، وأخيرًا شيكولاتة بتورتة البسكويت المغموسة بالشربات.

منذ أن عاد الربيع، العزلة والوحدة التى كانت تعيشها ببيتا أصبحت طىّ النسيان ووالدى مسرور جدا لذلك. من الآن فصاعدًا سوف تستقبل ببيتا والدى فى صالونها كل مساء، ويريد أن يصحبنى معه. خلعت ببيتا ملابس الحداد، وهى الآن أكثر جمالا ورشاقة، مليحة المظهر فى ملابسها الصيفية الخفيفة، على الرغم من أنها دائمًا متواضعة.

٧ مايو

نذهب كل مساء إلى صالون ببيتا، من الساعة التاسعة مساء إلى منتصف الليل، كما ذكرت لسيادتك، تذهب إلى هناك عادة أربع سيدات أو خمس بالاتفاق مع عمتى كاسيلدا وأخريات من المكان نفسه، كما يذهب نحو ستة أو سبعة من السادة الذين اعتادوا اللعب مع البنات، يلعبون عاده لعبة "الرهان"، وكما هو طبيعى، يوجد من بينهم ثلاثة أو أربعة أشخاص مخطوبين.

ويمكن القول: إن الأشخاص الذين يحضرون الصالون بصفة دائمة هم من كبار الموظفين؛ والدى مالك الأرض والصيدلى والطبيب والكاتب والسيد نائب الأسقف.

ببيتا تلعب الورق دائما مع أبى والسيد نائب الأسقف وشخص آخر من الموجودين. أما أنا فلا أدرى أى فريق أجالس. لو ذهبت مع الشباب أشعر بأننى أفسد عليهم لعبهم ومغازلتهم للبنات، لوقارى ورصانتى؛ ولو ذهبت مع السادة الكبار، أجد نفسى مضطرًا إلى لعب دور المتفرج فقط على شيء لا أفهمه. لأننى لا أعرف سوى لعبة "الحمار الأعمى، الحمار المبصر" وقليل من لعب الورق. من الأفضل ألا أذهب إلى صالون ببيتا، لكن والدى يجبرنى على الذهاب ويقول: إن عدم ذهابى يضعنى أمام الجميع فى موقف شاذ. يتعجب والدى

كثيرا لملاحظته جهلي بهذه الأشياء، خصوصًا جهلي بألعاب الورق، ويقول مندهشًا:

- ربّاك عمك تحت غطاء زجاجي، وجعلك تلتهم الدين التهاما وتركت نفسك في الظلام فيما كان يجب أن تتعلمه، تحديدًا بما أنك ستصبح راهبًا؛ فإذا كنت لا تستطيع الرقص ولا المغازلة فعلى الأقل تحتاج إلى لعب الورق، وإلا فماذا ستفعل أيها البائس؟

هذا وأحاديث أخرى من هذا القبيل جعلتني مضطرًا إلى الاستسلام، والدي يعلمني الآن لعب الورق في المنزل، كي أتقنه وألعبه في صالون بيتنا. يريد أيضا أن يعلمني - كما ذكرت لسيادتك قبل ذلك - المبارزة بالسيف، وبعدها تدخين السيجار، واستخدام الطبنجة، والرمح للصيد، لكني غير مقتنع بأي شيء من ذلك.

يتعجب والدي أيضا ويقول: ما الفرق بين شبابك وشبابي؟ ويضيف بعد ذلك ضاحكا:

- كل شيء في جوهره واحد، أنا أيضا كانت عندي أوقاتي الدينية في ثكنات الحرس الملكي. كان السيجار هو المبخرة، والورق كان هو كتاب الكورال، ولم تفوقني عبادات أخرى قط، ولا تمارين روحية أكثر ولا أقل.

على الرغم من أنني مدرك تماما طباع والدي الخاصة، تذهلني أقواله وتقلقني، فهو إباحي جريء في بعض الأحيان، من

أجل ذلك مكثت أنا اثنى عشر عاما مع سيادتك، من سن العاشرة حتى الحادية والعشرين، لكن ما الذى نستطيع أن نفعله؟

ومع أنى لا أستطيع اتهامه، لا أستطيع أيضا التصفيق له ولا الضحك عليه.

الغريب فى الأمر، والجدير بالاستحسان، هو أن والدى يتحول إلى رجل آخر عندما يكون فى منزل ببيتا. لا تهرب منه جملة واحدة ولا نكتة واحدة من التى يسرف فى سردها فى أماكن أخرى، إن والدى فى منزل ببيتا هو المهذب، الرصين حقيقةً.

بالإضافة إلى ذلك يبدو كل يوم مفتونًا بها أكثر، تحدوه آمال عريضة فى الفوز بها.

مازال والدى مسرورًا جدًا منى كتلميذ له فى الفروسية. يؤكد لى أننى خلال أربعة أو خمسة أيام سأستطيع ركوب لوثيرو، حصان أسود من سلالة عربية، من بلدة تبعد نحو فرسخ عن مدينة وادى القصر، كثير القفز، سريع العدو، بالغ الحمية، مدرب على جميع الخطى. يقول والدى:

- إن الذى يحطُّ بسراويله فوق لوثيرو يستطيع المخاطرة بركوب السنتور أنفسهم، وأنت سوف تفعل ذلك فى وقت قصير.

رغم أننى أقضى يومى بأكمله فى الريف فوق ظهر الحصان، فى النادى، أو فى صالون ببيتا، أختلس بعض الساعات بين النوم

واليقظة، عن طيب خاطر، وذلك لأننى لا أنام جيدًا، ينتابنى الأرق، أفكر مليًا فى وضعى وأمتحن ضميرى. صورة ببيتا لا تفارقنى، دائما فى نفسى، أتساءل هل هذا حب؟ إن التزامى الأخلاقى، تعهدى تكريس نفسى للكهنوت هو عندى عقيدة صحيحة واضحة كاملة، رغم أنها ليست مؤكدة. وإذا كان شيء ما يتعارض مع إتمامى هذا التعهد، قد تخلل نفسى، أرى من الضرورى محاربته.

طبعا ألاحظ، وأرجو ألاّ تتهمني سيادتك بالتعجرف لأنى أقول ما ألاحظه، إن سيطرة إرادتى، التى علمتنى سيادتك ممارستها، تهيمن على كل مشاعرى. بينما كان موسى فوق قمة جبل سيناء يتحدث مع الخالق كان العامة يعبدون العجل. وأنا – رغم صغر سنى- لا تخاف نفسى تمردًا مشابهًا، حسنًا، أستطيع التحدث مع الله بكل تأكيد، إذا عدوى لم يأت ليقاتلنى فى قلب المعبد. إن صورة ببيتا حاضرة فى روحى. بل هى الروح الذى يقيم حربًا بداخلى، هى الفكرة بجمالها فى كل نقائها الفائق الذى يقودنى إلى الطريق؛ الذى يهوى بى إلى أعماق جحيم الروح حيث يوجد الله، وهى التى تمنعنى من الوصول إليه.

ومع ذلك، لست أعمى البصيرة، أى أنني، بوضوح، أميز، لا أهلوس. وفوق هذا الميل الروحى الذى يجرفنى نحو ببيتا، يوجد أيضا الحب اللا نهائى والخالد. مع أننى أقدم ببيتا كفكرة، كقصيدة شعر، لا يمنع ذلك من أنها مجرد فكرة، قصيدة لشيء منتهٍ، محدود،

معين، بينما يكون الحب الإلهى ومفهوم الخالق هو الشامل. لكن بقدر ما أبذل من جهد لا أفلح فى التظاهر بغير الحقيقة، بغير هذا المفهوم السامى. فهو هدف عاطفة سليمة، فأنا أجاهد الصورة، ذكرى حقيقة منتهية وزائلة ويكربنى استمرارها كثيرا. بحرارة الإيمان، أطلب من السماء أن توقظ فى نفسى قوة المخيلة كى أجهز على صورة وذكرى هذه السيدة، بينما هى تأتى إلىّ بهالة محددة، واضحة، وساطعة مع النور الساهر الذى يبهر عيون الروح، نور كالظلام العميق، أنصع من حبى، النور الآخر الحاد الذى هو لعيون الروح.

كل الاعتبارات الأخرى، وكل الأشكال، لا تهدم صورة هذه السيدة، وهى تعترضنى وتقف بين صورة المسيح وبيني، بين صورة العذراء النقية وبينى، فوق صفحة الكتاب الروحى الذى أقرؤه تأتى أيضا وتتدخل.

ومع ذلك، لا أعتقد أننى مجروح بما يسمونه حب القِرن، وحتى لو كنت هكذا، سأصارع وسأنتصر.

إن رؤية هذه السيدة يوميا وسماع الإطراء والمديح المستمر فيها، حتى من جانب الأب نائب الأسقف، يثير فى نفسى القلق، ويحول نفسى إلى ما هو دنيوى، ويبعدنى عن استجماع أفكارى الواجبة، لكن لا، مازلت لا أحب بيبيتا. سأرحل وسأنساها. سأحارب بقوة مادمت مقيمًا هنا، سأرجو الله أن ينصرنى بالحب والخشوع.

سوف تصل إليه صيحاتى كالسهام المشتعلة، وسوف أكافح، مثل إسرائيل، فى هدأة الليل، وسينصرنى الله فى هذه المعركة لكى أنتصر وسوف أنتصر.

١٢ مايو

عمى العزيز، قرر والدى أن أركب الحصان لوثيرو، قبل ما كنت أتوقعه. ذهبنا معًا بالأمس إلى الريف، في الساعة السادسة والنصف صباحًا، راكبًا أنا فوق ظهر المفترسة الجميلة، كما يسميها والدى، وركب هو حصانًا صغيرًا أحمر اللون. لقد قمت بالمهمة على أكمل وجه، ذهبت رشيقًا وواثقًا فوق ظهر ذلك الحيوان المتعجرف، لدرجة أن والدى لم يستطع مقاومة براعة تلميذه، وبعد ما أخذنا قسطًا من الراحة في إحدى المزارع التى تبعد نحو فرسخ من هنا، عدنا فى الساعة الحادية عشرة. أشار إلىّ والدى بالعودة من الطريق المركزى، الأكثر ازدحاما، باعثا بذلك ضجة كبيرة، ونازعًا حجارة الشوارع من شده السرعة التى أعدو بها.

لم أكن أتوقع أن نمر من أمام منزل ببيتا، التى تعوّدت أن تطل من النافذة أحيانا، وكانت بجانب السور أمام أحد الشبابيك المنخفضة، خلف المشربية الخضراء. ما كادت ببيتا تشعر بالضوضاء، نهضت ورفعت عينيها ورأتنا. تركت الخياطة التى بين يديها ونظرت إلينا. لوثيرو الذى تعوّد رفع قائمتيه عند المرور من أمام منزلها، حسبما علمت أخيرًا، بدأ يهيج ويرفعهما قليلاً. أردت تهدئته، لكنه استغرب يدى، واستغرب أيضا الفارس الذى فوق ظهره، مستهينًا بى ربما، فأثار صخبًا أكثر وأكثر، وبدأ ينطلق فى

شخيره، ويمشى على قائميه الخلفيين، تصدر منه بعض القفزات أيضا، لكنى مكثت ثابتًا هادئًا، مظهرًا له أننى صاحبه، معاقبًا إياه بالعصا، لامسته بالسوط فى صدره، ممسكًا به من اللجام. حينئذ خضع لوثيرو، الذى كان مازال واقفًا على قدميه، ثم أنزلهما بعد ذلك بوداعة واحترام.

اخترق المكان جمع من المتطفلين الذى تجمعوا حولنا، وبدأوا فى تصفيق مدوٍ. علّق والدى على ذلك قائلا:

– حسنا للشباب القوى والجسور، بعد ذلك لاحظت حضور كوريتو، الذى ليس له عمل غير التنبلة والطواف، بين المتزاحمين فى المكان، اتجه نحو والدى مرددًا هذه الكلمات:

– انظر، انظر الراهب الآن، مكتسحًا، بدلا من السخرية منه.

وظل مذهولاً مشلول الحركة من شدة دهشته. بالفعل، لبث كوريتو بلا حركة، فاغرًا فاه، مذهولا حقيقةً. لقد كان انتصارى كبيرًا وحافلا، رغم أنه مخالف لطبيعتى، هذا النصر، بعث فى نفسى ضيقًا وخجلاً لوّن وجنتى. بالأخص عندما لاحظت أن ببيتا صفقت لى وحيّتنى بحنان، مبتسمة وهى تهز يديها الجميلتين، لحظتها اشتعلت وجنتى، مثل البذرة القرمزية اللون.

أخيرا حصلت على رخصة الرجل القوى والفارس المغوار من الدرجة الأولى.

يبدو أن والدى لا يرضى بشيء، يؤكد لى وهو منتفخ أكثر من اللازم؛ أنه سوف يستكمل تربيتى، وأن سيادتك بعثت فى نفسى كتابًا علميًا جدا، لكنه كالمسودة وبدون تغليف، وأنه سوف يعتنى بى وينظفنى ويغلفنى. ولعب الورق هو جزء من التغليف والنظافة التى يعلمنى إياها أيضا. لقد لعبت مع ببيتا ليلتين متتاليتين.

استقبلتنى ببيتا بحماسة شديدة، الليلة التى تلت بطولتى فى الفروسية، وقامت بفعل لم تجرأ على القيام به من قبل.

بسطت يدها وصافحتنى.

لا تعتقد سيادتك أننى لم أتذكر ما نصح به علماء الأخلاق والمتصوفة، من أن الذى يمد يده لامرأة كأنه أمسك بعقرب، لكننى فكرت ووجدت أنهم يبالغون فى الخطر من ذلك. تلك المقولة التى وردت فى الكتاب المقدس مبالغ فيها، ويبدو أنها قيلت بمعنى آخر وليست بهذا القصد تماما. بدون شك فى كتب العبادات تترجم بعض جمل وحكم الكتاب المقدس بقسوة أكثر من اللازم. كيف يعقل أن جمال المرأة، الذى هو عمل متقن من صنع الله سبحانه وتعالى، هو سبب الضياع دائما؟ كيف يعقل أيضا، بالمفهوم العام، أن المرأة هى أمرٌ من الموت؟ كيف يعقل أن الذى يلامس امرأه فى أى حال من الأحوال وبأى تفكير، لا يخرج دون وصمة؟

أخيرا أجبت سريعا، بينى وبين نفسى، على هذه التحذيرات، وأخذت اليد التى مدتها لى ببيتا بحنان وضممتها إلى يدى. نعومة تلك اليدين جعلتنى أفهم أكثر رقتها ومهارتها، التى لم كن حتى اللحظة أعرفها سوى بالعين.

حسب تقاليد هذا العصر، عند مصافحة اليد، يجب على الشخص أن يفعل ذلك عند الحضور مرةً، وعند الوداع مرة أخرى.

أتعشم ألا ترى فى هذا الاحتفال، وفى تجربة الصداقة هذه، وفى هذا التصريح بالمودة، الذى يصدر بنقاء ودون أدنى ذرة من الفواحش، ألا ترى سيادتك شيئًا سيئًا ولا خطرًا.

بما أن والدى مضطر أن يمكث مع الخولى عدة ليال ومع أناس آخرين من الريف، حتى الساعة العاشرة والنصف أو الحادية عشرة ليلاً، وعادة لا يكون عنده وقت، فأنا أنيب عنه فى مائدة الكوتشينة إلى جانب ببيتا. السيد نائب الأسقف والكاتب وأنا، نحن تقريبا الثلاثى الدائم. نلعب على عشرة ريالات، على طريقة المليم الواحد أو الاثنين هو الذى يختار اللعبة.

المضى فى اللعب لم يعد ذا أهمية كبيرة، فنقطعه على نحو مستمر بأحاديث لطيفة ومناقشات حول نقاط بعيدة عن اللعبة نفسها، تظهر ببيتا فى كل هذا دائما براعة فى الفكر، وحيوية وملاحة فى التصور، وظرفًا فائقًا فى القول يذهلنى.

لا أجد أسبابا كافية لتغيير رأيي فيما تذكره سيادتك، من أن بيبيتا من الممكن أن تشعر تجاهي بميل. إنها تعاملني بالمحبة الطبيعية التي يجب أن تقوم بها تجاه نجل خطيبها السيد بدرو بارجاس، وبكل حياء وخجل يوحي به لرجل في مثل ظروفي، أنا لست راهبًا حتى الآن، لكن سرعان ما سأكون راهبًا.

ومع ذلك، أريد ويجب أن أقول لسيادتك: إنني أكتب لك دائما كما لو كنت راكعا أمامك، أمام قدم كتاب تعليم أصول الاعتراف، لقد شعرت بانطباع سريع مرتين أو ثلاثًا، بشيء ما يكون أحيانا هلوسة أو هذيانًا، لكنني لاحظته.

لقد ذكرت لسيادتك من قبل، في خطابات أخرى، أن عيني بيبيتا خضراوان مثل "سيرس"، لها نظرة هادئة بالغة النبل، من المحتمل أنها تجهل قوة هاتين العينين، ولا تعلم أنهما صالحتان لأكثر من مجرد الرؤية. عندما تركز نظرها في أحد، تكون عذوبة الضوء التي في نظرتها واضحة جدًا وصريحة ونقية، وبدل أن تولد فكرًا سيئًا يبدو وكأنها تخلق أفكارًا نظيفة، طاهرة، تترك السكينة والهدوء المفرح في النفوس البريئة، والأصيلة، تقتل وتحطم كل حافز في النفس غير ذلك، لا شيئ تجده من العاطفة المتوقدة، لا شيئ من الخبث يوجد في عيني بيبيتا. شعاع نظرتها هو كالضوء الخافت للقمر.

أجل، على الرغم من ذلك، لقد لاحظت مرة أو مرتين لمعانًا خاطفًا، برقًا، لهيبًا عابرًا ومهلكًا في هاتين العينين يستريح عندى. هل هو غرور مثير للسخرية بإيعاز من الشيطان نفسه؟ يبدو لى أنه كذلك، أريد الاعتقاد وأعتقد أنه هكذا. كل ما هو سريع، خارج التأثير، يحثنى على تخمين أن ذلك ليس حقيقة طارئة، وأن كل هذه الأشياء هى من بنات أوهامي. ما أكتشفه دائما فى عينى ببيتا؛ هو هدوء السماء، برودة اللامبالاة الغرامية، وبالأخص اقتناعى بعذوبة الصداقة والمودة. ومع ذلك، فإن هذه الأحلام، وهذا الوسواس من جراء تلك النظرة الغريبة والمتوهجة يؤلمنى كثيرا. والدى يقول: ليس الرجال بل النساء هن اللاتى يأخذن بزمام المبادرة، ويأخذنه دون مسئولية أو التزام، ويستطعن الرفض والعودة للخلف عندما يردن. حسب رأى والدى، المرأه التى تعلن عن إعجابها بنظرات عابرة؛ هى نفسها التى تنكرها بعد ذلك، إذا لزم الأمر، وعلى من توجه إليه أن يحدسها لا أن يقرأها. على هذا النحو وحده، تقريبا بصدمة كهربائية، بالفطرة الذكية جدا وغير المتوقعة، يتنبه المحبوب إلى أنه محبوب، وبعد ذلك، عندما يقرر الحديث، يذهب متأكدا، وبكل ثقة من الإجابة.

من يدري، هل تلقى نظريات والدى صدى عندي، لأننى لا أستطيع – على الأقل – إلا لسماعها، هى التى أدارت رأسى وجعلتنى أتصور شيئًا غير موجود؟ على أى حال، أحيانا أقول، هل

لو حدث ذلك سيكون سخيفًا وجد مستحيل؟ لو أننى أحببت ببيتا بطريقة أخرى وليس كصديق؟ وإذا كانت المرأة - التى خطبها والدى - قد أعجبت بى، ألن يجعل ذلك موقفى سخيفًا؟ فلنترك هذه المخاوف التى هي، دون شك، وليدة الأوهام. فلا نجعل من ببيتا "فيدرا" ومنى أنا "إيبوليت".

إن الذى بدأ يفاجئنى هو عدم اهتمام والدى وثقته التامة. معذرة، أطلب من الله أن يغفر لى كبريائى، من وقت لآخر تنغص علي وتزعجنى هذه الثقة، لأننى إذن، أقول، هل أنا لهذه الدرجة أضحوكة لكى لا يتوجس منى والدى خيفة فلا يخشى، رغم قداسة وضعى نفسه، أن أحرك قلب ببيتا حتى وإن يكن بغير إرادتي.

لدى حجة قوية تفسر، دون أن تنال من كبريائي، عدم اكتراث والدى بهذا الموضوع المهم. إذ هو يعتبر نفسه بالفعل زوجًا لببيتا، رغم أنه لا يستند فى ذلك إلى أساس، ويبدو أنه يشارك بعض الأزواج فقدان البصر المشئوم الذى أوقعهم فيه رئيس الشياطين أو شيطان آخر بذيء.

القصص الدينية والدنيوية مليئة بهذا العمى الذى سمح به الإله، دون شك، لأغراض إلهية. أضف إلى ذلك المثل الأشبه بهذا، الإمبراطور ماركوس أوريليوس وزوجه الفاسقة فاوستينا، وقد كان رجلاً محترمًا، عالمًا كبيرًا وفيلسوفًا مرهف الحس، لم يشك ولم

يلحظ قط ما كان يراه كل الناس وتعلمه الإمبراطورية الرومانية بأثرها. كان فى تأملاته وذكرياته؛ فى خلوته يشكر الآلهة الخالدة بغير حدود؛ لأنها وهبته زوجة بالغة الإخلاص والطيبة، وأثار ذلك سخرية معاصريه والأجيال التى تلته بعد ذلك. ومنذ ذلك الحين، لا يرى كل يوم إلا الأعيان والأعلام فى حاشيته، يبذلون كل نفيس لإرضائه ونيل حظوة زوجته. من هذا المنطلق، أفسر عدم اكتراث والدى، من منطلق أنه لا يشك إطلاقا فى إمكان أن أكون منافسًا له، ولو رغم أنفى. لو لفت نظر والدى إلى الخطر الذى لا يراه، قد يكون فى ذلك عدم احترام وقد أكون آثمًا وقحًا. ولا توجد طريقة كى أقول شيئا. بالإضافة إلى ذلك، ما الذى يجب أن أقوله؟ ما الذى أتخيله إذا نظرت إلى ببيتا مرة أو مرتين بطريقة أخرى غير التى اعتدتها؟ أليس من الجائز أن يكون ذلك من بنات أوهامى؟ نعم، لا أجد أى دليل على أن ببيتا ترغب فى مغازلتى.

إذن، ما الذى يمكننى قوله لوالدى؟ هل أقوله له: إنى أحب ببيتا وأطمع فى الكنز الذى تمتلكه؟ هذه ليست الحقيقة، وبالأخص، كيف أصرح بذلك لوالدى، ولو كان حقيقيًا، فهو من سوء حظى، وما ذنبى؟ من الأفضل أن ألتزم الصمت، أن أقاوم فى صمت، فإذا أمسكت الفتنة بخناقى حقيقة، سأحاول الرحيل عن هذه القرية بقدر المستطاع والعودة إليك.

١٩ مايو

شكرًا لله ولسيادتك على خطاباتك الجديدة، وعلى النصائح التى أرسلتها لى، فأنا محتاج إليها اليوم أشد من أى وقت مضى. كم كانت محقة المتصوفة القديسة تريزا حين أثنت على المشقة الكبيرة التى تكابدها النفوس الخجول التى سقطت فى أحابيل الإغواء، لكن مشقة المخدوع تعدلها ألف مرة لمن وثقوا واغتروا مثلى.

وما أجسادنا إلا معابد للروح القدس، لكن لو اقتربت النار من حوائطها فسوف تلطخها بالسناج حتى لو لم تشتعل. وأول وسواس هو رأس الأفعى، إذا لم ندهسها بقدم شجاعة واثقة، ستصعد الحية السامة وتختبئ فى صدورنا.

وشراب الملذات الدنيوية، مهما تكن بريئة، عادة ما يكون حلو المذاق إلا أن مذاقه يتحول إلى مرارة التنانين وزعاف الحيّات الصلال.

إنها حقيقة، لا أستطيع أن أنكرها على سيادتك، كان لزامًا علىّ ألا أنظر إلى هاتين العينين اللتين على هذا القدر من السرور؛ فى هذه السيدة البالغة الخطورة.

لا أظن أننى ضال، لكننى أشعر بالاضطراب، مثل الحصان العطشان؛ أطلب وأبحث عن نبع الماء، كذلك روحى ظمآن مازال

يبحث عن الله. سيعود الإله ليعطيه السكينة، إننى أتوق إلى النهل من فيض ملذاته الذى يسعد تدفقه الجنة؛ تكسيها أمواجه الناصعة بياض الثلج، لكن هناك جحيمًا ينادى جحيمًا، وأجد قدمى مرشوقتين فى وحل الأعماق.

ومع ذلك، مازال عندى نفس وصوت كى أستغيث مع داود عليه السلام. انهضى يا أمجادى، إذا لم يقف بجانبى، من الذى يتغلب علىّ؟

أقول لنفسى المذنبة، المليئة بالأوهام المستحيلة والرغبات الباطلة - بناتها غير الشرعيات-: "آه، يا ابنة بابليون البائسة، طوبى لمن يعطيك ثوابك، طوبى لمن يحطم على الأحجار صغائرك!".

إن مجاهدة النفس، بالصيام والعبادة والتوبة، هى السلاح الذى أتحلى به لكى أحارب وأنتصر بالعون الإلهي.

لم يكن حلمًا، لم يكن جنونًا، بل حقيقة، إنها تنظر إلىّ أحيانا نظرات متوهجة كما ذكرت لسيادتك من قبل. لعينيها جاذبية مغناطيسية لا يمكن شرحها. تشدنى، تفتننى، تلتصق بهما عيناى. حينئذ تشتعل عيناى مثل عينيها، بلهيب محزن، مثل عينى أمنون عندما نشبهما فى ثامار، وعينى الأمير شيكيم حين رنا بهما إلى دينة.

عندما تلتقى نظراتنا، حتى الإله أنساه. صورتها تقف فى أعماق روحى منتصرة على كل شيء. جمالها يسطع فوق كل جمال،

بهجة السماء تبدو لى أدنى من حنانها، أعتقد أن أبدية العذاب لا تقدر بالسعادة اللانهائية؛ التى تغمرنى فى لحظة من نظرة واحدة من نظراتها التى تمر مثل البرق.

عندما أعود إلى المنزل، وعندما أكون وحدى فى غرفتى، فى سكون الليل، أعترف بكل فظاعة وضعى، وأعوّل على نيات طيبة سرعان ما تتحطم. أعد نفسى بالتظاهر بالمرض، أبحث عن أى عذر كى لا أذهب إلى منزل ببيتا فى اليوم التالى، ومع ذلك ، أذهب.

والدى واثق فىّ إلى أقصى درجة، دون شك فيما يدور فى نفسى، يقول لى عندما يحين الوقت:

- اذهب إلى الصالون الآن. سوف أذهب أنا متأخرًا، بعد ما ينصرف الخولى.

لا أوفق فى الاعتذار، ولا أجد حجة لذلك، وبدل أن أجيب بـــ"لا أستطيع الذهاب"، آخذ القبعة وأذهب إلى الصالون.

عند الدخول، ببيتا وأنا نمد يدينا للتصافح، عندما تعطينى يدها تسحرنى وينتفض جسدى كله، ويتخلل قلبى لهيب مفترس، بعد ذلك لا أفكر إلا فيها. أحيانا أنا نفسى أحث نفسى على النظر إلى عينيها لو تأخرت نظراتها فى الوصول. أنظر إليها بإلحاح مجنون، بحماسة لا تقاوم، وفى كل لحظة أكتشف فيها ميزات جديدة: غمازات وجنتيها

عندما تبتسم، بياض بشرتها الوردى، أنفها المستقيم، صغر أذنيها، صياغة الحلق الرائعة، ونعومة محيطها... إلخ.

أدخل بيتها رغمًا عنى، كمن ينقاد إلى تعويذةٍ ما، وبمجرد دخولى منزلها أخضع لسيطرة فتنتها، أرى بوضوح أننى تحكمنى ساحرة، فتنتها لا تقاوم.

وهى لا تفرح عينى وتبهجهما فحسب؛ بل إن كلماتها لتتردد فى أذنى كالموسيقى فتكشف لى عن كل التناسق والانسجام الذى بالكون لدرجة أننى أتصور شعورى برقة العطر المنبعث من جسدها، والذى يفوق رائحة النعناع الذى ينمو على شواطئ الأنهار الصغيرة، وفوح شذا الزعتر الريفى الذى ينمو فى الجبال.

مُثارًا بهذا القدر من الفتنة، لا أستطيع لعب الكوتشينة، ولا أستطيع الكلام، ولا المضىّ بتعقل، لأننى ذائب فيها.

كل مرة تلتقى فيها نظراتنا يصعد معها روحانا، شعاع نظراتها يطوف ويتخلل ويمتزج. هناك تكتشف آلاف الأسرار التى لا توصف للحب، هناك تعانق أحاسيس لا تعرف ولا تصل بطريقة أخرى، تنشد معها قصائد لا تسعها أية لغة إنسانية، وتغنى أغنيات لا يستطيع صوت التعبير عنها، ولا أى عازف قانون يستطيع تغيير مقام الصوت.

منذ اليوم الذى قابلت فيه بيبتا فى ضيعة سولانا، لم أرها على انفراد، لم أقل لها شيئًا، ولا هى قالت شيئًا، ومع ذلك ، لقد قلنا كل شىء.

عندما أبتعد عن فتنتها، وأكون وحدى فى مخدعى، أريد النظر بهدوء فى الحالة التى وصلت إليها، وأرى بوضوح الهوة الهاوية التى سوف أسقط فيها، وأشعر أننى أنزلق وأغوص فى هذه الهاوية.

إنك تنصحنى بالتفكير فى الموت، لا فى هذه السيدة، بل فى نفسى. تنصحنى سيادتك بالتفكير فيما هو غير مستقر، غير أكيد من وجودنا على هذه الدنيا وفيما بعد الموت. لكن كل هذه الاعتبارات، وكل هذه التأملات لا تفزعنى ولا تردعنى. كيف أخاف من الموت عندما أرغب فى الموت نفسه؟ إن الحب والموت صنوان.

يسيطر على شعور بإنكار الذات يصل إلى أعماقى، ويناديني إليه، ويقول لى: إن كل كيانك يجب أن تعطيه وتفقده من أجل المحبوب. أتوق إلى الامتزاج فى نظرتها، أتوق إلى أن تتحلل وتتبخر روحى فى شعاع الضوء المنبعث من عينيها، أتوق إلى البقاء حينًا ناظرًا إليها، حتى لو كان ذلك على حساب إدانتى.

إن الذى يخيفنى حقا – ومازال فعالاً وحيويًا بداخلى ضد الحب – هو الحب نفسه. هذا الحب المحدد، الذى أرى بوضوح أن بيبتا تلهمنى إياه، يرتقى بى إلى الحب الإلهى بقوة طاغية. حينئذ كل

شيئ سيتغير فيّ، حتى أتعهد بالانتصار. موضوع حبى الأعلى سيلوح أمام عقلى مثل الشمس التى تشعل كل شيء وتضيئه فتترع الفضاء بالنور، وأما موضوع حبى الدنيوى فهو مثل ذرة التراب التى تضل فى الجو فتكسوها الشمس ذهبًا. إن كل مفاتنها، كل إشراقها، كل جاذبيتها ما هى إلا انعكاس لهذه الشمس الذاتية الوجود، ليست إلا الشرارة البراقة، العابرة، الزائلة لنار الآخرة اللا متناهية والسرمدية.

روحى، يلفحه الحب، يناضل كي يكون له جناحان ينشرهما للطيران، ليصعد إلى هذه النار ويفنى فيها كل دنسه.

حياتى غدت صراعًا متصلاً، منذ بضعة أيام، لا أدرى لماذا لا يظهر الألم الذى أعانيه على وجهى. لا أكاد أقرب الزاد، لا أكاد أصالح النوم. لو داعب النوم العين، أستيقظ مذعورًا، كأنى فى معركة مع ملائكة متمردين وملائكة طيبين. أنا أحارب من أجل النور، فى هذه المعركة التى هى معركة النور ضد الظلام، لكن أحيانا، أتصور أننى أمر على الأعداء، وأننى مثل الهارب من الجندية، ردىء السمعة، وأسمع صوت نسر باتموس الذى يقول: "الرجال يفضلون الظلام على النور". وحينئذ ينتابنى الرعب وأظن أننى ضائع.

لم يبق لى إلا إعادة النظر فى الهروب، إذا لم يعطنى والدى الإذن فى نهاية الشهر، ولم يأت معى، سأهرب كاللص، سوف أهرب دون أن أقول شيئًا.

٢٣ مايو

أنا مثل الدودة الحقيرة، لست رجلاً، أنا وصمة عار، وانحطاط الإنسانية، أنا منافق.

لقد أحاطت بى آلام الموت من كل جانب، وسيل جارف من الشر عكر صفوى. إنى خجلان من الكتابة لسيادتك، ومع ذلك أكتب. أريد أن أبوح لك بكل شيئ. لم أحرز الإصلاح. بعيدا عن الإقلاع عن الذهاب إلى منزل ببيتا، أذهب مبكرًا عن كل ليلة، كما لو كانت الشياطين تشدنى من قدمى وتأخذنى إلى هناك على غير رغبتى.

بالمناسبة، لا أجد ببيتا وحدها أبدًا. ولا أريد أن أراها بمفردها. يسبقنى دائما الأب الرائع، نائب الأسقف تقريبا، والذى يعضد صداقتنا ويشبهها بالميل التقى، ويعتبرها من أنواع التعبد، مثل الصداقة البريئة جدًا التى يمارسها مع ببيتا.

حالتى السيئة تتقدم سريعا، مثل الحجارة المنزوعة من أعلى المعبد، وتزداد سرعتها فى الهبوط، هذه هى حال روحى الآن.

عندما نتصافح أنا وببيتا بالأيدى؛ ليست المسألة كما كانت فى البداية. كلانا يبذل جهدًا لتبديل اليد اليمنى الموصولة بكل خفقان القلب، نردد بفن شيطانى "هيا نخلط دماءنا" من أرق ما يكون. لابد من أنها تشعر بحياتى تدور فى عروقها، مثلما أشعر بها فى عروقى.

إن أكن قريبًا منها أحبها، وإن أكن بعيدًا عنها أكرهها. لكنى عند رؤيتها، فى حضورها، أحبها، تجذبنى، تقهرنى بنعومة، تبث نارًا عذبة من حولى.

ذكراها تقتلنى، أحلم بها، أحلم بأنها تفصل حنجرتى، مثل جوديث تقطع رأس قائد الآشوريين. أو ترشق وتدًا فى صدغى مثلما فعلت ياعيل فى سيسرا، لكنها بجانبى، تبدو لى الزوجة فى "نشيد الإنشاد"، أناديها بصوت داخلى وأباركها، وأظنها مصدرًا مختوماً، حقلاً مغلقًا، زهرة الوادى، زنبقة الريف، حمامتى وأختى.

أريد التحرر من هذه السيدة ولا أستطيع. أبغضها وأعبدها تقريبا. وروحى تلهمنى، تقودنى للمكان الذى فيه أراها، تمتلكنى، وتسيطر علىّ، تخضعنى.

أخرج كل مساء من منزلها قائلا: "هذه آخر ليلة أعود إلى هنا"، ثم أعود الليلة التى تليها.

عندما تتحدث وأنا بجانبها، نفسى تظل معلقة بفمها، عندما تبتسم يخيل لى أن شعاعًا من النور العلوى يدخل قلبى ويسعدنى. أحيانا، عند لعب الورق، تتلامس ركبتانا بالمصادفة، وأشعر حينها برعشة لا يمكن وصفها.

أخرجنى سيادتك من هنا، اكتب لوالدى كى يعطينى الإذن للرحيل من هنا. قل له كل شيئ، لو احتاج الأمر. انجدنى أنت، كن المدافع عنى ومساندى.

٣٠ مايو

لقد أعطاني الله سبحانه وتعالى القوة لكي أتحمل، وقد تحملت.

منذ بضعة أيام لم تطأ قدمي منزل ببيتا ولم أرها.

ليست بي حاجة تقريبا إلى التعلل بالمرض، لأنني في الواقع مريض، شاحب الوجه، غائر العينين، والدي يسألني باهتمام وبعطف عما أعانيه ويظهر لي اهتمامًا بالغًا. إن عالم السماء يخضع للقوة، وأنا أريد أن أظفر به. أنادي على أبوابه بقوة لكي يفتح لي.

يعذبني الله من بعيد لكي يختبرني، بلا جدوى أطلب منه أن يجنبني هذه الكأس المريرة، لكنني تحملت وأتحمل قائمًا ليالي كثيرة منهمكًا في الصلاة، وبفضل ذلك استجاب لي وخفف عني مرارة هذه الكأس، بإيحاء لطيف من نفس هادئة وعليا.

لقد رأيت العالم الآخر بأعين الروح، ومن أعماق قلبي سمعت صدى الأنشودة الجديدة للقدس السماوية.

لو دان لي النصر في النهاية، سوف يكون هذا الانتصار جليلاً، لكني أدين بذلك لملكة الملائكة، مريم العذراء التي وكلتها أمري. هي ملاذي والمدافع عني، برج وحصن داود المعلق به ألف شعار ودروع لأبطال شجعان، أرز لبنان الذي تهرب منه الثعابين.

من ناحية أخرى، بالنسبة للمرأة التى أحبها حبًا دنيويًا، أحاول ازدراءها وأسقطها من تفكيرى، متذكرًا كلمات العالم وأطبقها.

أقول لها: إنك فخ الصيادين، قلبك شبكة خادعة، ويديك حبل رقيق يقيدهم، إن الذى يحب الله يهرب منك، والمذنب يصبح مكبل اليدين بسببك. أتأمل فى الحب وأجد ألف سبب يجعلنى أحب الله ولا أحبها.

أشعر من أعماق قلبى بقوة لا توصف ، مقتنعًا باحتقار كل شيء من أجل حب الله، الشهرة، الشرف، القوة، السلطة. أجد نفسي قادرًا على تقليد المسيح، وإذا أخذنى الشيطان إلى قمة الجبل وقدم لى كل أملاك الأرض لكى أنحنى أمام ركبتيه، لن أنحنى ، ولكن عندما يقدم لى هذه السيدة، أجد نفسى مازلت مترددًا ولا أرفضها، هل هذه السيدة أغلى من كنوز الأرض فى نظرى، أكثر من الحياة والشرف والقوة والسلطة؟

أتساءل أحيانا: هل فضيلة الحب هي ذاتها دائما، بالرغم من أننا قد نحب أشياء مختلفة؟ أهناك نوعان وحالتان من الحب؟ يبدو لى أن حب الله هو إنكار الذات والتعصب. فى حبه، أستطيع وأريد أن أحب كل شيئ من أجله، لا أغضب ولا أغار من أنه يحب الجميع. لست غيورًا ولا حاقدًا على القديسين، ولا الشهداء، ولا السعداء ولا الملائكة أنفسهم. حين يقدم حب الله للمخلوقات ويزداد الإحسان

والعطايا لها، أكون أقل غيرة وأحبه أكثر، وأعبده أكثر اقترابًا منى، ويبدو أكثر حبًا ولطفًا معى. إخوتى، وأكثر من إخوتى مع كل البشر، إن هذا الكل مرتبط برباط من حب الله وفى الله.

وعلى عكس ذلك تماما، عندما أفكر فى هذه السيدة وفى الحب الذى تلهمنى إياه. إنه حب من الحقد الذى يبعدنى عن كل شيء إلا نفسى. أريدها لنفسى، كلها لى وأنا كلى لها. حتى إن العبادة والتضحية من أجلها أصبحت أنانية. موتى من أجلها سيكون ليأسي من عدم الفوز بها، أو من ضياع الأمل فى التمتع بحبها بالكامل، بل أموت وأمتزج معها فى عناق خالد.

مع كل هذه الاعتبارات، أحاول محو حب هذه السيدة وأضع فيه كثيرًا من الجحيم، والنحس المشئوم الفظيع، ولكن كأن لى روحين، عقلين، إرادتين، تصورين. سرعان ما يظهر بداخلى مغايره، سرعان ما أنفى الذى كنت أؤكده، وأحاول التوفيق بجنون بين هذين الحبين، لماذا لا أهرب منها وأستمر فى حبها دون ترك تقديس خدمة الله بحماسة؟ وكما أن الله لا يمنع حب الوطن، حب الإنسانية، حب العلم، حب جمال الطبيعة والفن، يجب أيضا ألا نستبعد هذا الحب إذا كان حبًا روحانيًا وطاهرًا. سوف أجعل منها – أقول لنفسى – رمزًا، تشبيها، صورة لكل ما هو طيب وجميل. ستكون لى، مثل بياترس لدانتى، تمثيلاً وصورة لوطنى، للمعرفة وللجمال.

كل هذا يجعلنى أقع فى خيال فظيع، فى تفكير بشع، أجعل منها (أى من بيبتا) هذا الرمز، هذه الصورة الرقيقة والسماوية، هذه الشفرة، ملخصًا لقدر ما أستطيع حبه تحت مظلة الله، فى الله ومخضِعا إياه إلى الله، أتخيلها متوفاة، مثلما كانت بياترس متوفاة عندما كان دانتى يغنى لها.

إذا اعتبرتها من الأحياء، لا أتأكد من تحويلها لفكرة صافية، ولكى أحولها إلى فكرة نقية، أقبلها فى ذاكرتى. بعد ذلك أبكيها، بعدما أشعر بالرعب من جريمتى وأقترب منها فى الروح، وبحرارة قلبى أعيدها للحياة، وأراها، حثيثة، شفيفة، متلاشية بين السحاب تقريبا بلون الورد والزهور السماوية، مثل جيبلينو لحبيبته فى حافة المطهر، رابطة الجأش، صلبة، مرسومة جيدًا فى الجو الهادئ والناصع، مثل أروع أعمال النحت الإغريقى، مثل جالاتيا وقد دبت فيها الحياة بحب بجماليون، تهبط مفعمة بالحياة من تمثالها الرخامى. حينئذ أهتف من أعماق قلبى المضطرب: "يا إلهى، ضعفت طهارتى، لا تتركنى. أسرع فى الحضور لمساعدتى. أظهر لى وجهك كى تنقذني".

وهكذا أسترد القوة لكى أتحمل الفتنة. هكذا يولد من جديد فى نفسى الأمل لكى أعود للراحة القديمة، على الأخص عندما أبعد عن هذه الأماكن.

ود الشيطان لو ابتلع ببالغ غيظه مياه نهر الأردن الصافية التى تمثل الأشخاص الذين نذروا أنفسهم لله، يتآمر الجحيم ضدهم ويطلق كل مسوخه. قال القديس بونافينتورا: "لا يجب أن نعجب لأن الأشخاص قد أخطأوا، بل لأنهم لم يخطئوا". أنا، ومع كل ذلك، أعرف كيف أتحمل ولا أخطئ، فالله سوف يحمينى.

٦ يونيو

مربية بيبيتا، التى أصبحت اليوم مديرة المنزل هى، كما يقول والدى، قطعة من التجاعيد. ثرثارة ومرحة وعلى درجة كبيرة من الكفاءة مثل قليلين. تزوجت من ابن المعلم ثينثياس، وورثت من الأب ما لم يرثه الابن: ميل فائق إلى الفن وللمهنة. الفرق بينهما هو أن المعلم - الأب ثيثنياس - يصلح مجرى معصرة العنب، ويصلح عجلات العربات الكارو أو يحرث الأرض، بينما تعد زوج الابن الحلويات من العسل وأكلات أخرى شهية. حموها يمارس الفنون المفيدة، وزوج الابن الأشياء الممتعة، وهى متعة بريئة وذكية على الأقل.

أنطونيونا، كما يسمونها، محل ثقة الجميع، خصوصًا السادة، تدخل جميع المنازل كما لو كانت منزلها. وكل الشباب والشابات من عمر بيبيتا، أو من يكبرها بأربعة أعوام أو خمسة، تخاطبهم بلا صيغة احترام، تناديهم بالطفل أو بالطفلة، تعاملهم كأنها لو أرضعتهم من ثديها. إنها تناديني (انظر!) مثل الأخرى. تأتى لرؤيتى، تدخل حجرتى ، لقد ذكرت لى أكثر من مرة أننى جاحد وأخطئ فى عدم الذهاب لرؤية سيدتها.

والدى أيضا، دون أن يلاحظ شيئًا، يتهمنى بأننى غريب الأطوار، يلقبني بـــ"البومة"، ويلزمنى بالعودة إلى الصالون. الليلة لم

أستطع تحمل التماساته المتكررة، وذهبت مبكرًا، عندما كان والدى يحاسب الخولى. يا ليتنى ما كنت ذهبت!

كانت ببيتا وحدها. عندما التقينا، عند مصافحتنا، ظللنا نحن الاثنين متوردى الوجه. تبادلنا اليدين بخجل، دون النطق بكلمة واحدة، لم أشد على يدها، ولا هى أيضا، لكن احتفظنا بيدينا متشابكتين برهة.

لم أر حبًا فى نظرة ببيتا التى وجهتها لى، بل صداقة وتعاطفًا وحزنًا شديدًا.

لقد خمنت كل الصراع الذى بداخلى، توقعت أن الحب الإلهى قد انتصر فى قلبى، وأن قرارى بعدم حبها كان ثابتًا ولا يقهر.

لم تجرؤ على الشكوى منى، ليس لها الحق أن تشكو منى، كانت تعرف أن السبب من ناحيتى. تنهيدة محسوسة بالكاد فرت وانطلقت من بين شفتيها الباردتين وشبه المفتوحتين، وأبدت كم آسفة لذلك. كانت يدانا إلى هذه اللحظة متشابكتين. كلانا صامت. كيف أقول لها إنها ليست لى، وأنا لست لها، ما الذى يهم لو افترقنا للأبد؟ ومع ذلك، على الرغم من أننى لم أقلها بالكلمات، قلتها بنظرة العينين. نظرتى الصارمة أكدت مخاوفها، اقتنعت بالحكم النهائى الذى لا رجعة فيه.

وسرعان ما غامت عيناها، كل وجهها الجميل، الشاحب باصفرار شبه شفاف، تقلص بتعبير جميل من الحزن. كانت تبدو كعذراء الآلام. ظهرت ببطء دمعتان من عينيها، وجعلتا تنزلقان فوق خديها.

لم أعرف ما الذى حدث لى ولا كيف أصفه، رغم أنى أعرفه. اقتربت شفتاى نحو وجهها لكى أمسح البكاء واجتمعت شفاهنا فى قبلة.

شعرت بنشوة فائقة الوصف، إغماء خصب غزا كل كيانى وكيانها. تخاذل جسدها وأمسكت بها بين ذراعى.

أرادت السماء أن نسمع صوت وسعال الأب الذى وصل، وافترقنا فى الحال.

عدت إلى طبيعتى. واسترجعت جميع قواى وإرادتى، استطعت حينئذ أن أملأ بهذه الكلمات، التى نطقتها بصوت خافت وقوى، ذلك المشهد الصامت والفظيع.

– الأولى والأخيرة!

كنت أشير إلى القبلة الدنيوية، لكن، كما لو كانت كلماتى هذه مثيرة للمشاعر، ظهرت فى مخيلتى الرؤية العلية لعظمته الهائلة عز وجل. رأيت الذى هو بكل تأكيد الأول والأخير، وبالسيف ذي الحدين

الذى يخرج من فمه يطعننى فى قلبى المليئ بالسيئات والرذائل والآثام.

أمضيت تلك الليلة فى هياج، فى هذيان داخلى لا أعرف كيف أخفيه. انسحبت من منزل ببيتا مبكرًا. كانت مرارتى كبيرة فى الوحدة.

عندما أتذكر تلك القبلة وتلك الكلمات عند الوداع، كنت أقارن نفسى بيهوذا المخادع الذى كان يبيع القبلات، وبالسفاح الخبيث القاتل يواب عندما كان يقبل أماسا وطعنه بالسيخ المحمى فى أحشائه.

لقد وقعت فى خداعين وخيانتين، لقد أهنت الله وأهنتها. إننى شخص بغيض.

١١ يونيو

مازال هناك وقت لعلاج كل شيء. سوف تبرأ ببيتا من حبها وتنسى الضعف الذى اعترانا نحن الاثنين.

منذ ذلك الوقت لم أذهب لمنزل ببيتا. أنطونيونا لم تظهر فى منزلى. تحت توسلات قوية حصلت على وعد أكيد من والدى بأن نرحل من هنا الخامس والعشرين، بعد عيد القديس يوحنا الذى يحتفل به هنا احتفالات مشرقة، وتقام عشيته سهرة شهيرة.

بعيدا عن ببيتا، بدأ يداخلني الهدوء، معتقدًا أن ذلك الحب المبدئي ربما كان تجربة. طوال هذه الليالى كنت أصلى، أسهر، وقد تعذبت كثيرا.

المثابرة فى دعائى، التوبة العميقة التى فى صدرى وجدتها نعمة أمام الله، الذى أظهر لى رحمته الواسعة، فالسيد ، كما يقول الرسول، قد أرسل نارًا إلى روحى القوية، أضاء ذكائى، أشعل ما هو أقوى من إرادتى، وعلمنى الاجتهاد فى الحب الإلهى، الذى هو موجود فى المشيئة العليا، استطاع فى حالات، دون أن أستحقه، أن يأخذنى لصلوات الهدوء الودود. جردت أدنى قوة لنفسى من كل خيال، حتى من صورة هذه السيدة، واعتقدت أن الغرور لن يخدعنى،

عرفت واستمتعت فى سلام، بالذكاء والحب، الذى نلته من العظيم الأعلى الكامن فى أعماق نفسى.

قبل هذا الخير كان كل شىء بؤسًا، أمام هذا الجمال كل شيئ قبح، أمام هذه السعادة كل شىء محنة، أمام هذا السمو كل شيء دناءة. من ذا الذى لا ينسى ويحتقر بحب الإله حب كل الأشياء؟

نعم، الصورة الدنيوية لهذه السيدة سوف تخرج قطعيًا وإلى الأبد من روحى، سأجعل من تفكيرى وصلواتى ضربة سوط قوية، وبهذا السوط سأرمى من هناك، مثلما رمى المسيح المتهمين من المعبد، لصوص الأسواق.

١٨ يونيو

سيكون هذا آخر خطاب أرسله لسيادتك.

في الخامس والعشرين سوف أخرج من هنا دون تأخير. سريعًا سيكون لى شرف معانقتك.

سوف أشعر بالتحسن بجانب سيادتك، ستلهمني حماسة وتمدني بالعون والقوة التى تنقصني.

عاصفة من تناقضات انفعالية تتصارع داخل قلبى الآن، اضطراب أفكارى سيظهر فى الاضطراب الذى أكتب به الآن. لقد عدت لمنزل ببيتا مرتين، كنت باردًا، صارمًا، كما يجب أن أكون، لكن، كم كلفنى ذلك.

لقد ذكر لى والدى بالأمس؛ أن ببيتا ليست على ما يرام؛ وأنها لن تستقبل أحدًا. خالجنى التفكير في الحال، أن فشل حبها سبب هذا المرض. لماذا نظرت إليها بنفس النظرات النارية التى نظرت بها إلىّ؟ لماذا خدعتها بحقارة؟ لماذا جعلتها تعتقد أننى أحبها؟ لماذا بحث فمى الحقير عن فمها وأحرقه بلهيب جهنم؟

لكن لا، خطيئتى لا يجب أن تجلب خطيئة أخرى لا تنمحى. الذى حدث لا يمكن السماح بحدوثه، لكن من الواجب ومن الممكن علاجه.

أكرر، فى الخامس والعشرين سوف أرحل دون تأخير.

أنطونيونا المرحة دخلت للتو لرؤيتى.

أخفيت الخطاب كما لو كانت الكتابة لسيادتك شيئًا مريبًا.

مكثت أنطونيونا هنا دقيقة واحدة فقط.

نهضت من مقعدى لأتحدث معها واقفا، وكانت الزيارة قصيرة.

فى هذه الزيارة القصيرة جدا، قالت لى ألف حماقة وعذبتنى للغاية.

أخيرا، صاحت عند توديعى، بلغة الغجر: ملعون، كلاب مسعورة تأكل جسدك، لقد تسببت فى مرض طفلتى وقتلتها بمراوغتك.

وبعد قولها ذلك، قرصتنى هذه السيدة الشريرة، بطريقة سوقية وبقله احتشام، في ظهرى، ست مرات أو سبعًا موجعات كما لو كانت تريد اقتلاع جلدي، ثم ذهبت بعد ذلك تشيط غيظا.

أنا لا ألومها، أستحق منها هذه الدعابة الوحشية، أستحق أن تنزع الشياطين لحمى بكماشة من الجمرات، يا إلهى، اجعل ببيتا تنسانى، اجعلها تحب شخصًا آخر، ولتكن سعيدة معه.

هل أستطيع أن أطلب من الله أكثر من ذلك؟

إن والدى لا يعلم شيئًا، لا يشك فى أى شىء، من الأفضل أن يكون ذلك. إلى اللقاء، حتى أيام قليلة، نلتقى ونتعانق.

كم ستجدنى سيادتك عند رؤيتى وقد تبدل حالي، وقلبي مترع بالمرارة، كم فقدت براءتى، كم هى مجروحة وموجوعة نفسى.

سفر أخبار الأيام

لا توجد رسائل للسيد لويس دى بارجاس غير ما أوردناه. لهذا كنا سنبقى غير متأكدين من هدف هذا الحب وما كانت ستنتهى إليه هذه القصة البسيطة والعاطفية، إذا لم يقم شخص مطلع عليها جيدًا بسرد ما يلي:

لم يندهش أحد فى المكان من التعب الذى يعترى ببيتا، ولا أحد غيرنا يفكر حتى في أن يبحث له عن سبب، وحتى الآن لا أحد يعرفه سوانا نحن وببيتا والسيد لويس ونيافة القمص وأنطونيونا الرصينة.

بل من الممكن أنهم تعجبوا للحياة السعيدة، وجلسات السمر اليومية، وحتى نزهات ببيتا الريفية في وقت ما، وأما عودتها إلى عزلتها المعتادة فكان أمرًا طبيعيًا جدًا.

واختفى حبها الشديد الصامت للسيد لويس عن نظرات السيدة كاسيلدا الفاحصة، وعن كوريتو وكل أشخاص المكان المذكورين فى رسائل السيد لويس، فلا تستطيع العامة معرفته، ولا يبقى فى ذهن أحد أو يمكن لأحد أن يتخيل أن عالم اللاهوت والقديس – كما يطلقون على السيد لويس– يمكن أن ينافس أباه، ويصل إلى ما لم

يستطع الوصول إليه السيد بدرو بارجاس الهائل القوى فى حب الأرملة الجميلة الأنيقة، الجافة، الحادة الطباع.

وعلى الرغم من الألفة الموجودة بين أصحاب المكان وخادماتهم، لم تكن بيبتا بتلك الشفافية معهن، فقط استطاعت أنطونيونا - التى كانت بصيرة بكل شيء وخصوصًا بأشياء طفلتها - أن تفهم السر.

ولم تخف أنطونيونا عن بيبتا اكتشافها، ولم تستطع بيبتا أن تنفى الحقيقة عن هذه السيدة التى ربتها، والتى كانت تعبدها، والتى- رغم سعادتها بكشف أسرار القرية وإفشائها مثل النمامين- كانت كتومًا ومخلصة كقليل غيرها فيما يخص سيدتها. بهذه الطريقة كانت أنطونيونا محل ثقة بيبتا التى كانت تجد عزاءً كبيرًا فى أن تريح قلبها معها، حتى وإن تكن سوقية وفظة فى التعبير أو فى اللغة، فإنها لم تكن هكذا فى المشاعر والأفكار التى كانت تعبر عنها وتكنُّها.

لهذا تتضح مبررات زيارات أنطونيونا للسيد لويس وكلامها وقله احترامها له فى تلك الفرص غير المناسبة؛ التى أهانته فيها وعذبت كرامته فى آخر مرة ذهبت لرؤيته. لم تحث بيبتا أنطونيونا على الذهاب للسيد لويس، ولا حتى كانت تعلم أنها قد ذهبت. فقد تولت أنطونيونا زمام المبادرة، وقامت بالدور فى هذا الأمر، لأنها

أرادت ذلك – وكما قيل من قبل – فقد كانت تعلم كل شيء بذكاء عجيب.

وما كادت ببيتا نفسها تعلم أنها تحب السيد لويس حتى أدركت أنطونيونا ذلك. ولم تكد ببيتا تبدأ فى إلقاء تلك النظرات الحارة، الخفية عن غير قصد، والتى أحدثت ضررًا كبيرًا، نظرات لا يتعجب منها أحد من الموجودين معها إلا السيد لويس، حتى حدثتها عنها أنطونيونا، على الرغم من أنها لم تكن موجودة. وما كادت تلك النظرات أن تلقى نتيجة حسنة حتى عرفتها أنطونيونا.

لذلك كان لدى السيدة القليل مما يحدث فى أعماق صدرها لتأتمن خادمة بذلك الذكاء وتلك الفطنة عليه.

وتبدأ حكايتنا بعد خمسة أيام من تاريخ آخر رسالة قرأناها. كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا، وببيتا فى صالة طويلة بجانب غرفة نومها وغرفة ملابسها حيث لا يستطيع أحد الدخول مطلقًا دون إذنها فيما عدا أنطونيونا.

لم يكن أثاث هذه الصالة ذا قيمة كبيرة، لكنه كان مريحًا ونظيفًا، وكانت الستائر وغطاء الكراسى والأرائك من القطن المنقوش بالزهور، وفوق منضدة صغيرة مصنوعة من شجر الماهون كانت هناك أدوات كتابة وأوراق ودولاب من الماهون أيضا مع عدة كتب فى العبادة والتاريخ. كانت الحوائط مزينة بلوحات ذات صور

دينية، لكنها ذات ذوق رفيع، ليس له مثيل، نادر فى كل مثل الأندلس حيث لم تكن هذه الصور نسخًا فرنسية سيئة، بل محفورة على النحاس الذى فى إسبانيا، مستنسخات للوحات دينية شهيرة للإيطالى "رافاييل" وللإسبانى "موريبو".

فوق مائدة قديمة من السنديان، مرتكزة على أعمدة متعرجة، يوجد حاسب صغير أو خزانة للأوراق مطعمة بالصدف واللؤلؤ والعاج والبرونز، وعدة أدراج حيث تحتفظ ببيتا بقصاصات ومستندات أخرى، فوق هذه المنضدة نفسها توجد مزهريتان من البورسلين مليئتان بالزهور. وأخيرا يوجد بعض الأوانى الخزفية النفيسة من الرهبانية الكرتورية لإشبيلية، معلقة على الحائط ذات نباتات متسلقة من الغرنوق ونباتات أخرى، مع ثلاثة أقفاص مذهبة بداخلها طيور الكناريا ونقار الشوك.

هذه الصالة كانت ملاذ ببيتا؛ حيث لا يستطيع دخولها فى اليوم سوى الطبيب والأب نائب الأسقف، وأحيانا الخولى فقط فى الربع الأول من الليل لعمل حساباته، وكانت هذه الصالة تسمى بالمكتب.

كانت ببيتا جالسة، متكئة تقريبا على الأريكة، توجد أمامها مائدة مستديرة صغيرة عليها كتب كثيرة.

نهضت وارتدت ثوبًا صيفيًا خفيفًا، كان شعرها الأحمر لا يزال غير ممشط، أو يبدو أجمل هكذا. وكان وجهها الشاحب قليلا

ذو الهالات يبدو أكثر جمالا بما فيه من ألوان، رغم أنه مليئ بالشباب والنضارة.

كانت ببيتا قلقة، يبدو أنها تنتظر أحدًا.

أخيرًا وصل من كانت تنتظره، ودخل دون أن يخبر أحدًا بحضوره، إنه الأب نائب الأسقف. وبعد التحيات المعتادة وجلوس الأب على أريكة بجانبها، بدأ الحوار.

- أنا سعيد يا بنيتى لأنك قمت باستدعائى، لكنى كنت سأحضر لرؤيتك دون أن تفعلى ذلك. كم أنت شاحبة! مم تعانين؟ ألديك شيء مهم تريدين قوله لى؟

على هذه السلسلة من الأسئلة الحانية، بدأت ببيتا ردها بزفرة عميقة، وبعد ذلك قالت.

- ألم تتوقع مرضى؟ ألم تكتشف سبب معاناتى؟

رفع كتفيه ونظر إلى ببيتا فى قلق، لأنه لم يكن يعلم شيئًا، ولفت نظره الحدة التى كانت تتحدث بها ببيتا، ثم استكملت:

- أيها الأب، لم يكن على أن أستدعى نائب الأسقف، بل أذهب إلى الكنيسة وأتحدث إلى قس فى كرسى الاعتراف. وهناك أعترف بأخطائى. لكنى للأسف لست نادمة، فقد قسا قلبى

على الشر، وليست لدىّ الجرأة أو الاستعداد لأن أتحدث إلى قس الاعتراف، بل إلى صديق.

- ماذا تقولين عن الخطايا وعن قساوة القلب؟ هل جننت؟ ما خطيئتك وأنت بهذه الطيبة؟

- لا يا أيها الأب، أنا سيئة، لقد كنت أخدعك وأخدع نفسى وأريد خداع الله.

- هيا، اهدئى، تحدثى بترو وعقل كى لا تهذى.

- وكيف لا أهذى حين تتملكنى روح شريرة ؟

- أيا عذراء يا طاهرة: بنيتى، لا تفقدى صوابك. انظرى ابنتى، هناك ثلاثة شياطين مرعبة تملك الأرواح، وأنا متأكد ألاّ أحد يجرؤ أن يصل إليك. الأول هو ليفياثان، أو روح الكبرياء، والثانى هو مامون أو روح البخل، والثالث هو أسموديو أو روح الحب غير الصافى.

- لكنى ضحية هؤلاء الثلاثة، فالثلاثة يتملكوننى.

- يا للهول! أكرر لك، اهدئى، اهدئى. أنت ضحية الهذيان.

- أتمنى من الله أن يكون كذلك بسببى. على العكس، أنا بخيلة، لأننى أمتلك الكثير ولا أقوم بأعمال الخير التى يجب عملها، وأنا متكبرة لأنى أحتقر رجالا كثيرين ليس بسبب الفضيلة أو

العفة، بل لأنى لا أجدهم يستحقون عطفى. لقد عاقبنى الله وسمح لهذا العدو الثالث الذى تتحدث عنه أن يتملكنى.

- كيف هذا يا ابنتى؟ ما هذه الشيطنة التى حدثت لك؟ إنك ربما تحبين؟ وإذا كان الأمر كذلك، ما السيئ فى هذا؟ ألست حرة؟ إذن تزوجى، ودعك من تلك التفاهات. وأنا متأكد أن صديقى السيد بدرو دى بارجاس قد فعل المعجزة. فالشيطان هو السيد بدرو هذا! وأنا أعترف لك أنى مندهش منه. وأنا لم أكن أدرى أن الأمر قد نضج واستفحل.

- لكنى لست مغرمة بالسيد بدرو بارجاس.

- بمن إذن؟

نهضت بيبتا من مقعدها وذهبت نحو الباب، فتحته ونظرت لترى ما إذا كان أحد ينصت من الخارج، وأغلقته مرة أخرى، ثم اقتربت من القس بحزن شديد وصوت مرتجف والدموع فى عينيها، ثم قالت للعجوز الطيب:

- أنا أحب ابنه دون لويس.

- ابن من؟ قاطعها حيث غير راغب بعد فى تصديق ما سمعه.

- ابن من يكون؟ أنا فاسقة، أحب السيد لويس جدا.

ارتسم الذعر والمفاجأة الأليمة على وجه القس الطيب.

كانت هناك لحظة صمت، قال بعدها.

- لكن هذا حب دون أمل، حب مستحيل، فالسيد لويس لا يريدك.

من بين الدموع التى غيّمت على عيون ببيتا الجميلة، لمع شعاع ضوء سعيد، فقد فتحت فمها الرقيق؛ الذى انقبض من الحزن تاركة لآلئ أسنانها تظهر وهى تبتسم.

- إنه يريدنى قالتها ببيتا بنبرة رضا ونصر خفيفة وواضحة ارتفعت فوق ألمها وشكوكها.

هنا ازداد ذعر ودهشة الأب، فلو أن تمثال القديس الذى يكن له ورعه الكبير سقط من المذبح ووقع على الأرض وتحطم وتناثرت أجزاؤه، ما كان ليفزع هكذا. ولا يزال ينظر إلى ببيتا غير مصدق، غير واثق، أهذا حقيقى أم هلوسة أم غرور امرأة!؟ وكان يؤمن تماما بقدسية السيد لويس وروحانيته.

- إنه يريدنى! قالتها ببيتا مرة أخرى مجيبة على هذه النظرة غير المصدقة.

- النساء أسوأ من إبليس! فأنتن تسقطن فى حبائلكن إبليس نفسه.

- أليس هذا، ما كنت أقول لك؟ فأنا شريرة جدا!

- يا إلهى! هيا، اهدئى. إن رحمة الله واسعة، احك لى ما حدث.

- ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟ فأنا أريده، أحبه، أعبده، وهو أيضا يريدنى، على الرغم من أنه يصارع ليخنق حبه. وربما نجح فى ذلك، وأنت أيها الأب، دون أن تدري، لك يد فى كل ذلك.

- هذا ما كان ينقصني! كيف أن لى يدًا فى هذا؟

- بكل ما تملكه من طيبة شديدة أيها الأب، فأنت لم تفعل سوى مدح السيد لويس، وأنا متأكدة أنك مدحتنى أيضا أمامه، لقد بالغت فى مدحنا بما لا نستحقه. ماذا كان يمكن أن يحدث؟ هل أنا من البرونز؟ هل لدى أكثر من عشرين عاما؟

- عندك حق وأكثر من ذلك. فأنا أحمق. لقد شاركت بقوة فى عمل إبليس.

كان الأب طيبًا ومتواضعًا جدًا، كان مرتبكًا وأحس بالندم عند قول العبارات السابقة كما لو كان هو المتهم وببيتا هى القاضى.

أدركت ببيتا الأنانية الشديدة التى جعلت بها الأب شريكا، بل شريكا رئيسيًا فى خطئها وحدثته بهذه الطريقة.

- لا تحزن يا أبى، لا تحزن بالله عليك! انظر كم أنا فاسدة! أرتكب الأخطاء الشنيعة وأحمل مسئوليتها خير الرجال وأكثرهم فضيلة. لم يكن مدح سيادتك للسيد لويس، بل إن عينى وقلة تحفظى القليل ضللانى بالرغم من أن سيادتك لم تحدثنى إطلاقا عن خصال السيد لويس وعن علمه وموهبته وقلبه المتحمس، فقد اكتشفت كل هذا وأنا أسمعه يتكلم، فأنا فى النهاية لست بلهاء ولا ريفية. وقد انتبهت أيضا إلى شهامته ووجاهته الطبيعية ولباقته، وإلى عينيه المليئتين بالحماسة والذكاء، فى كل هذا بدا لى لطيفًا ومرغوبًا فيه. وأتى إطراؤك عليه فقط ليزيد من إعجابى وليس ليثيرنى. وقد أعجبتنى هذه الصفات لأنها تتفق مع رأيى، وكانت كالصدى منخفضًا وضعيفًا جدًا أكثر مما كنت أتصور. ولم يصل الثناء البليغ الذى أثنيته على السيد لويس إلى المديح الذى كلته أنا له فى كل دقيقة وفى كل ثانية داخل نفسى.

- لا تندفعى وراء شعورك يا ابنتى!

واصلت ببيتا باندفاع أكثر:

- لكن يا للفرق بين مدحك وتفكيرى! فقد كنت ترى فى السيد لويس النموذج المثالى للقسيس، للمبشر، للرجل البابوى، يعظ بالإنجيل فى مناطق متباعدة ويهدى غير المؤمنين، يعمل فى

إسبانيا لإعلاء المسيحية المفقودة اليوم بسبب كفر البعض، وانعدام الفضيلة ومحبة الله لدى البعض الآخر. لكنه بالنسبة لي كان على العكس، أنيقًا، عاشقًا، ناسيًا الله من أجلي، مكرسًا حياته لي، معطيًا روحه لي، مكونا بذلك سندي في الحياة ورفيقي العذب. كنت أشتاق لسرقته، تدنيسه، كنت أحلم بسرقته من الله ومن معبده، كالسارق عدو السماء الذي يسرق أغلى جواهر كأس القربان المقدسة المبجلة. ولكي أرتكب هذه السرقة، رفضت عزاء الأرامل واليتم، وارتديت حلي خليعة، تركت انطوائي وبحثت واستدعيت الناس، حاولت أن أكون جميلة، اعتنيت كثيرا بكل هذا الجسد البائس الذي سيدفن في الكفن ويتحول إلى تراب حقير، وفي النهاية نظرت للسيد لويس نظرات مثيرة، وحين يمد يده، أردت أن أنقل هذه النار الموقدة التي تحرقني من أوردتي إلى أوردته.

- آه يا ابنتي ! ما هذا الألم الذي يعتريني مما أسمعه منك! من حتى كان يمكنه أن يتخيل ذلك.

- بل مازال يوجد أكثر من ذلك – أضافت ببيتا – فقد توصلت إلى أن السيد لويس يحبني، وقد صرح لي بذلك بعينيه. نعم، كان حبه عميقًا، وملتهبًا جدا مثل حبي. وكانت طهارته وتطلعه إلى الخير الدائم وشجاعته الرجولية تحاول التغلب على هذه العاطفة المجنونة. وقد حاولت منعه. وفي مرة،

وبعد عدة أيام من غيابه عن هذا المنزل، أتى ليرانى ووجدنى وحدى. بكيت وأنا أصافحه، ودون أن أتكلم أوحى إلى الشيطان بفصاحة صامتة وسيئة، طلبت منه أن يتفهم ألمى لأنه كان يحتقرنى ولا يريدنى، ولأنه يفضل حبًا آخر بلا دنس على حبى. حينئذ لم يعرف كيف يقاوم الإغراء، واقترب فمه من وجهى ليخفف دموعى. التحم فمانا. وإذا لم يكن الله قد أعد لأن تأتى أنت فى هذه اللحظة، لست أدرى ما كان يمكن أن يحدث لى.

- يا للخجل يا ابنتى! يا للخجل!

غطت ببيتا وجهها بين يديها وبدأت تنتحب كامرأة تائبة. كانت يداها فى الواقع جميلتين جدًا، أكثر جمالاً مما ذكره السيد لويس فى رسائله، كان بياضها وشفافيتها الواضحة، وترتيب أصابعها، وتورد وجمال ونصاعة أظافرها، كل ذلك؛ كان حريًا بأن يجن بها أى رجل.

وعلى الرغم من أعوامه الثمانين، أدرك الأب الفاضل وقوع السيد لويس فى الخطأ.

- أيتها الفتاة!– قال متعجبا – لا تكونى مبالغة! لا تمزقى قلبى! اهدئى، من المؤكد أن السيد لويس قد ندم على خطيئته. سينتهى كل شيء إذا ندمت أنت أيضا. سيغفر الله عنكما

وسيجعلكما صالحين. حين ذهب السيد لويس أمس الأول كان هذا علامة واضحة على أن الفضيلة قد انتصرت له وهربت منك أنت، كما يجب، لكي تكفر خطيئته وتحقق وعده وتأتي لإلهامه الديني.

- هذا حسن - رددت ببيتا - يحقق وعده ويأتي لإلهامه الديني... ويقتلني قبل ذلك! لماذا أرادني، لماذا أحبني، لماذا خدعني؟ كانت قبلته علامة، كانت سيخًا متوهجًا وبه أشار إليّ وطبعها كما لو كنت جارية له، والآن يتركني ويبيعني ويقتلني، ما أسعد تلك البداية التي يريد أن يبدأ بها مهامه ودعواته وانتصاراته الإنجيلية! هذا لن يكون أبدًا! والله لن يكون!

أصاب هذا السيل من الغضب والغيظ الغرامي القس بالذهول.

وقفت ببيتا؛ وكان في وقفتها وحركتها شجاعة مأساوية. لمعت عيناها كخنجرين وأضاءتا مثل شمسين. سكت القس ونظر إليها بخوف. اجتازت الصالة بخطوات كبيرة. لم تبدُ ذلك الحين كالغزالة الخجول، بل لبؤة ثائرة.

إذن ماذا؟ قالت، اتجهت من جديد نحو الأب نائب الأسقف، ألا يوجد أكثر من السخرية مني وتمزيق قلبي، وإهانته وامتهانه، ودهسه بعد سلبه بالخداع؟ سيتذكرني! سيدفع ثمن هذا غاليًا! إذا كان

صالحًا وفاضلاً هكذا، لماذا نظر إليّ وهو يعدنى بقلبه كله بنظراته؟ لو كان يحب الله كثيرا، لماذا يسىء إلى مخلوقة مسكينة من مخلوقاته؟ هل هذه رحمة؟ هل هذا دين؟ لا، إنها أنانية بلا قلب.

لم يستطع غضب ببيتا أن يستمر كثيرًا، فبعد أن نطقت الكلمات الأخيرة، خارت قواها، سقطت ببيتا على الأريكة باكية أكثر من ذى قبل بحزن حقيقى.

أحسى القس بتعاطف كبير نحوها، لكنه استعاد نشاطه حين رأى العدو يستسلم.

- ببيتا يا صغيرتى - قال - عودى إلى صوابك، لا تعذبى نفسك هكذا. اعتبرى أنه صارع أكثر لينتصر. وأنه لم يخدعك، وأنه يريدك بكل روحه، لكن الله والتزاماته تأتى قبل كل ذلك. هذه الحياة قصيرة جدا وستمضى بسرعة، سوف تجتمعان، ويحب بعضكما بعضًا فى السماء، كما يتحاب الملائكة، وسيقبل الله تضحياتكما وسيكافئكما ويعوضكما كثيرًا. وحتى حبك نفسه يجب أن يكون راضيًا. ماذا ستكسبين حتى تجعليه يتردد ويصير السيد لويس رجلا مخطئًا! كم من جرح غائر ستتركينه فى قلبه! يكفى هذا، كونى كريمة، كونى شجاعة! نافسيه بقوة. اتركيه يرحل، ألق من صدرك نار الحب الملوث، أحبيه فى الله. احتفظى

بصورته فى ذهنك، لكن كمخلوقة ممتازة، محتفظة للخالق بأنبل جزء فى روحك. لا أعلم ما أقوله لك يا إبنتى لأننى قلق جدًا، لكن لديك موهبة وفطنة كبيرة، وتفهميننى بكلمات بسيطة. كذلك توجد أسباب دنيوية قوية تتعارض مع هذا الحب الباطل، على الرغم من أن الإلهام الربانى ووعد السيد لويس لا يتعارضان. إن أباه خطب ودك، طلب يدك، بالرغم من أنك لا تحبينه. هل سيكون مستحسنا أن نخرج الآن بأن الابن خصم لأبيه؟ ألن يغضب الأب من إبنه بسبب حبه لك؟ انظرى كيف سيكون كل هذا مروعًا، وانظرى إلى المسيح وأمه مريم العذراء.

- من السهل إعطاء نصائح كهذه ! أجابت بيبيتا هادئة بعض الشئ، يا له من شيء صعب اتباع ذلك، خصوصًا عندما تكون برأسى مثل هذه العاطفة المفترسة والقاطعة للصلة، إنى أخشى الجنون.

- النصائح التى أقولها لك هى لمصلحتك. اتركى دون لويس يرحل. إن البعد هو أفضل وسيلة لتخفيف معاناة الحب. وسوف يشفى من حبه لك، منكبًا على دراسته وتفرغه للكهنوتية. أنت، هكذا بعيدة عنه، سوف تهدئين شيئًا فشيئًا، وسوف تحتفظين له بذكرى سارة ومأثرة لا تضرك فى شيء. ستكون لك مثل القصيدة الجميلة التى تضيئ بنورها

وجودك. لو كان من الممكن إتمام كل رغباتك.... من يعلم؟ إن الحب الدنيوى قليل الثبات. إن الملذات التى يلمحها أو يشعر بها الخيال والاستمتاع والاستعجال بها حتى الثمالة لا تقدر ولا تقارن بمرارة النهاية. من الأحسن أن يكون حبكما، الذى لم يلطخ أو يلوث، أن يزول ويتبخر على يد السآمة والملل. تحلًى بالشجاعة لكى تبعدى الكأس عن شفتيك قبيل أن تتذوقى المُدام. واجعلى منها قربانًا وقدِّميه لراهب ناسك. بالعكس سيعطيك هو من تلك الكأس التى قدمها فاعل الخير الطيب، شرابًا لا يتعب ويشبع الظمأ، ويقدم حياة خالدة.

- أبى ، أبى ، يا لك من إنسان طيب. كلماتك الصالحة أمدتنى بالقوة. سأسيطر على نفسى، سأنتصر. من المخجل حقيقة أن يكون دون لويس قادرًا على التحكم والانتصار على عواطفه، وأكون أنا مترددة ولا أستطيع الانتصار. فليذهب. سيذهب بعد غد. يذهب مصحوبًا بسلامه الله. انظر سيادتك إلى بطاقته. لقد كان بالأمس هنا مع والده ولم أستقبله. لن أراه بعد ذلك. لا أريد الاحتفاظ حتى بالذكرى الشاعرية التى تذكرها سيادتك. كان هذا الحب كابوسًا. سألقى به بعيدًا عنى.

- حسنا، حسنا، هكذا أريدك قوية.

- آه، يا أبى، لقد أخضع الله كبريائى بهذه الصدمة، إن إدراكى كان وقحًا جدًا، لقد أصبح ازدراء هذا الرجل أمرًا ضروريًا، كى أكون خاشعة تماما كما يجب، هل أستطيع أن أكون أكثر سجودًا وأكثر استسلامًا للقدر؟ إن دون لويس على حق، أنا لا أستحقه. كيف بعد كل الجهد الذى فعلته، لابد من الصعود إليه، لابد أن أفهمه، وأجعل روحى فى تواصل مع روحه؟ إننى قروية فظة، جاهلة، غير مثقفة، حمقاء، أما هو فلا يوجد علم لا يفهمه، ولا سر يجهله، ولا مجال رفيع فى الثقافة لا يعلمه. إنه هناك سيرتفع بأجنحة عبقريته، أما أنا فامرأة فقيرة وسوقية، سيتركنى هناك أسفل الأرض، غير قادرة على اتباعه، ولا بأمل ضعيف، وسأمكث مع تنهداتى الحزينة.

- لكن، ببيتا، أستحلفك بالمسيح، لا تقولى ذلك، ولا تفكرى هكذا، دون لويس لا يصدك لأنك فظة، ولا لأنه عالم كبير لا تستطيعين فهمه، ولا لهذه الحماقات التى تسرديها. إنه سوف يرحل لأنه لابد أن يكمل رسالته مع الله، ويجب عليك أن تفرحى لذلك، لأنك سوف تشفين من هذا الحب، الله سيعطيك جائزة التضحية الكبرى.

توقفت ببيتا عن البكاء ومسحت دموعها بالمناديل، ثم أجابت هادئة:

- حسنا، أبي، سأفرح، إننى فرحة تقريبا لأنه سيرحل، أتمنى أن يمر هذا الصباح، وبعد غد على خير، وتأتى أنطونيونا لتقول لى عندما أستيقظ: "لقد رحل دون لويس". سوف ترى سيادتك كيف ستولد السكينة في قلبى والهدوء من جديد.

- هكذا يجب أن يكون قال الأب نائب الأسقف، مقتنعًا بأنه قام بعمل عظيم، وانه استطاع شفاء ببيتا مما أصابها، مودعًا إياها وذهب إلى منزله، قال ذلك دون استطاعته مقاومة تجنب بعض الغرور، عند اعتباره أن تأثيره على هذه الروح النبيلة لتلك الفتاة الرائعة كلل بالنجاح .

ما كادت ببيتا تنهض لتوديع الأب نائب الأسقف حتى عادت لتغلق الباب، ومكثت وحدها، واقفة فى وسط الغرفة، ظلت دون حركة برهة، بنظرة متحجرة بالرغم من أنها لم تحدق فى أى شيء وبعينين خاليتين من الدموع. كما يتذكر الشعراء أو الفنانون صورة أريادنى (ابنة مينوس وبازيفيئيا)، كما يصفها الشاعر كاتولو عندما ودعها تيسيوس فى جزيرة ناكوس. انفجرت بعد ذلك فى نحيب مثير للشفقة، كما لو كانت تحل عقدة كانت تطبق على حلقها، كما لو كانت تلوى حبلا كان يخنقها، أراقت به سيلاً من الدموع وانطرحت وألقت، بجسدها، الجميل والعذب، فوق بلاط الأرض. هناك، وهى تغطى وجهها بيديها وقد تشعثت ضفيرة شعرها وملابسها، واصلت النحيب والتشنج.

ظلت هكذا وقتا طويلا حتى وصلت أنطونيونا. سمعت أنطونيونا بكاءها، قبل أن تدخل وتراها، قفزت في الصالة عندما رأتها ملقاة على الأرض، بالغت أنطونيونا فى التعبير بعواطفها وأبدت غضبها الشديد لذلك.

- هل رأيت سيادتك – قالت – هذا الحقير، السوقى، المهين، الغبى، ما هذه البراعة التى يخدع بها صديقاته، لقد فعل شيئًا شنيعًا كدر هذه الطفلة التى هى من روحى، وتركها لى هنا شبه ميتة، وعاد هو إلى الكنيسة ليعد المفيد لكى يشدو بالتسابيح وأغانى طقوس الجنازات، ويرشها بالماء المقدس ويدفنها لى دون تروٍ.

كانت أنطونيونا في نحو الأربعين من عمرها، صلبة، شديدة في العمل، نشيطة وأقوى من حفارين كثيرين. ترفع دائما قربة يقدر وزنها بثلاثة وثلاثين كيلو جرام ونصف الكيلو جرام من الزيت أو النبيذ، وتغرسها فوق ظهر البغلة، أو تحمل جوالا من القمح وتصعد به إلى أعلى الكرار، حيث يوجد مخزن الغلال، دون تعب، بالرغم من أن ببيتا لم تكن نحيفة، حملتها أنطونيونا من الأرض بين ذراعيها، كما هى، ووضعتها بحرص شديد فوق الأريكة، مثل الذى يعلق تحفة ثمينة ومتقنة لكى لا تتكسر.

- ما كل هذا الإغماء يا إلهى؟ -تساءلت أنطونيويا- أراهن على أن هذا القط نائب الأسقف قد ألقى عليك خطبه الدينية المريرة وحطم نفسك بالحسرة.

كانت ببيتا مستمرة فى البكاء والنحيب دون إجابة.

- هيا ، اتركى هذا البكاء وقولى لى: ماذا أصابك. ماذا قال نائب الأسقف؟

- لم يقل شيئا يسيئ لى؛ أجابت أخيرًا ببيتا.

عندما رأت ببيتا أن أنطونيونا تنتظر باهتمام أن تتحدث، وأرادت هى أن تفتح قلبها مع من تتعاطف أحسن معها وتتفهمها بشفقه أكثر، تحدثت بهذه الطريقة:

- الأب نائب الأسقف عاتبنى بعذوبة كى أتوب وأندم على ذنوبى، ولكى أترك دون لويس يرحل فى سلام، لكى أفرح لرحيله، لكى ينسانى. وقد قلت له نعم على ذلك. ووعدته أن أكون مسرورة لرحيل دون لويس. أردت أن أنساه وأمحوه من ذاكرتى، لكن أنظرى، انطونيونا، لا أستطيع ، إنه شيئ أكبر من إرادتى وقوتى. عندما كان نائب الأسقف هنا، أقسمت أن أكون شجاعة، وعندما ذهب، فقدت الحماسة وسقطت على الأرض حزينة، كأن الله تركنى من بين يديه. كنت أحلم بحياة سعيدة بجوار هذا الرجل الذى أحببته، كنت

أرى نفسى صاعدة نحوه بمعجة من الحب، إن عقلى الفقير كان فى مشاركة مع عقله الرفيع، رغبتى كانت متفقة مع رغبته، تفكيرنا واحد، خفقان قلبينا واحد. خطفه الله وأخذه، ومكثت وحيدة، دون أمل ولا عزاء، أليس هذا شيئًا مرعبًا؟ مبررات الأب نائب الأسقف عادلة وعاقلة... سرعان ما أقنعتنى. لكنه ذهب، وكل الشجاعة التى انبنت على تلك المبررات بدت لى عديمة القيمة، هراء، كذبًا، مشكلات، مراوغة، أنا أحب دون لويس، وهذا المبرر هو أقوى المبررات وإذا كان هو يحبنى، لماذا لم يترك كل شيئ ويبحث عنى، ويأتى، ويحطم العهد، ويبطل الالتزام؟ لم أكن أعلم ما الحب؟ الآن عرفته؛ لا يوجد شيء أقوى منه على وجه الأرض ولا فى السماء. ما الذى لم أفعله من أجل دون لويس؟ وهو لم يفعل شيئًا من أجلى، ربما لأنه لم يحبنى، كلا، دون لويس لم يحبنى. لقد خدعت، لقد أعمانى الغرور. لو كان دون لويس أحبنى، كان ضحى بأغراضه، بنذره، بشهرته، بتطلعاته فى أن يصبح قديسًا ونابغة للكنيسة، كان من الممكن أن يضحى بكل ذلك من أجلى. الله يسامحنى...، فما أقوله فظيع، لكنى أشعر به هنا وسط صدرى، يحترق هنا، فى الجبين المحموم، إننى أبذل الروح من أجله.

قاطعتها فى الحال أنطونيونا: يا إلهى، بحق العذراء ويسوع!

- المغفرة، المغفرة... يا عذراء الآلام. لقد جننت حقًا... لا أعرف ماذا أقول، أسب وأكفر.

- نعم، ابنتى، إنك سيئة الحظ، أعوذ بالله، كيف استطاع الغندور أن يسلب عقلك هكذا، لو كنت مكانك، لما أخذت هذا الأمر ضد السماء، التى ليس لها ذنب ، بل ضد هذا الرجل الوقح، المتعجرف، ضد هذا التلميذ الخائن، سأجعله يدفع الثمن غاليًا، سأمحو اسمه من الوجود. أريد أن أذهب للبحث عنه، وأحضره هنا من أذنيه، وأجبره على أن يطلب منك السماح، وعلى أن يقبل القدم راكعًا.

- لا يا أنطونيونا. أرى أن جنونى أصابك أيضا، وأنك تهذين أيضا مثلى. لا يوجد مخرج آخر أفعله فى عزيمة وثبات غير الذى نصحنى به الأب نائب الأسقف. سأفعله بالرغم من أنه يكلفنى الحياة. لو مت من أجله، سوف يحبنى، سوف يحتفظ بصورتى فى ذاكرته، وحبى فى قلبه، والله، الرحيم، سيجعلنى أعود وأراه فى السماء بعين الروح، هناك أرواحنا ستتحاب وتمتزج.

أنطونيونا، رغم أنها فى الواقع صلبة وليست عاطفية بالمرة، شعرت عند سماعها ذلك، بالدموع تسيل من عينيها.

- يا إلهى ، بنيتى – قالت أنطونيونا – سأنفجر فى البكاء حسرة بسببك، وأصرخ مثل البقرة. اهدئى ولا تفكرى فى أنك تموتين ولو بإرادتك. أرى أن أعصابك ثائرة. أتريدين أن أحضر لك قدحا من الشاى؟

- لا شكرا. اتركينى...، الآن سوف ترين كم أنا هادئة.

- سأغلق لك النوافذ، لعلك تنامين، إنك لم تنامى منذ أيام، كيف تستطيعين ذلك؟ منحوس هذا الدون لويس وهوسه بأن يصير راهبًا.

كانت بيبيتا قد أغمضت عينيها، هادئة وصامتة، متعبة حينئذ من الحديث مع أنطونيونا.

وأنطونيونا انحنت نحو بيبيتا معتقدة أنها نائمة، أو راغبة فى النوم، طبعت بنعومة وبطء قبلة على جبينها الأبيض، عدلت وطوت لها الفستان على جسدها، وواربت النوافذ لكى تترك الحجرة خافتة الضوء، وخرجت على أطراف أصابعها، أغلقت الباب دون أن تصدر أدنى صوت.

فيما تحدث هذه الأشياء فى منزل بيبيتا، لم تكن الأمور أكثر سرورًا أو هدوءًا فى منزل السيد دون لويس دى بارجاس.

والده، الذى لم يترك يوما تقريبا دون الخروج للمزارع ممتطيًا الحصان، كان يريد أن يكون دون لويس بصحبته ، لكنه اعتذر بحجة

أنه يعانى من الصداع، وخرج دون بدرو بمفرده. كان دون لويس قد قضى وحده طوال الصباح، منكبًا على أفكاره الحزينة، وأكثر ثباتًا من صخرة فى عزيمته لمحو صورة ببيتا ليكرس نفسه تماما لله.

ومع كل هذا، لا لأحد أن يرتاب فى حبه للأرملة الشابة. لقد رأينا عاطفته الشديدة نحوها، لكنه استمر فى كبح إرادته بالوفاء النقى لنفسه ولاعتبارات سامية أخرى أسهبت الخطابات فى إبرازها ونستطيع نحن حذف الكثير منها هنا لكى لا نقع فى خطأ الإسهاب.

ربما، لو تعمقنا بشدة فى هذا العمل، سوف نلاحظ أن المسألة ليست فقط حب ببيتا، ليس الصراع وحده فى نفس دون لويس، بل إن الحب حدث بداخله، بالرغم من أنه غير ثابت، حب الله من جهة ، احترام والده من جهة أخرى؛ فهو لا يريد أن يكون خصمًا له، والدعوة أيضا لغرض دينى، مسألة أنه يميل إلى الرهبنة، ولكن توجد أسباب أخرى أقل وزنا من التطهر وأكثر من الوفاء.

كان دون لويس ملحًا وعنيدًا، كانت إحدى صفاته التي إذا أحسن توجيهها غدت ثباتًا للعزيمة، ولم يكن هناك ما يحتقره أكثر من تغيير الرأى والسلوك. أما الغرض الذى يستند إليه ويفصح عنه أمام كثير من الأشخاص الذين يتعامل معهم، صورته الأخلاقية، فى جملة واحدة، فى شخص مرشح لكى يكون قديسًا، فى رجل كرس حياته لله، شخص تشرّب فكره وعاطفته بأسمى فلسفة دينية، كل هذا لا

يمكن أن يسقط دون أن يشعر دون لويس بالخزي، مثل سقوطه لو ترك نفسه لحب ببيتا خيمينث. على الرغم من أن الثمن كان لا يقارن، دون لويس كان يتصور أنه لو خضع سوف يبيع بكورته ويفقد صيته.

عموما، نحن الرجال اعتدنا أن نكون لعبة فى يد الظروف، نترك أنفسنا للتيار ولا ننساق إلى نقطة ما دون تردد، لا نختار أدوارنا بل نأخذ ونؤدى ما كتب لنا، الذى يطرق بابنا، المهنة، الحزب السياسى، الحياة بأثرها لكثير من الرجال تتوقف على حالات فجائية، محكومة بالمصادفة الحتمية، القدر، بنزوات الحظ غير المنتظرة.

ضد كل هذا كان كبرياء دون لويس يتمرد بقوة هائلة. ماذا سيقال عنه هو، وبالأخص كيف يفكر هو فى نفسه لو أن المثل الأعلى فى حياته - الرجل الجديد الذى خلقه فى وجدانه - لو أن خططه للفضيلة، للشرف، وحتى للطموح المقدس تلاشت فى لحظة، ليذوب من حرارة نظرة، فى اللهب المراوغ لعينين جميلتين، كالجليد ينصهر بشعاع شمس الصباح الواهن؟

هذا السبب وأسباب أخرى متصلة بالأنانية كانت تحارب أيضا ضد الأرملة، فضلا عن الأسباب الحقيقية والجوهرية، لكن جميع المبررات ارتدت إهاب الدين نفسه لدرجة أن دون لويس نفسه لم يكن

يعرف حقًا أهو فقط حب الله، أم هو حب النفس؟ كان يتذكر، مثلا، حياة كثير من القديسين الذين تحملوا فتن وإغراءات أكبر من حالته، ولا يريد أن يكون أقل منهم. كان يتذكر مثلا، بالأخص، استقامة القديس يوحنا كريسوستوم الذى ازدرى محبة أمه وبكاءها وشكواها العذبة، وكل البلاغة والكلمات العاطفية التى قالتها له لكى لا يتركها ويصبح راهبًا، وبعد أن قادته، من أجل ذلك، إلى مخدعها الخاص وجعلته يجلس معها فى الفراش الذى ولد فيه.

وبعد أن التفت دون لويس إلى هذا المثال، لم يستطع أن يسمح لنفسه بعدم احتقار توسلات هذه السيدة الغريبة التى تعرف إليها منذ وقت قصير فقط، ومازال مترددا بين واجبه وجاذبية شابة ربما تكون امرأة لعوبًا أكثر من كونها عاشقة.

ثم فكر دون لويس فى السمو الرفيع وهيبة الرهبنة التى سيلبى نداءها، وكان يراها فوق كل مؤسسات الأرض تيجانها البائسة؛ لأنه لم يكن بشرا فانيًا ولا نزوة متقلبة ودنيئة لخدمة الغوغاء، ولا طريقًا لأناس همجيين، ولا عنف كتائب يحركها الجشع، ولا ملاكًا، ولا رئيس ملائكة، ولا سلطة متبناة، بل الروح القدس نفسه الذى أسسها. كيف يحتقر هذه الكرامة العريضة، هذه الولاية التى لم يمنحها الله لكثير من الملائكة الذين هم الأقرب من عرشه.

هل من أجل حافز تافه لشابة، ومن أجل دمعة ربما تكون كاذبة ينحدر إلى الامتزاج فى ظلام الغوغاء ويصبح من القطيع، فيما يحلم بأن يكون هو الراعى؟

عندما يتأمل دون لويس ذلك كله، تسمو روحه، وتصعد فوق كل السحاب فى جنة الخلد، والمسكينة بيبيتا تظل هناك بعيدة جدا، وهو بالكاد يراها.

لكن، سريعًا ما كان ينهار كل ما بناه فى مخيلته، وتلمس روح دون لويس الأرض، ثم تعود لترى بيبيتا، لطيفة جدا، شابة جدا، ناصعة القلب، وعاشقة، بيبيتا تصارع داخل قلبها ضد أقوى رغبة متأصلة فى وجدانها، ودون لويس خائف من أن يقضى على نفسه معها.

هكذا كان دون لويس يتعذب بأفكار متناقضة تتصارع بداخله، عندما دخل كوريتو حجرته دون كلام. كوريتو الذى لم يقدر ابن خاله، لأنه فى نظره مجرد رجل دين فقط، كان يحترمه، ومعجبًا به، واتخذ منه مفهومًا فائقًا للطبيعة منذ رآه يمتطى الحصان لوثيرو بجدارة.

معرفته بالدين وعدم معرفته ركوب الخيل كانا يقللان من قيمة دون لويس فى نظر كوريتو، لكنه عندما لاحظ تفوقه فى ركوب الخيل، إلى جانب هذا العلم الذى لا يفهمه، وظنه أن ذلك صعب

ومعقد، فضلاً عن بسالة دون لويس فوق ظهر هذا الحيوان القوى، أضحى احترامه وحبه لدون لويس بلا حدود.

كان كوريتو كسولاً، بلا نفع ، لكن له قلبًا عطوفًا ومخلصًا.

كان دون لويس بالنسبة لكوريتو المعبود، كل الطبيعة السامية، مع الكائنات الأدنى درجة المحببة له. دون لويس كان يوده، هذا صحيح، لكن كوريتو كان يهيمن عليه باستبداد فى الأعمال التى تقل أهمية. وبما أن الرجال أمثال دون لويس لا توجد لديهم أشغال فى الحياة العادية واليومية، نتج عن ذلك أن كوريتو كان يتحكم فى تصرفاته.

- أتيت للبحث عنك – قال كوريتو لدون لويس – لكى تصحبنى إلى الكازينو، إنه كثير الحركة ومليئ بالناس اليوم. ماذا تفعل وحدك؟ تعبث وتصطاد الذباب؟

دون لويس، دون الإجابة عن ذلك تقريبا، وكما لو كان أمرًا لا يعنيه، أخذ قبعته وعصاه قائلا: "هيا بنا إلى أى مكان تريد"، وتبع كوريتو الذى سبقه، راضيًا بهذه السيطرة التى يمارسها.

الكازينو كان بالفعل حافلاً بالناس، نظرًا إلى احتفالات اليوم التالى، عيد القديس يوحنا. إلى جانب أن أكثر السادة هم من أهل المكان، يوجد أيضا كثير من الأجانب الذين أتوا من القرى المجاورة خصيصا لحضور المهرجان لقضاء سهرة المساء.

كان مركز الاجتماع فى الفناء الرخامى المشمس، به نافورة وعيون ماء ونباتات وورود، وقرنفل وزهور بيضاء فوّاحة. كان الفناء مغطى بخيمة من الخيش، للوقاية من الشمس، به بهو مليئ بأعمدة من الرخام المحيطة به، وهكذا فى الصالة مثل مختلف الصالات المطلة على الممر، توجد أيضا موائد للعب الورق وأخرى للجرائد، وأخرى لشرب القهوة والمرطبات، وأخيرا توجد مقاعد ومصاطب وأرائك. كانت الحوائط ناصعة البياض مثل الثلج، ولم تنقص الحوائط لوحات زيتية تزينها. كانت هذه اللوحات مستنسخات للوحات فرنسية وضّاءة، مفصلة الشرح بلغتين مكتوبتين أسفلها. بعضها تمثل حياة نابليون من تولون إلى القديسة هيلانة، أخرى لمغامرات ماتلدى ومالك عادل، وأخرى لحظات حب وحرب لفرسان المعبد، وربيكا وليدى روونيا وإيفانهو، وأخرى لمشاهد الغزل، ومداعبات وخطايا وندم لويس الرابع عشر والآنسة لا فالبير.

أسلم دون لويس قياد نفسه لكوريتو وذهبا إلى غرفة الاستقبال المكتظة بجميع الرجال المهندمين المتأنقين فى القرية والمقاطعة بأكملها. من بينهم كونت خيناثار الذى أتى من المدينة المجاورة. كان الكونت شخصية مشهورة ومحترمة، مكث فى مدريد وإشبيلية وقتا طويلاً، ويرتدى دائما حللاً صنعت بأيدى أحسن الحائكين، سواء على وتيرة أبناء البلد أم أبناء الذوات. وكان نائبًا فى البرلمان دورتين، وقام باستجواب الحكومة على تهور محافظ إحدى الدوائر.

نيف هذا الكونت على الثلاثين، شاب معتدل القد ويعلم هذا جيدا، لذلك كان معتدًا بنفسه، ويتفاخر بالإضافة إلى ذلك؛ بأنه رهيب فى الحب وفى التحدى. مع ذلك، وعلى الرغم من أنه واحد من أكثر الخطاب الملحفين فى طلب يد ببيتا، قوبل بالرفض الذى اعتادت إعطاءه لمن يغازلها ويتطلع لطلب يدها.

لم يكن الجرح الذى سببه له هذا الرفض القاسي والمرير قد التأم بعد فى قلبه المنكسر. وتحول الحب إلى كراهية، وكان الكونت يخفف من همه دائما بالسب والقذف فى حق ببيتا لتشويه سمعتها.

كان الكوند يمارس هذا الذم فيما أراد حظ دون لويس السيء أن يصل ويندس بين هذه المجموعة من الناس؛ فأفسحوا طريقا لاستقباله هو وكوريتو، وكانوا يستمعون لفاصل من تأنيب الكونت وتوبيخه فى حق ببيتا. دون لويس، كما لو كان الشيطان حاضرًا، تواجد وجهًا لوجه مع الكونت الذى كان يتحدث بهذه الطريقة:

- إن هذه الداهية – التى تدعى ببيتا – لأسوأ وأكثر تبجحًا وغرورًا من الأميرة ميكوميكونا فى رواية دون كيخوته دى لامانشا، تريد أن تجعلنا ننسى ماضيها، وأنها ولدت وعاشت فى الفقر والبؤس حتى تزوجت من ذلك الغراب، من ذلك الشيخ العجوز، من ذلك البخيل الملعون الذى سلبت نقوده. إن الشيء الوحيد الحسن الذى فعلته تلك الأرملة فى حياتها، هو

توافقها مع إبليس لكى ترسل زوجها الصعلوك إلى جهنم وتحرر الأرض من كل هذا الوباء والفساد. والآن تتمسح ببيتنا بالفضيلة والأصالة. كل ذلك طيب! لكن، يعلم الله إذا كانت متورطة مع جلف آخر، تهزأ من العالم كما لو كانت الملكة أرتميسا.

الأشخاص المنعزلون الذين لا يحضرون مجالس الرجال سوف يستنكرون - بدون شك - هذه اللغة، سوف يبدو لهم هذا الرجل بذيىء اللسان وهمجيًا لدرجه أنهم لن يصدقوه، لكن الذين يعرفون الدنيا يقرون أنه طالما استخدم هذه اللغة ضد أكثر السيدات جمالاً ولطفًا، وضد العقيلات الأشراف وهن قد اعتدن ذلك منه، فقد ذاع استخدامه بذيء الكلام من قبيل النكات والمزاح.

أما دون لويس - الذى اعتاد منذ صغره ألا يجرؤ أحد على تعكير صفوه فى حضوره، وألا يتفوّه بشيء يغضبه لأنه أثناء طفولته كان محاطا بالخدم والأقارب وحشم والده الذين اعتادوا النزول على رغبته، وبعد ذلك فى الدير، احترامًا لعمه رئيس الدير أو لشخصه هو، لم يضايقه أحد قط، بل على العكس إذ كان له اعتباره، والجميع يتملقه- فقد شعر بذهول فريد، ظل مثل من جرحه بسهم، عندما رأى الكونت الجسور يهتك عرض ويلطخ بالوحل شرف السيدة التى يحبها.

ومع ذلك، كيف يدافع عنها؟ لا يخفى عليه أنه ليس زوجها ولا أخاها، ولا من أقاربها، كان من الممكن أن يشجب الكونت من أجلها كفارس، لكنه تخيل الفضيحة التي سيتسبب فيها هذا الكونت، ولم يكن هنالك أي شخص يدافع عن ببيتا، بل على العكس، كان الجميع يضحكون لظرف الكونت. وهو بصفته من رجال رب السلام تقريبا، لا يستطيع مخالفة وضعه الديني أو مناقضته فيعرض نفسه لمشادة مع ذلك الحقير.

كان على دون لويس أن يلتزم الصمت أو يرحل من المكان، لكن قلبه لم يسمح له بذلك، وجاهد بغرور وثقة، بدأ يتحدث ضد النميمة ببلاغة فائقة بالرغم من صغر سنه، ووجوده غير اللائق في ذلك المكان. واجه الكونت بصراحة دينية وبلهجة صارمة بقبح فعلته الدنيئة.

فكأنه يعظ في صحراء ، أو أسوأ من ذلك، رد الكونت بالنكت اللاذعة وباستهزاء على هذه المواعظ. أما الناس، الذين لم يكن من بينهم قليل من الأغراب، فقد وقفوا بجانب المزاح، بالرغم من أن دون لويس هو ابن صاحب الضيعة، وكوريتو نفسه، الذي لا يساوي شيئًا وكان ضعيفًا، البرغم من أنه لم يضحك لم يدافع عن ابن خاله، وأما دون لويس فكان عليه أن ينصرف متكدرًا ومهانًا، مهمومًا بهذا الاستهزاء.

- هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير! همس دون لويس المسكين من بين أسنانه عندما وصل إلى منزله، دخل حجرته حزينًا، لقد أسيئت معاملته بالاستهزاء المبالغ فيه، وتصور أنه لن يتحمل. ألقى بنفسه مرة واحدة على أحد المقاعد مكتئبا ومنكسر القلب، وألف فكرة متناقضة قفزت إلى عقله.

دم والده، الذى يغلى فى عروقه، أيقظ فيه الغضب وحثه على أن يترك الرهبنة، كما نصحوه فى البداية عندما وصل إلى المكان، ليعطى بعد ذلك الكونت ما يستحقه من عقاب، وكل المستقبل الذى ينتظره والذى خلَّفه وراءه أنهاه فى لحظة، كان يرى رئيس الدير وقد استهجن ما فعله، وكذلك البابا، الذى كان قد أرسل الإعفاء البابوى لكى يرقى إلى مرتبة قس دون السن القانونية، والمطران الأبرشى، الذى دعم هذا الطلب مبرهنًا بذلك على كرم أخلاقه وخبرته وثبات إلهامه الدينى، كل ذلك ظهر أمامه لكى يؤنبه.

فكر أيضا بعد ذلك فى نظرية والده المضحكة حول إتمام الإقناع بالضرب، التى اتبعها القديس شانت ياقب وأساقفة العصور الوسطى، وقديس لويولا وشخصيات أخرى لم تبدُ له نظرية حمقاء، على العكس ، ندم تقريبا على عدم ممارستها.

تذكر حينئذ طريقة رجل كنيسة من الأرثوذوكس، فيلسوف فارسى معاصر شهير، مذكورة فى كتاب حديث حول ذلك البلد،

هذه الطريقة تتلخص فى العقاب بالكلمات القاسية للتلاميذ المستمعين عندما يضحكون من الدروس أو لعدم فهمها، فإذا كان هذا غير كافٍ، ينزل الأستاذ وسيفه فى يده أو يعطيهم جميعا علقة ساخنة. فى الأساس، كان هذا المنهج فاعلاً فى الجدل لكن الفيلسوف واجه مرة خصمًا آخر على نفس شاكلته فأصابه هذا بجرح غائر فى وجهه.

فى خضم ضيقه وكدره، ضحك دون لويس فى نفسه لما فى تلك الذكرى من فكاهة، فكر فى أن فلاسفة كثيرين فى إسبانيا سيسرون لتطبيق المنهج الفارسى، وفى أنه إذا كان لا يطبقه هو أيضًا فإن ذلك ليس خوفًا فى الحقيقة من الإصابة، بل لاعتبارات أخرى أرفع قيمة وأنبل.

أخيرا، انتابت روحه أفكار أفضل، فألفى فيها شيئًا من العزاء.

قال لنفسه: أخطأت بالوعظ هناك، كان يجب علىّ أن ألتزم الصمت. لأن سيدنا عيسى المسيح قال "لا تعطوا القدسَ للكلاب. ولا تطرحوا دُرَرَكم قدام الخنازير. لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم". لكن لا، لماذا أشتكى؟ لماذا أرد الإهانة بإهانة؟ لماذا تركت نفسى لينتصر الغضب؟ كثير من الآباء القديسين قالوا "الغضب هو دائما أسوأ من الشهوة لدى الراهب". الغضب عند الرهبان أهدر دموعًا كثيرة وتسبب فى أخطاء شنيعة. هذا الغضب ، بئس المرشد، ربما هو الذى أقنع الشعوب بأنها فى حاجة لأن تعرق دمًا تحت وطأة

الضغط الإلهى، ووضعت أمام أعينها المحتقنة رؤيا إشعياء، ورأوا وجعلوا أنصاره المتعصبين يشاهدون الحمل الوديع وقد تحول إلى منتقم لا يرحم، هابطًا من قمة إيدون شامخًا فى جمهور قوته، داهسًا الأمم مثل الذى يدهس العنب فى المعصرة، ورداؤه الكهنوتى مشمرًا وقد غطى الدم الفخذين. آه، كلا، يا إلهى، سأكون من رجال كنيستك. أنت إله سلام، وأولى فضائلى يجب أن تكون المسالمة، ما علمه ابنك فى خطبة الجبل يجب أن تكون هى مسلكى، لا عين بعين، ولا سن بسن بل محبة أعدائنا. أنت تشرق على الصالحين والآثمين وتنزل فوقهم جميعا مطر جودك الخصب الذى لا ينفد. أنت أبونا الذى فى السماء، ويجب أن نكون فى كمالك، نغفر لمن أساء إلينا ونسألك أن تغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ما يفعلون. يجب على أن أتذكر النعمة الخالدة فى الجنة. طوبى لهم لو احتقروكم وطاردوكم وقالوا كل ما هو سيئ عنكم. إن الراهب، من سيصبح راهبًا، يجب أن يكون متواضعاً، مسالمًا، طيب القلب. ألا يكون مثل شجرة البلوط التى ترتفع بشموخ حتى تجرحها الصاعقة، بل مثل الأعشاب العطرة فى الغابات والزهور المتواضعة فى المروج، التى تفوح برائحة عطرة وناعمة عندما يدهسها الفلاح.

فى مثل هذه التأملات وغيرها، مرت الساعات حتى الثالثة، وقد عاد دون بدرو لتوه من الريف ودخل حجرة نجله لكى يدعوه إلى طعام الغداء. لم تفلح مودة الأب البهيجة ولا نكاته ولا مظاهر محبته

فى إخراج دون لويس من حزنه ولا فى فتح شهيته. لم يكد يقرب الطعام ولم ينبس ببنت شفة.

كان دون بدرو منزعجًا جدًا من حزن نجله الصامت الذى يمكن أن يؤثر على صحته رغم قوته البدنية. وبما أن دون بدرو يستيقظ فى الصباح الباكر ويجتهد فى عمله كثيرًا أثناء اليوم فإنه ما إن انتهى من تدخين سيجار بعد الغداء مصحوبا بقدح من القهوة وكأس من عرق الينسون المركز، شعر بالتعب، وكعادته، ذهب لنوم القيلولة ساعتين أو ثلاثاً.

كان دون لويس حريصا على أن لا يخبر والده بالإهانة التى ارتكبها كونت خيناثار. أما والده الذى لم يكن يعطى مواعظ، وكان بطبعه قليل الصبر، فكان سيأخذ بثأره فى الحال ويفعل ما لم يستطع هو فعله.

ترك دون لويس غرفة الطعام فقط لكى لا يرى أحدًا، وعاد إلى عزلته فى مكانه لكى يستغرق بعمق فى أفكاره.

كان مستغرقًا فى أفكاره برهة طويلة، جالسًا بالقرب من المكتب، رافعا ذراعيه على هذا المكتب، ومستندًا بخده إلى يده اليمنى عندما شعر بصوت قريب منه. رفع عينه فرأى بجانبه أنطونيونا المقتحمة، التى تسللت مثل الظل، بالرغم من كونها مكتنزة، نظرت إليه باهتمام وبمزيج من الرأفة والغيظ.

كانت أنطونيونا قد اندست هناك دون أن يلاحظها أحد، منتهزة الساعة التى يأكل فيها الخدم والتى يكون فيها دون بدرو أيضا نائمًا، فتحت باب الغرفة وأغلقته من ورائها بنعومة شديدة حتى إن دون لويس، حتى وإن لم يكن غارقا فى التفكير، لم يحس بها.

حضرت أنطونيونا بجسارة، ثابتة العزم، لتعقد اجتماعًا جادًا جدًا مع دون لويس، لكنها لا تعلم من أى نقطة تبدأ الحديث. ومع ذلك، طلبت - لا نعلم أمن السماء أو من جهنم - أن تحل عقدة لسانها وأن تعطيها كلامًا، ليس كلامًا مبتذلاً وقبيحًا، مثل ما اعتادته، بل تريد كلاما مثقفا، منمقًا وفاعلاً، من أجل الأفكار النبيلة والأشياء الجميلة التى تصورت أن عليها التعبير عنها.

عندما رأى لويس أنطونيونا قطّب جبينه، أبدى استياءه فى إيماءة لهذه الزيارة، وقال بلهجة فظة:

- ما الذى أتى بك إلى هنا؟ ارحلى.

- أتيت لأحاسبك عما فعلته بطفلتى - أجابت أنطونيونا بلا وجل - ولن أذهب دون أن أفعل.

اقتربت فى الحال من المائدة بكرسى وجلست أمام دون لويس برصانة ووقاحة.

رأى دون لويس ألا مفر من ذلك، تخفف من حنقه وتسلح بالصبر، وبأسلوب أقل قسوة، صاح:

- قولى ما الذى جئت تقولينه لى.

أردفت أنطونيونا:

- يجب أن أقول إن الذى تدبره من مكيدة ضد طفلتى هو الشر بعينه. تتصرف مثل وغد، لقد سحرتها، لقد سقيتها شرابًا سامًا. هذه الملاك سوف تموت بسببك، لا تأكل، لا تنام، لا تهدأ، اليوم حدثت لها نوبة إغماء ثلاث مرات، فقط لأنها تفكر فى أنك سوف ترحل. خيرًا فعلت قبل أن تصبح رجل دين. قل لى، أيها الملعون، لماذا أتيت إلى هنا، ولم تبق هناك مع عمك؟ هى على الأقل كانت حرة، سيدة إرادتها، فيها إرادة الجميع، لم يستأثر أحد بقلبها، لكنها وقعت فى شباكك الخادعة. هذه القداسة الكاذبة كانت، دون شك، الطعم الذى تحتمى من ورائه. إنك بعلومك اللاهوتية وخبرتك السماوية التافهة، صرت محتالاً متوحشًا، صيادًا يجلب بصفارته السذج والحمقى الذين من السهل خداعهم.

أجاب دون لويس:

- أنطونيونا، بالله عليك، دعينى وشأني، لا تزعجينى. أنا شخص ظالم، أعترف بذلك. ما كان علىّ أن أنظر إلى سيدتك أو أن أجعلها تفهم أننى أحبها، لكن أنا فعلا أحببتها ومازلت أحبها من كل قلبى، لم أسقها أى سم ولا أى شراب سحرى

كما تقولين، بل نفس الحب الذى عندى، ومع ذلك، لابد ومن الواجب أبتعد وأنسى هذا الحب. الله أمرنى بذلك. هل تتصورين أن ذلك ليس أمرًا خطيرًا، وأن التضحية التى أقوم بها ليست كبيرة؟ ببيتا أيضا يجب أن تتحلى بالقوة وتضحى التضحية نفسها.

- أنتَ حتى لا تعطى هذه البائسة على الأقل هذا العزاء، فأنت تضحى على المذبح، بطيب خاطر وبإرادتك، بهذه السيدة التى تحبك، التى أصبحت ملكك، وضحيتك أيضا، لكن هى، أين تجدك لكى تضحى بك؟ أين الجوهرة التى ستقذف بها من النافذة، وأى بهاء خلاب تلقى به فى النار سوى هذا الحب الناكر للجميل؟ كيف تعطى الإله ما لا تملك؟ هل ستضلل الله وتقول له:"يا إلهى، حيث إنه لا يريدنى، لذلك سأضحى به، لن أحبه أنا أيضًا"؟ الإله لا يضحك، لو ضحك الإله، سوف يضحك لهذه الهدية.

ظل دون لويس مندهشا، لم يعرف كيف يعترض على حجج أنطونيونا الأشد قسوة من قرصها السابق. بالإضافة إلى ذلك، كان يربأ بنفسه من الدخول فى أمور الحب مع هذه الخادمة. أجاب:

- فلننحِ جانبًا هذه الأحاديث الباطلة. لن أستطيع شفاء سيدتك، ما الذى علىّ أن أفعله؟

قاطعته أنطونيونا:

- ماذا عليك أن تفعله؟ - ثم بنبرة أكثر مودة وعطفًا وبصوت لماح- هل سأقول لك ما الذي عليك أن تفعله؟ إذا لم تستطع شفاء طفلتى، على الأقل سوف تخففه. ألست قديسًا؟ إذن القديسون رحماء وشجعان أيضا. لا تهرب مثل أى جبان فظ، دون توديعها، اذهب لترى طفلتى. افعل هذا العمل من قبيل الرحمة.

- وماذا سنجنى من وراء هذه الزيارة؟ سيشتد الداء بدلا من شفائه.

- لا تكن هكذا، أنت لا تشعر بتفاقم هذه المشكلة، اذهب إلى هناك، وبأى كلام فارغ، أو بأى ثرثرة من التى تستخدمها، وبطلاقة اللسان التى وهبك الله إياها، سوف تدخل إلى نفسها الرضا والاطمئنان والاستسلام للقدر، وإذا ذكرت لها أنك فعلاً تحبها، وأنك تركتها فقط من أجل الإله، سترضى - على الأقل - غرورها كامرأة.

- إن الذى تقترحينه علىّ هو امتحان من الله، وفى ذلك خطر علىّ وعليها أيضا.

- ولماذا سيكون امتحانًا؟ إذا كان الله يرى استقامتك، عفتك، ألن يهبك فضله ونعماءه كى لا تضل فى هذا الموقف الذى

أقترحه عليك؛ على اعتبار أنها فرصة مواتية؟ ألا يجب أن تسرع إلى تحرير طفلتى من الحيرة وتأتى بها على الطريق الصحيح؟ لو ماتت من الألم لأنها مهانة ومحتقرة هكذا، أو لو أنها من شدة غيظها أمسكت بحبل وعلقت نفسها من كتلة من الخشب وانتحرت، صدقنى، وقتها تأنيب ضميرك سيكون أسوأ من لهيب القار والكبريت فى جحيم إبليس.

تعجب دون لويس منزعجًا من ذلك، قال "يا إلهى! لا أريد أن تيأس. سأتذرع بالصبر والقوة، سوف أذهب لرؤيتها".

– بارك الله فيك– ردت أنطونيونا – حدثنى قلبى أنك رجل طيب.

– ومتى تريدين أن أذهب؟

– هذا المساء، الساعة العاشرة تماما. سوف أكون أمام باب الشارع الخارجى فى انتظارك، وسأصحبك إلى حيث توجد.

– هل تعلم أنك أتيت لرؤيتى؟

– لا تعلم، كل ذلك كان من تلقاء نفسى، لكنى سوف أعدها وأجهز كل شىء بحنكة، كيلا تكون زيارتك المفاجئة والفرحة غير المتوقعة سببًا فى إغمائها مرة أخرى. أتعدنى أنك ستذهب لرؤيتها؟

- سأذهب.

- إلى اللقاء، لا تتأخر، في العاشرة تماما. سأكون أمام الباب الخارجي.

أسرعت أنطونيونا، بل هرولت، هبطت الدرج درجتين درجتين وخرجت إلى الشارع.

لا نستطيع نفي أن أنطونيونا كانت كتومًا جدًا في هذه المناسبة، وحتى لغتها كانت وقورًا ومهذبة لدرجة أنها لا يمكن وصفها بأنها مزيفة، بفضل علمنا التام بكل ما يحكى هنا، وإدراكنا كم من المعجزات بوسع فطرة هذه المرأة الذكية أن تأتي بها، عندما يحركها حافز مهم أو تحركها عاطفة كبرى. عاطفة أنطونيونا كانت حقًا جياشة نحو طفلتها، ولم يكن بوسعها أن تراها غارقة في حب ميئوس منه دون أن تبحث عن الأقل على علاج لدائها. لكن المقابلة التي تمت بينها وبين دون لويس انتهت بإلزامه الذهاب لطفلتها، كانت ضربة جزاء غير متوقعة. هكذا كان هدف أنطونيونا: الخروج بأقصى منفعة من النصر الذي حققته، فأعدت لكل شيء بخبرة وعلم بأمور الحياة.

حددت أنطونيونا الساعة العاشرة مساءً للقاء، لأنها الساعة التي اعتادت فيها ببيتا ودون لويس اللقاء من قبل ثم ألغي أو أجل. حددت أيضا هذه الساعة لتتجنب الهمس والفضيحة، فقد سمعت من

أحد الوعاظ: ألا أبشع من الفضيحة، حسب تعاليم الدين المسيحى والإنجيل، وأن المفضوحين يستحقون أن يقذف بهم فى البحر وحجر الطاحونة فى أعناقهم.

عادت، إذن، أنطونيونا إلى منزل مخدومتها، راضية جدًا عن نفسها، وعاقدة العزم على أن ترتب الأشياء بتعقل لكى يكون الدواء الذى بحثت عنه مفيدًا، أو كى لا يزيد من خطورة حالة ببيتا بدلا من شفائها. وأما ببيتا فلم تتخيل أو تتوقع ذلك، قالت لها أنطونيونا: إن دون لويس طلب منها من تلقاء نفسه تحديد موعد لزيارتها وتوديعها، وأنها حددت له الساعة العاشرة مساءً. فعلت ذلك لتجنب القيل والقال لو أن أحدًا رأى دون لويس وهو يدخل المنزل. فكرت فى أنهم لن يشاهدوه يدخل، ومن أجل ذلك كانت هذه الساعة مناسبة لتعد المنزل أيضا. ففى الساعة العاشرة يرتاد الناس الشارع للسهر، وفى الوقت نفسه لن ينتبهوا كثيرًا عندما يمر دون لويس فى الشارع. اختراق المدخل سيكون مسألة ثوان، وأنطونيونا، التى ستكون هناك منتظرة، ستصحب دون لويس إلى المكتب دون أن يراه أحد.

إن كل منازل أغنياء الريف فى الأندلس – أو معظمها تقريبا– هى عبارة عن منزلين بدلا من واحد، هكذا كان منزل ببيتا أيضا. كل منزل له بوابتان. من خلال الباب الرئيسى يمر الفناء المبلط وله أعمدة، مؤديًا إلى الصالات وإلى غرف السادة، أما البيت الآخر فيؤدى إلى فناء وإلى الجراج والإصطبل، يوجد أيضا مطحن

ومعاصر العنب ومخازن الغلال حيث يحفظ الزيتون لحين طحنه، ومخازن لحفظ الزيت وعصير العنب ونبيذ التخزين والعرقى المستخرج من قصب السكر والخل في مكيالات كبيرة، وقباء الخمر حيث توجد براميل النبيذ الجيد المعتّق. هذا المنزل الثانى أو الذى هو جزء من المنزل، بالرغم من أنه وسط تعداد من عشرين أو خمسة وعشرين ألف نسمة، يدعى بالمنزل الريفى. هناك، فى المساء، يجتمع الخولى ورؤساء العمال والبغالون والعمال الرئيسيون ومعظم المخلصين فى خدمة صاحب المنزل، يجتمعون هناك بالمساء، فى الشتاء، حول مدفأة ضخمة فى مطبخ كبير، وفى الصيف، فى الهواء الطلق، وفى بعض الغرف المتجددة الهواء والباردة، يستريحون ويتسامرون إلى أن يتجمع السادة.

تصورت أنطونيونا أن الحوار والاعتذار الذى تريد أن يأخذ مجراه بين دون لويس وطفلتها يتطلب الهدوء وألا يقاطعهما أحد، لذلك حددت هذا المساء، الزاخر بسهرة عيد القديس يوحنا، حيث تقام احتفالات فى مناطق كثيرة بإسبانيا، حيث تكون الشابات الخادمات فى منزل ببيتا فى عطلة من جميع الأعمال والمهام، فيذهبن للهو فى المنزل الريفى، يلقين العمال ويرقصن وينشدن الأغانى الشعبية والموشحات، ويقرعن الصاجات ويتقافزن ويمرحن.

بهذه الطريقة يظل منزل ببيتا خاليًا تقريبًا وصامتًا، دون أحد من السكان غيرها وأنطونيونا، كل ذلك كان مناسبًا جدًا لما يتطلبه

ذلك الذى أعدت له أنطونيونا من وقار ومهابة ودعة، والذى ربما يتوقف عليه، يقيناً، مصير شخصين.

بينما كانت أنطونيونا تدمدم وترتب فى عقلها كل هذه الأشياء، دون لويس من ناحية أخرى ظل وحيدًا، ندم على أنه تصرف بخفة ولأنه كان ضعيفًا حين منح أنطونيونا وعدًا بإتمام هذه المقابلة التى طلبتها منه. دون لويس توقف عند اعتباره أن حالة أنطونيونا هذه بدت له أكثر شرًا من شرور إنونى وثيليستينا القوادة. [1] رأى أمامه كل الخطر الذى عرض نفسه له طوعًا، ولم ير أى ميزة فى التحفظ أو فى إخفاء زيارة الأرملة الجميلة على الجميع. يذهب ليراها لكى يضعف أمامها ويقع مرة أخرى فى شباكها، مخيبًا بذلك آماله وطموحاته، وساخرًا من حكمته ومخطئًا فى حق الأسقف الذى أوصى بطلب إعفائه، وحتى فى حق كبير الأساقفة الذى خوّل له أن يصبح رجل دين، بدا له ذلك كله وصمة عار. بالإضافة إلى أن ذلك خيانة لوالده، الذى أحب ببيتا وكان راغبًا فى الزواج منها. يذهب ليراها ويخيب ظنها أكثر، كان أقصى ما يتصور أن يتفنن فى الرحيل دون أن يقول شيئا. مترددًا ومدفوعًا بهذه الأسباب ، أول شيء فكر فيه دون لويس هو عدم الذهاب حسب الموعد، دون اعتذار

[1] إينون Enone أمين سر فيدرا يوريبيدس ورلسين. ثيليستينا (١٤٩٩) عمل إسبانى شهير.

ولا إخطار، وأن أنطونيونا ستنتظره سدى عند المدخل أو ستنتظره دون جدوى.

لكن أنطونيونا ستخبر سيدتها بالزيارة، وهو بذلك لن يخطئ في حق أنطونيونا فحسب، بل في حق ببيتا أيضا، ويذهب ، بطريقة فظة لا يمكن وصفها.

فكر حينئذ في كتابة خطاب رقيق وحنون ومتعقل لببيتا يعتذر لها عن عدم الذهاب، ويبرر موقفه ويعزيها ومظهرًا شعوره الرقيق نحوها، إذ إنه يرى التزاماته نحو السماء قبل أى شيء، ومحاولا حثها كي تفعل بنفس النصيحة التي اتبعها.

كتب الخطاب أربع مرات أو خمسًا. لطخ بالحبر أوراقًا كثيرة، ومزقها في الحال، الخطاب لم يخرج أبدًا على هواه. كان كل خطاب جافًا، باردًا، متحذلقًا، مثل خطبة أو موعظة المدعي، استنتج من مضمونه خوفًا صبيانيًا غريبًا، كما لو كانت ببيتا مخلوقًا خرافيًا سيلتهمه سريعًا؛ فضلاً عما كان بالخطاب من عيوب أخرى. خلاصة القول، لم يكتب الخطاب، بعدما استهلك كمًا من الأوراق في محاولاته. لا يمكن الطعن في هذا القرار- قال دون لويس لنفسه- لقد لعب النصيب دوره. الشجاعة، ثم الذهاب إلى هناك.

انتعش روح دون لويس بالأمل في أنه سوف يظهر هدوءًا كبيرًا، وأن الله سوف يضع على شفتيه فيضًا من البلاغة، لكي

يستطيع إقناع ببيتا، الطيبة جدا، بأن عليها هي نفسها أن تدفعه لإتمام غرضه الديني، مضحيًا بالحب الدنيوي، متشبهةً بالقديسات كافة واللائي لم يتخلين عن الارتباط بخطيب أو حبيب فحسب؛ بل عن ارتباطهن بأزواجهن، فعشن معهم مثل أخوات لهم، كما في حالة القديس إدوارد، ملك إنجلترا.

وبعدما فكر دون لويس في هذا، أمسى أكثر اطمئنانا وأكثر حماسة، وتصور أنه سوف يكون مثل القديس إدوارد، وببيتا ستكون مثل الملكة إديث، امرأته، وعلى شاكلة وحالة هذه الملكة، عذراء وزوجة، هكذا تبدت له ببيتا، أكثر لطفًا، أكثر رشاقة، أكثر شاعرية.

مع ذلك، لم يكن دون لويس متأكدًا تمامًا أو واثقًا من أنه سيكون رابط الجأش مثل القديس إدوارد. بل مازال يجد في هذه الزيارة جرمًا سيرتكبه في حق والده، الذي لا يعلم بهذه الزيارة، وكان على وشك أن يوقظه من نومه ويكشف له عن كل شيء. نهض من مقعده مرتين أو ثلاث مرات، يهب للبحث عن والده ثم يتوقف، ويعتقد أن البوح بذلك حقارة من جانبه، يعتقد أنه كلام صبياني مخجل. في وسعه أن يبوح بأسراره، لكن أن يبوح بالذي بينه وبين ببيتا، لكي يضع كل ذلك أمام والده، كلا. ما أقبح ذلك. كل قبيح وكوميدي وبائس أيضا في هذا الفعل كان يطرد في نفسه، مدركًا خوفه من ألا يكون بالقوة الكافية كي يتحمل ذلك، فسكت دون لويس ولم يبح لوالده بشيء.

بل أكثر من ذلك. لم يكن يشعر على الأقل بطلاقة لسانه أو بالثقة المناسبة كي يقول شيئًا لوالده عن هذه الزيارة السرية. كان في الوقت نفسه مضطربًا وغاضبًا بسبب العواطف المتناقضة التي تتنازع نفسه، ولم يسع في الغرفة بل كأنما يقفز أو يطير، يطوف الغرفة في ثلاث خطوات أو أربع، يخشى أن تصطدم رأسه بالحائط. أخيرا، كان عليه أن يترك الشرفة مفتوحة لأن الجو صيف، ويبدو كأنه سيختنق هناك لنقص الهواء، وأن السقف يمر من فوق رأسه، ولكي يتنفس يحتاج إلى الغلاف الجوي بأكمله، ولكي يمشي يحتاج إلى كل الأماكن، دون حدود، ولكي يرفع جبينه ويتنفس الصعداء ويرتب أفكاره، لا بد ألا يكون فوق رأسه سوى قبة السماء العريضة.

مستفزًا من هذه الحالة، أخذ قبعته وعصاه، وذهب إلى الشارع سريعًا، هناك في الشارع، هاربًا من كل شخص معروف، وباحثًا عن الوحدة، خرج إلى الريف، ودخل أحد المتنزهات الأكثر انزواءً وخصوبة، به بساتين وطرق تحيط بالبلاد وتجعل من ضواحيه جنة في نصف قطر من أكثر من ألف وسبعمائة وثمانين مترًا.

حتى الآن لم نتحدث كثيرًا عن صورة دون لويس، نعلم، إذن، أنه كان شابًا طيبًا بكل مقاييس هذه الكلمة: طويل القامة، خفيف الظل، مهندما، ذا شعر أسود، وعينين سوداوين أيضا، متأججتين باللهيب والعذوبة في آن واحد، قمحي البشرة، أسنانه بيضاء، شفتيه رقيقتين رغم بروزهما، مما يعطيه مظهرًا أنيقًا، وشيئًا من الجرأة

والرجولة فى كل المواقف، مع الانطوائية والوداعة الدينية التى يتحلى بها. يوجد أخيرًا فى سلوك وملامح وجه دون لويس طابع كرم أصيل وميزة لا توصف، يبدو ذلك دائمًا علمًا بأن هذه ليست دائما ميزة مقصورة أو تخص العائلات الأرستقراطية وحدها.

عند رؤية دون لويس يجب الاعتراف بأن بيبيتا خيمنيث كانت عليمة بالجمال بالفطرة. فى تلك الأثناء، كان دون لويس يركض بدلاً من أن يمشى فى تلك الطرقات، يقفز فوق برك الماء فى الشارع، لا يكاد يلتفت إلى الأشياء مثل من لسعه دبور. الريفيون الذين قابلهم فى طريقه، والبستانيون الذين شاهدوه يمر ربما اعتقدوا أنه مجنون.

جلس على حافة صليب من الحجر إلى جانب خرائب أحد أديرة سان فرانسيسكو دى باولا، متعبا من كثرة المشى دون هدف، وكان هذا الدير يبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن الضيعة، وهناك استغرق فى تأملات جديدة، لكنها غامضة لدرجة أنه هو نفسه لم يكن يدرك تمامًا ما الذى يفكر فيه.

كان قرع الأجراس – الذى اخترق الهواء ووصل إلى تلك الأماكن الموحشة – ينادى المؤمنين للصلاة، ويذكرهم بتحية الملاك للعذراء القديسة، كل ذلك جعل دون لويس يفيق من غيبوبته ويعود إلى عالم الواقع.

بدأت الشمس تختفى خلف أطراف الجبال القريبة الشاهقة لتبرز أهرامات ومسلات القمة على خلفية من اللون الأحمر الياقوتى، هكذا كانت تبدو السماء عسلية اللون عند شمس الغروب. بدأ الظلام ينتشر فوق الريف، وفى الجبال المقابلة للجبال التى تختفى وراءها الشمس، توهجت الصخور القائمة، كما لو كانت ذهبًا أو زجاجًا تحول إلى جمر.

زجاج النوافذ والأسوار البيضاء لمعبد للعذراء راعية المكان، الموجود على ربوة أخرى على هضبة مرتفعة، وكذلك معبد آخر صغير أو كنيسة صغيرة على ربوة أخرى قريبة من المكان تسمى كالباريو، كانت لا تزال تشع مثل مصباحين منقذين، مجروحين بالشعاع الأخير المائل للشمس المحتضرة.

كانت الطبيعة توحى بقصيدة حزينة، ومع الموسيقى الصامتة التى يمكن للروح سماعها، كأن كل شىء يسبح للخالق. اللحن البطىء للأجراس وغير المسموع تقريبا من بعيد لم يكدر سكينة الأرض، يدعو للصلاة دون أن يصرف الحواس بطنينه. خلع حينئذ دون لويس القبعة، خر راكعا بالقرب من الصليب الذى استخدم أسفله مقعدًا للجلوس، وأقام صلاة "السلام الملائكي" بورع شديد.

خيم ظلام المساء على الميدان سريعا، لكن الليل عندما بسط معطفه وغطى به تلك المناطق، راقه أن يزين المكان بنجوم أكثر

وميضًا، وبقمر أكثر وضوحًا وبقبة السماء الزرقاء، ولم يبدل لونها السماوى إلى أسود. احتفظت بزرقتها رغم أنها أكثر قتامة. كان الهواء شفافًا جدًا وناعمًا فترى الألوف والألوف من النجوم تبرق فى الفضاء دون حدود. كان القمر يكسو أعالى الأشجار باللون الفضى وينعكس على صفحة الجداول التى كانت تبدو كالسائل المضىء والشفاف، حيث تتشكل ألوان الطيف وتتغير كالأوبال. كانت البلابل تغرد بين غابة الأشجار. وتنشر الحشائش والأزهار عطرًا طيبًا. وتلمع ديدان مضيئة بين الحشائش الرقيقة والزهور الريفية مثل الماس أو الياقوت على شواطئ السواقى، وترسل ضوءًا وفيرًا لا حصر له من خيوط ذهبية اللون. لا توجد هناك حشرات مثل اليراعات، بيد أن تلك الديدان المضيئة فى كل مكان ولها بريق غاية فى الجمال. الفواكه، لا تزال فى زهرتها، ويكثر أيضا شجر الصمغ وشجر الورد فيعطر الجو وينفحه رائحة ذكية وناعمة. جلس دون لويس فى هذا الجو هائمًا مفتونًا، وخاضعًا لتلك الطبيعة الشهوانية، شك فى نفسه. ومع ذلك، كان من الواجب عليه أن يفى بكلمته لأنطونيونا ويذهب إلى المقابلة.

على الرغم من تجوله بالمكان لفترة طويلة، على الرغم من أنه أخذ يطوف بطرق أخرى، على الرغم من أنه تردد عدة مرات قبل الذهاب إلى نافورة النهر، حيث يتدفق تيار مياة غزيرة وشفافة

من جمرة على حافة الجبل التى تروى البساتين، وهو مكان مبهج، اتجه دون لويس نحو القرية بخطى بطيئة ومتأنية.

أخذ يقترب مقتنعا بذلك، كان الرعب يزداد بداخله، مما قرر أن يفعله. توغل بين الغصون الأكثر إعتامًا، مشتاقًا إلى رؤية أى معجزة، أو إشارة تقنعه بالعدول عن ذلك. كان دائمًا يتذكر الطالب ليساردو، وكان مشتاقًا لرؤية جنازته[1] لكن السماء كانت تبتسم بآلاف الأضواء وتدعو إلى الحب، كانت النجوم تنظر بالحب؛ الواحدة إلى الأخرى. وكانت البلابل تغرد فى حالة حب، حتى صرار الليل، أزيزه الطنان يهز المكان بحب، غناء شاعر العصور الوسطى الشعبى على الربابة، عندما يعزف لحنًا. الأرض بأكملها تبدو مستسلمة للحب فى هذا المساء الهادئ والجميل. لا توجد علامة، لا توجد إشارة، لا يوجد موكب جنائزى: كل شىء يدعو للحياة، وللسلام، وللبهجة. أين كان ملاكه الحارس؟ هل ترك دون لويس يائسًا منه أم أنه قدر ألا خطر هنالك على الإطلاق من أن يحيد عن هدفه الدينى؟ من يدري! ربما يأتى النصر من ذلك الخطر. القديس إدوارد والملكة إديث ظهرا من جديد فى مخيلة دون لويس وشدا من أزره. مفتونًا بهذه التأملات تأخر دون لويس فى العودة، كان لا يزال

---

[1] "الطالب ليساردو": هنا يشير باليرا إلى إحدى روايات "وحدة الحياة وخيبة أمل العالم" (١٦٥٨) لكريستوبل لوثانو (Cristobd Lozano) بعنوان الطالب ليساردو. ونجد نفس الشخصية عند الإسبانى إسبرونثيدا: دون فيلكس فى "طالب سلامنكا" (١٨٤٠).

على مسافة من القرية عندما دقت العاشرة، موعد اللقاء، في ساعة الكنيسة. الأجراس العشرة كانت مثل عشر ضربات تجرحه في قلبه. هناك ألم يوجعه حقيقة، وبالأخص ألم وفزع مختلط باضطراب خادع وبعذوبة ناعمة.

أسرع دون لويس الخطى كي لا يصل متأخرًا جدًا، وسريعا ما بلغ البلدة. كان المكان مزدحمًا جدًا، وكانت الفتيات في سن الزواج يأتين إلى نهر الإيخيدو ليغسلن وجوههن تبركًا لكي يمكثن مخلصات لخطيبهن، أو من أجل أن يرزقن بخطيب. نساء وأطفال من هنا وهناك عائدون ليقطفوا زهورًا مختلفة الألوان، وسعفًا وغصونًا من إكليل الجبل، أو نباتات أخرى، ليصنعوا منه بخورًا ساحرًا. القيثارات تشدو بالألحان في كل مكان، مناجاة الحب والأزواج السعيدة والمولعة تسمع في كل لحظة. إنه مساء وصباح عيد القديس يوحنا، فبالرغم من أنه احتفال ديني يحتفظ – لا ندرى كيف – بعادات وثنية قديمة، ربما يكون مرد هذه العادات الاحتفال بانقلاب الشمس الصيفي.

كل ذلك كان دنيويًا وليس دينيًا، كان كل ذلك حبًا وغزلاً. مثلما كان في رواياتنا الرومانسية القديمة والأساطير؛ دائما يخطف المسلم حبيبته المسيحية الجميلة، وكان الفارس المسيحي ينال رغبته دائما مع أميرة مسلمة. في هذا اليوم، في القرية يخيل لك أن التقاليد

الرومانسية القديمة مازال يحتفظ بها فى صباح ومساء عيد القديس يوحنا.

كانت الشوارع مزدحمة بالناس، خرجت القرية عن بكرة أبيها، فضلاً عن الأجانب، وتسببوا - فى الوقت نفسه - فى عرقلة التنقل، بسبب كثرة موائد الحلوى والحمص المحمص وأماكن الفاكهة ومحلات العرائس واللعب، فى المحلات التجارية كلها، وحيث تقوم الشابات الغجريات والعجائز بقلي العجائن، فيختلط الهواء برائحة الزيت، ثم يقدمن الكعك المقلى ويزنّه، يجبن أيضا بلطف على مغازلة وجهاء الرجال الذين يمرون بالمكان ويقرأن لهم الطالع.

كان دون لويس يحاول تجنب لقاء الأصدقاء، وإذا رآهم عن بعد ينتقل إلى الجانب الآخر. هكذا وصل شيئًا فشيئًا، دون أن يحدثوه أو يستوقفوه، حتى وصل بالقرب من مدخل منزل بيبيتا. بدأ قلبه يخفق بشدة، وتوقف برهة لتهدئته. نظر إلى الساعة. كانت تقترب من العاشرة والنصف.

ربنا يستر - قال فى نفسه - إنها تنتظرنى منذ أكثر من نصف الساعة.

حينئذ، تعجل واخترق المدخل. كان المصباح الذى يضيئ كل يوم ضعيفًا ذلك المساء. ما إن ولج لويس المدخل أمسكته يد، أو - بمعنى أصح - مخلب، من ذراعه اليمنى. كانت أنطونيونا، قالت له

بصوت خافت: إنك تلميذ إبليس، خسيس وتافه، غبى، لقد تصورت أنك لن تأتى أبدًا. أين كنت أيها الثقيل، تجرؤ على التأخير، متأنيًا هكذا كلوح الصبار. هل كنت تنتظر عندما يتلاشى ملح الأرض الصخرى من أجلك، وشمس الحس تنتظرك؟

بينما كانت أنطونيونا تعبر عن استيائها من تأخيره، لم تكن واقفة، بل كانت تمشى ومن خلفها - ممسوكًا من ذراع دائمًا- التلميذ، مفزوعًا وصامتًا. فتحت باب السياج الحديدى وأغلقت أنطونيونا بحذر ودون ضوضاء، اخترقا الفناء وصعدا الدرج، جاوزا بعد ذلك عدة ممرات وصالتين وبلغا باب المكتب الذى كان مغلقًا.

ساد البيت صمت مذهل. كان المكتب فى الداخل ولم تصله ضوضاء الشارع، فقط يصل إليه رنين الصاجات ولحن القيثارة وهمس خفيف، كل ذلك بسبب لهو خدم ببيتا فى المنزل الريفى، بالرغم من أنه غير واضح.

فتحت أنطونيونا المكتب، دفعت دون لويس كى يدخل، وفى نفس الوقت أعلنت:

- ببيتا، لديك هنا دون لويس، الذى حضر ليودعك.

أعلنت الخبر بجدية واجبة، انصرفت أنطونيونا الكتوم من الصالة، تاركة الضيف والشابة على راحتهما وعادت لتغلق الباب.

عند الوصول إلى هذه النقطة لا نستطيع على الأقل إلا أن نلاحظ سمة الصدق على القصة التى أمامنا، ونعجب لدقة الشخص الذى ألفها. فلو أن شيئًا مختلقًا بها، مثلما فى رواية ما، لكان اختار، فى سفر أخبار الأيام هذا، بلا شك، وسائل أخرى أقل ابتذالاً للتحضير للقاء على هذا القدر من الأهمية كلقاء ببيتا ودون لويس، كأن يقوم بطلانا برحلة ريفية جديدة، وتفاجئهما عاصفة شديدة ومخيفة، ويضطرا إلى اللجوء إلى قصر قديم أو برج إسلامى، يجب أن يكون مشهورًا بأنه حصن تظهر فيه أشباح أو أشياء من هذا القبيل. أو ربما يقعان فى أيدى بعض عصابات قطاع الطرق ثم يلوذان بالفرار بفضل هدوء وشجاعة دون لويس، ويحتميان، أثناء الليل، ودون أن يتمكنا من تجنب وجودهما بمفردهما، فى أحد الكهوف أو المغارات. وربما، أخيرا، يكون المؤلف قد رتب العمل بحيث تضطر ببيتا والمعجب الولهان إلى القيام برحلة فى البحر، وبالرغم من أنه الآن لا يوجد قراصنة أو قطاع طرق جزائريون، ليس من الصعب اختلاق قصة غرق جيدة، يكون دون لويس قد أنقذ فيها ببيتا وحملها معه إلى جزيرة مهجورة، أو إلى مكان آخر شاعرى ومنعزل. أىّ من هذه الحيل كان سيمهد - بفنية أكبر - للحوار العاطفى بين الشابين ويبرر على نحو أفضل موقف دون لويس. ومع ذلك، نعتقد أننا بدلا من انتقاد المؤلف لأنه لم يلجأ لمثل هذه التعقيدات، من المناسب أن نشكره لالتزامه الأدبى، لعمله المتقن،

مضحيا من أجل صدق الرواية بالأثر العجيب الذى يخلفه إذ تجرأ على زخرفتها بوقائع وفصول من وحى خياله.

إذا لم يكن هناك غير من فضول أنطونيونا ومهارتها، إذا لم يكن هناك غير ضعف دون لويس وقبوله حضور اللقاء، فيم إذن افتعال الأكاذيب أو جر العشيقين بحتمية القدر إلى اللقاء والحديث وحدهما، فى وجود خطر كبير على فضيلتهما ونزاهتهما؟ لا شىء من هذا. هل كان تصرف دون لويس سليمًا أم مخطئًا حين قبل حضور اللقاء؟ هل ببيتا خيمينيث - التى قالت لها أنطونيونا إن دون لويس قد أتى لرؤيتها من تلقاء نفسه - فعلت خيرًا أو شرًا فى فرحتها بتلك الزيارة الغامضة شيئًا وذات التوقيت غير المناسب؟ لا نلقى بالذنب على الظنون بل على الشخصيتين أنفسهما اللتين تظهران فى هذه القصة، وعلى ما تكنان من مشاعر.

نحن نحب ببيتا، لكننا نحب الحقيقة قبل أى شيء. فى تمام الساعة الثامنة ذكرت لها أنطونيونا أن دون لويس سوف يأتى، وببيتا، التى كانت تتحدث عن الموت حزنًا، التى كانت عيناها محمومتين، وجفونها ملتهبة بعض الشيئ من البكاء، وكان شعرها غير مصفف، لم تفكر منذ ذلك الحين فى شيئ من هذا، بل فى أن تتزين وتستعد لاستقبال دون لويس. غسلت وجهها بماء فاتر من أجل أن يختفى أثر البكاء، حتى لا تظهر قبيحة المنظر، وليس من أجل أن تزيل أثر البكاء، مشطت شعرها بحيث لا تبدو أنها أسرفت فى

العناية به، بل لتظهر شيئًا من الإهمال المحسوب، وإلا لظهرت بمظهر غير لائق. شذبت أظافرها، ولما كانت لم تعتد استقبال دون لويس بملابس المنزل، ارتدت ثوبًا بسيطًا للمنزل. باختصار، رتبت غريزيًا كل تفاصيل زينتها بحيث تبدو أكثر جمالاً ونظافة، ودون أن يستشف هو أقل دليل على اهتمامها بنفسها أو على الوقت الذى قضته فى ذلك، بل لكى تبدو مشرقة بشكل طبيعى وكأنه هبة غير مصطنعة، أمر ثابت ودائم فيها رغم نسيانها نفسها بسبب تأجج مشاعرها.

طبقًا لما توصلنا إليه، قضت ببيتا أكثر من الساعة فى هذه الأعمال أمام منضدة الزينة. بعد ذلك قامت بعمل اللمسات الأخيرة، ونظرت للمرآة باقتناع ماكر. وأخيرًا، فى حوالى الساعة التاسعة والنصف، أخذت الشمعدان أسفل إلى الصالة، حيث توجد صورة المسيح طفلاً. أشعلت أولاً شموع الكهنوتية التى كانت مطفأة، رأت بشىء من الألم أن الزهور الموجودة ذابلة، طلبت المغفرة من الصورة النقية لأنها أهملتها لوقت كبير، وجلست على الأرض راكعةً بمفردها، تضرعت من كل قلبها وبتلك الثقة والصراحة؛ أن يوحى بها من هو ضيف فى منزل منذ سنوات طويلة. لم تكن ببيتا لتتوجه إلى مسيح الناصرة والصليب على عاتقه وتاج الشوك على رأسه، أو إلى صورة "هو ذا الرجل" مهانًا ومضروبًا بالسياط، بعصاه كأنها صولجان وهمى وحبل خشن يقيد يديه، أو إلى صورة المّسيح على

الصليب، داميًا ومحتضرًا، لم تكن ببيتا لتجرؤ على الطلب الذى طلبته من يسوع وهو لا يزال رضيعًا باسمًا، مفرحًا، جميلاً صحيحًا. طلبت منه ببيتا أن يترك لها دون لويس وألا يأخذه منها، لأنه غنى جدًا وعنده اكتفاء من كل شيئ ولا ينقصه أى شيئ، ويستطيع دون تضحية الاستغناء عن ذلك العبد ويتنازل عنه لها.

بعد الانتهاء من هذه الاستعدادات، التى يمكن تقسيمها إلى: تجميلية ومختصة بالأزياء ودينية، مكثت ببيتا بغرفة المكتب تنتظر حضور دون لويس بفارغ الصبر.

لم تحد أنطونيونا عن جادة الصواب حين أبلغت ببيتا بنبأ حضور دون لويس قبل موعد وصوله بقليل. مع ذلك، وبسبب تأخر البطل، كانت ببيتا المسكينة فى طريقها إلى الانهيار، نهبًا للتوتر والضيق، منذ انتهائها من الصلاة والتضرع إلى يسوع الطفل، إلى أن رأت الطفل الآخر داخل حجرة المكتب.

بدأت الزيارة بأشد الطرق وقارًا وتكلفًا، تبادلا التحية بصيغة تلقائية واتخذ دون لويس الضيف مكانًا له على الأريكة، دون ترك القبعة والعصا، وعلى مسافة ليست قصيرة من ببيتا. وكانت ببيتا جالسة على الأريكة وبجانبها منضدة عليها كتب وشمعدان ينير ضوؤه وجهها. يوجد فوق المكتب مصباح مضيئ أيضا، بالرغم من كل ذلك، ولأن الغرفة كانت مساحتها كبيرة، كلا الضوءين لم يحولا

دون أن يظل جزء كبير من الغرفة في شبه ظلام. بسبب الحر فتحت نافذة كبيرة مطلة على حديقة داخلية صغيرة، وفيما كانت قضبان الشرفة مثل لحمة نسيج من الزهور المتسلقة والياسمين، كان شعاع القمر يضيء من بين الخضرة والزهور فاتحا طريقا بينها، ومخترقا المكان، يريد منازلة ضوء المصباح والشمعدان. بالإضافة إلى ذلك، تخترق الضوضاء البعيدة والغامضة من منزل الريف نافذة البستان التي كانت في الطرف الآخر، ورتابة صرير المياه الآتية من النافورة التي كانت بالحديقة الصغيرة، وعطر الياسمين والزهور التي تكسو النافذة اختلط بما في الإصيص ونباتات أخرى كانت تزين أحواض الزهور أسفلها.

مرت لحظة تمهل، صمت من الصعب تحمله، ومن الصعب أيضا انكساره. لم يجرؤ أحد من المحاورين على الكلام. في الواقع كان الموقف محرجا للغاية حينئذ، سواء لهما لكي يعبرا عن مشاعرهما، أو لنا الآن ونحن نحاول استعادة ما عبرا عنه. إنها مغامرة صعبة، لكن ليس بوسعنا إلا التصدي لها. فلنتركهما يفصحان عما بأنفسهما ولننقل كلماتهما حرفيًا. قالت ببيتا:

- أخيرًا تكرمت بالحضور لتوديعي قبل رحيلك. كنت قد فقدت الأمل في ذلك.

الدور الذى كان دون لويس يلعبه يحتاج إلى إصرار كبير، ومن ناحية أخرى، فإن الرجال، غير المبتدئين فى الترهب، بل حتى المحنكين والمدربين على مثل هذه الحوارات، اعتادوا الوقوع فى تفاهات عند الحديث. لا يتهم إذن لويس لأنه بدأ بإجابات تافهة.

- شكوى سيادتك غير عادلة – قال – لقد كنت هنا مع والدى، لتوديعك، ولما لم يحدث لنا الشرف ونحظى بشرف استقبالك تركنا بطاقةً. لقد ذكروا لنا أنك متوعكة بعض الشيء، وكنا نرسل كل يوم للسؤال عنك، كان لنا عظيم الرضا عندما علمنا أنك أحسن الآن. وهل أنت أحسن حالاً الآن؟!

- لا أستطيع تقريبا أن أقول لك إننى بخير – أجابته بيبيتا–، ولا أريد أن أضايق صديقًا ممتازًا، من الإنصاف أن أقول لك، كى تخبر والدك، إننى أشعر بتحسن كبير. من الغريب أنك أتيت وحدك، لابد أن دون بدرو مشغول جدا لأنه لم يصاحبك.

- والدى لم يصحبنى، سيدتى، لأنه لا يعلم أننى أتيت لرؤيتك. لقد أتيت وحدى، لأن توديعى لك يجب أن يكون رسميًا رزينًا، لأنه ربما يكون للأبد، والدى سيعود إلى هنا فى غضون أسابيع، أما أنا فمن المحتمل ألا أعود أبدا، وإذا عدت، سوف أعود مختلفًا تمامًا عما أنا فيه الآن.

لم تستطع ببيتا كبت مشاعرها. المستقبل السعيد الذى كانت تحلم به تلاشى مثل الظل. فإصرارها الذى لا ينكسر على قهر هذا الرجل مهما كلفها الأمر، الرجل الوحيد الذى أحبته فى الحياة، الوحيد الذى شعرت أنه يستحق حبها، كان إصرارًا بلا جدوى. دون لويس سيرحل. وشباب ببيتا وملاحتها وجمالها وحبها لم يعد ذا نفع. كان مصيرها - وهى فى العشرين من عمرها وهى على هذا الجانب الكبير من الجمال - الترمل الدائم والوحدة وحب من لا يحبها. إن حبًا آخر كان بالنسبة لها مستحيلاً. ومزاج ببيتا، التى كلما تفاقمت الصعاب اشتعلت رغبة، التى كانت بقرار واحد تتخذه وتصر عليه، تكتسح كل شيء من أجله حتى تحققه، بدت حينئذ فى أوج عنفوانها وبلا رادع. كان لزامًا عليها الموت أو الانتصار لمطلبها.

لا الاعتبارات الاجتماعية ولا العادات المتأصلة فى هذا المجتمع لإخفاء وحجب المشاعر التى تكتسب فى هذا العالم الكبير، والتى تضع حدًا لاحتدام العواطف، وتغلف فى نسيج من الحرير الشفاف وتذيب أشد انفجارات العواطف المكبوحة، ولا الجمل المبهمة فى مواربة الحديث، لا شيئ من ذلك كان مجديًا مع ببيتا التى كانت علاقاتها مع الناس محدودة، وكانت لا تعرف الحلول الوسط، لا تعرف سوى الطاعة العمياء لوالدتها، ولزوجها السابق، وتأمر بعد ذلك سائر البشر باستبداد. هكذا تحدثت ببيتا فى تلك المناسبة، وأظهرت ذلك بعفوية من تلقاء نفسها، مع كم الولع الذى بداخلها،

وأخذت شكلاً في كلماتها التي لم تسعفها لكي تغلف أفكارها وأحاسيسها، بل لكي تعطيها شكلاً. لم تتحدث كما لو كان من المفروض أن تتحدث سيدة من صالوناتنا، ببعض التوسلات ولطيف العبارات، بل بطريقة رعوية عارية، تمامًا كما كان يتحدث دافنس لكلوى. (١)

قالت ببيتا:

- أمصر أنت إذن على المضي نحو هدفك؟ هل أنت متأكد من دعوتك للرب؟ ألا تخشى أن تكون راهبًا سيئًا؟ سوف أبذل مجهودًا، سوف أنسى للحظة واحدة أنني فتاة فظة، سوف أتخلى عن كل المشاعر وأتروى كما لو كانت هذه المشكلة غريبة عني، أو ليست لها صلة بي. توجد هنا أمور من الممكن شرحها بطريقتين: في كلتيهما لن يكون الأمر في مصلحتك. سوف أوضح

---

(١) دافنس وكلوى (Dafnis y Cloe) هم أبطال رواية دي لونجودي ليسبوس (De Longo de lesbos) رواية يونانية، يبدو أنها كتبت في القرن الرابع، وكما نعلم أن خوان باليرا مؤلف ببيتا خيمينث قد قام بعمل ترجمة قيمة جد للإسبانية لهذه الراوية. دافنس هو راع يعيش مع والديه بالتبني، اللذين قد خطفوا منذ طفولته من داخل الغابة. كلوى من جانبها، هي راعية كانت موجودة أيضا في إحدى المغارات في ظروف مماثلة. الشخصيتان تعيشان في ليسبوس، يخرجان معا لرعي الماشية، وفي هذا المرعى الرعوي يعيشان قصة حب، يمران ببعض الفصول الثانوية إلى أن ينتصرا على العوائق التي تعترض زواجهما، ويجتمعا بعد ذلك للأبد.

لك تفكيرى. لو أن المرأة التى بمغازلتك لها، دون أن تنطق كلمة واحدة، وبعد أيام قليلة من رؤيتها والتعامل معها، تمكنت من إثارتك وحركتك للنظر إليها نظرة تنبئ بحب دنيوى، إلى أن نالت أو حصلت منك على علامة حب أو إشارة حنان، وهو ما يعتبر سقطة، ما يعد ذنبًا أو معصية فى كل حال، وبالأخص عندما يكون هذا السلوك من راهب مثلك، لو كانت هذه السيدة، مثلما هى فى الواقع ريفية عادية بلا ثقافة أو موهبة أو رشاقة، ما الذى يجب أن تخافه منك عندما تتعامل وتزور فى المدن الكبيرة سيدات أخريات أخطر بكثير؟ ألن يصيبك الجنون عندما ترى وتتعامل مع السيدات العظيمات اللائى يقطن القصور ويسرن على بسط بديعة، ويبهرن بالماس واللؤلؤ ويرتدين حريرًا ودانتيلا وليس نسيجًا من القطن والموسلين، اللاتى يكشفن عن رقابهن النواصع الرائعة، ولا يغطينها بمنديل متواضع وسوقى، البارعات فى النظر والتأثير، اللاتى يسرن بموكب من البذخ والأبهة ممن حولهن. هن على الدوام المرغوبات لأنهن فى ظاهر الأمر بعيدات المنال، الفصيحات فى السياسة والفلسفة والدين والأدب، اللاتى يغردن مثل الكروان، اللاتى كأنهن ملفوفات بشال معطر بشغف شديد وخضوع، فوق تمثال النصر، المؤلهات بالصيت والسمعة بألقابهن المشهورة، يتصدرن قاعات مذهبة أو يحتجبن فى مخادع شهوانية، لا يدخلها إلا المحظوط على هذه الأرض، وربما من ذوى الألقاب

النبيلة، يناديهن المقربون وحدهم بأسمائهن، ببيتا، أنطونبيتا، أنخلينا، وهن بالنسبة للآخرين صاحبة السعادة الماركيزة، أو صاحبة السعادة الدوقة... إلخ، لو أنك تخليت عن امرأة ريفية فظة، التقيت بها عشية اليوم السابق، بكل الحماسة الواجب افتراضها، لو تركتها بعد ذلك مدفوعا بنزوةٍ زائلة، أو لست على حق لو تنبأت بأنك ستكون رجل دين مكروهًا، بغيضًا دنيويًا ودنيئًا، وبأن قدمك ستذل في كل خطوة؟ في هذا الافتراض ومن هذا المنطلق صدقني، ولا تشعر بالإهانة، أنت لا تستحق أن تكون زوجًا لسيدة شريفة. إذا كنت ضغطت على يد امرأة، برغبة شديدة وحنان، مثلما يفعل الحبيب الأكثر ولعًا، وإذا كنت نظرت بنظرات تتعهد للسماء بحب خالد، وإذا كنت قبلت امرأة لا تلهمك شيئًا إلا لحاجةٍ ما، ليس لها اسم يقال، اذهب، وكن مع الله، ولا تتزوج من هذه المرأة. لو كانت هذه السيدة امرأة شريفة لن ترضى بك زوجًا لها، ولا حتى عشيقًا، لكن، أستحلفك بحب الله، لا تكن رجل دين أيضًا، لأن الكنيسة تستحق رجالاً آخرين أكثر جديه وأهلاً للفضيلة ليكونوا وزراء للخالق الأعلى. على العكس، لو كنت شعرت بعاطفة قوية نحو هذه السيدة التي تتحدث عنها، مع أنها ليست على درجة كبيرة من الوقار، لماذا تتركها وتخدعها بهذه القسوة؟ مهما كانت غير جديرة بك، لو كانت قد ألهمتك كل هذه العاطفة القوية، ألا تعتقد أنك ستتقاسم معها في ذلك وتصبح ضحيتها؟ إذن

ماذا، عندما يكون الحب قويًا وعاليًا وعنيفًا، ألا تتنازل أبدًا إزاء الضرورة؟ ألا ترى أنك تطغى وتقهر بهذه الطريقة التى لا تحتمل على الشخص المحب؟ يجب أن تقيس حبيبك حسب درجة حبك له، وكيف لا تخاف عليها لو تركتها؟ هل ترى أن لديها العزيمة القوية وأن لديها المثابرة التى تنصب فى المعرفة التى تحتويها الكتب، إن حافز المجد، وكثرة المشاريع العظيمة، التى توجد فى روحك المتمرنة على ذلك والرفيعة لكى تصرف النظر عن ذلك وتبتعد، دون شك، إن ذلك يمزق القلب. ألا تفهم أنها سوف تموت من الألم فيما اخترت أنت مهمة لعمل تضحية بلا سفك دماء، ستبدأ بتضحية بلا رحمة لأكثر الناس محبة لك؟

أجاب دون لويس ، جاهدًا فى إخفاء تأثره بهذا الحديث، ولكى لا يكشف عن قدر القلق الذى يعانى منه، لقد كان يرتجف وكان متلعثم الصوت:

- سيدتى أنا أيضًا يجب أن أتمالك نفسى كثيرًا كى أستطيع الإجابة عليك بهدوء من يفند حجة بحجة فى جدل، لكن اتهامك يقوم على المبررات والحجج (ولا تؤاخذينى لقول ذلك) وينهض على المُحاجّة الماهرة، مما يضطرنى إلى تفنيدها بمبرراتى وحججي. لم يَدُر بخلدى أن أقوم بمداخلة هنا أو أضطر إلى أن أشحذ ذكائى القاصر. لكنك تدفعيننى إلى ذلك دفعًا لكى لا أبدو مسخًا. سوف أجيب عن مبالغات هذه المعضلة القاسية التى أقمتيها لإيذائى.

ومع أنى تربيت بجوار عمى فى الدير، حيث لم أر امرأة من قبل، لا تظنى أنى جاهل فى أمور النساء أو فقير التصور أو لا أستطيع، بالتخمين، تصوير أو رسم كل ما هو جميل فى ذهنى وكل ما هو خلاب. على العكس، لقد تفوق تصورى على الواقع فى هذا كله، وقد استحثته قراءة أناشيد منشدى الإنجيل والأدباء الدنيويين، وهم يتوهمون نساء أكثر رشاقة ورقة، أكثر تميزًا عمومًا ممن هن من واقع الحياة. إذن، أنا أعرف وأقدر ثمن التضحية التى أقوم بها، وحتى هذه التضحية مبالغ فيها، عندما رفضت حب هؤلاء النسوة مفكرًا فى ارتقائى شرف الرهبنة. أعى جيدًا ما تضيفه من المتعة لسيدة جميلة الثياب من الأقمشة الفاخرة والجواهر البراقة والثقافة الرفيعة، والثروة التى تصنعها اليد، وبراعة الرجال التى لا تمل ولا تكل، أعرف أكثر من ذلك أيضا، ما يعلو بالفطرة الطبيعية ويزين ويصقل ذكاء امرأة، التعامل مع الرجال الوجهاء، ذوى الخبرة الفائقة، كذلك مطالعة الكتب القيمة. كل ذلك تصورته بكل قوة ورأيته بهذه الروعة التى ما كنت ستشكين فيها لو كنت رأيت وتعاملت مع هؤلاء النساء اللاتى تتحدثين عنهن، بعيدا عن وقوعى في حب جديد وفى الجنون الذى تصرحين به، ربما يكون الذى أواجهه هو خيبة أمل، عند رؤيتى كم تقطع المسافة بين ما هو حلم وما هى حقيقة، وبين ما هو حى وما هو مرسوم فى الخيال.

قاطعته بيبتا:

- نعم، كل ما تقوله مغالطة، كيف أنكر أن الذى ترسمه فى الخيال هو أكثر جمالاً مما يوجد فى الواقع؟ لكن كيف تنكر أيضا أن الواقع الملموس له فتنة أشد من المتخيل والحالم؟ غموض ووهم خيال أو طيف مهما يكن جميلاً لا يقارن بالذى يحرك المشاعر ماديًا. ومقابل أحلام الدنيا أفهم أن تنتصر فى نفسك الصور الورعة، لكن أخشى أن صور العبادة لا تنتصر على الواقع الدنيوى.

- إذن لا تخش شيئًا، سيدتى - أجاب دون لويس - إن أوهامى أقوى مما يعتقده الكون بأكمله، إلا أنت، فيما يخص المشاعر التى تبادلينني إياها.

- ولماذا "إلا أنا"؟ إن ذلك ليجعلنى أظن فيك ظنًا آخر. هل هى الفكرة التى أخذتها عنى، فكرة الحب، وليدة خيالك الجامح لكنها لا تنطبق فى شيئ علىّ؟

- ليس هذا، إننى أعتقد أن هذه الفكرة كلها مطابقة جدا لك، لكن ربما تكون فطرية بداخلى، ربما تكون فى نفسى منذ خلقتها يد الله سبحانه، ربما تكون جزءًا من جوهره، ربما تكون هى أكثر ما فى ذاته نقاء وغنى، مثل العطر الموجود فى الزهور.

- هذا ما كنت أخشاه وها أنت تنصح لى عنه الآن. أنت لا تحبنى. إنك تحب الجوهر فقط، العطر الأكثر نقاء من نفسك والذى اتخذ شكلاً مشابهًا لى.

قاطعها دون لويس.

- لا، ببيتا، لا تستمتعى بتعذيبى. هذا الشيء الذى أحبه هو أنت، وأنت كما أنت، لكنه جميل جدا، طاهر جدا، رقيق جدا. الشيئ الذى أحبه، الذى لا أفسره، هو أنه يمر كله بالمشاعر بطريقة فظة ويصل هكذا إلى عقلى. أفترض، إذن، وأعتقد، وأتأكد من أن ذلك كان موجودًا بداخلى من قبل. مثل فكرة الله، التى كانت بداخلى، التى أتت لتعظم وتنصهر بداخلى، ومع ذلك فإن غايتها الحقيقية أعلى وتسمو كثيرًا عن الفكرة. وكما أعتقد أن الله موجود، أعتقد أيضا أنك موجودة، وأن قيمتك أكبر ألف مرة من الفكرة التى شكلتها عنك.

- مازال عندى شك. ألا تكون المرأة عمومًا، لا أنا بمفردى وفقط أنا، التى أيقظت هذه الفكرة؟

- لا يا ببيتا، بل إن سحر المرأة وفتنتها وجمال روحها ورقة مظهرها هو ما سرى فى خيالى قبل أن أراك. لا توجد دوقة ولا ماركيزة فى مدريد، ولا إمبراطورة فى العالم، ولا ملكة ولا أميرة فى كل الدنيا، تساوى ما تساوى المخلوقات المثالية والفانتازية التى

تعايشت معها، لأنها ظهرت في القصور والمجالس البالغة البذخ والترف والذوق الرفيع والزينة المتألقة التي شيدتها في بقاع متخيلة منذ أن بلغت مرحلة المراهقة، ثم أسكنتها كل "لاورا" و"بياتريس" و"جولييت" و"مرجريت" و"ليونورا"، أو "سينثيا" أو "جليسيرا" أو "ليسبياس"[1] لقد توجتهن في ذهني بأكاليل وتيجان الأسقف الشرقي، غلفتهن بعباءة من قماش الأرجوان والذهب، وطوقتهن بأبهة كبيرة، مثل أستر وفاستي، ومنحتهن بساطة رعاة عصر الزهاد، مثل ريبيكا وأبيشج الشونمية، وعذوبة وتواضع وتعبد وورع روث، وأسمعهن يتحدثن في مثل أسباسيا وهيباتيا، معلمات الفصاحة، كنت أصعد بهن إلى مراتب عليا

وأخلع عليهن بريقا جليلا من الدم النقي والذرية الشريفة، كما لو كن عقيلات أكثر البطارقة تشامخا وشريفات من روما القديمة. وكنت أراهن طائشات، مغناجات، مرحات، مليئات بالجرأة الأرستقراطية، مثل سيدات عصر لويس الرابع عشر في قصر فرساي، وزينتهن بشيلان محتشمة، لتبعث في النفس وقارًا واحترامًا، الآن بالثياب الناعمة – دون التي من بين طياتها الهيفاء – ترسم

(١) هنا، يستعرض المؤلف ثقافته الواسعة بإشارات إلى معشوقات مشهورات: لاورا معشوقة بترارك، وبياتريس دانتي، وجولييت حبيبة روميو، ومارجريت فاوستو، ليونورا بطلة القصيدة الغنائية لبورجير (G . A. Burges) وجليسيرا حبيبة ميناندروس، وليسبياس هو الموازي الشعري لجوديا حبيبة كاتولو.

أجمل ألوان الفن التشكيلى المتمم لأشكال رشيقة، وبنسيج شفاف أيضا لشريفات أثينا وكورينتو الجميلات، لكى يبرق الجسد الأبيض والوردى اللون المخروط تحت ظلام الليل. لكن، ما قيمة المتع الحسية، وما قيمة كل المجد وعظمة الدنيا، عندما تحترق نفس وتفنى فى الحب الإلهى؟ حسب فهمى أنا، ألا أجرؤ لى قول إن نفسى كانت تحترق وتفنى هكذا؟ صخور هائلة، جبال بأكملها، لو استخدمت كحاجز لكى يؤجل الحريق الذى يشتعل فجأة فى جوف الأرض، ستتطاير بعنف فى الهواء وتفسح مكانا لكتل النار وحمم البركان الملتهبة فى ثورتها الصاعقة. هكذا، أو بقوة أكبر، ترفع عن نفسها روحى كل ثقل الكون والجمال البشرى، الذى يكبلها، ويمنعها من التحليق إلى الله، كما فى مركزه، لا، لم أترك متعة عن جهل، ولا كلمه طيبة، ولا أى مجد، كل ذلك أعرفه وأقدره فوق قدره عندما أحتقره من أجل متعة أخرى، من أجل مجد آخر، من أجل عذوبة أخرى أكبر من ذلك. إن حبى لامرأة، لم يأت فقط إلى مخيلتى بذلك القدر من الرضا، بل بتلك السلطة الساحرة وبأخطر الإغراءات التى لا تقاوم، ذلك الذى يسميه علماء الأخلاق الوسواس العذرى، عندما يكون العقل حديث العهد بالتجربة والخطيئة، ويتوهم بمتعة لذيذة عناق الحب، الأعلى للغاية، دون شك، على كل واقع وكل حقيقة. منذ أن أصبحت رجلا، أى منذ سنوات قليلة، لأننى فى بدء شبابى ليس، احتقرت كل هذه الأشباح وانعكاسات المتع والجمال، وأحببت نموذجًا

أصليًا من الجمال، وتقت إلى متعة سامية. لقد حاولت أن أموت في نفسي، لكي أعيش في جوهر المحبوب، وأتجرد ليس فقط من المشاعر، بل حتى من استجابتي لمغريات الدنيا، لتماثيل وصور، لكي أستطيع القول عن الصواب، لست أنا الذى يعيش، بل هو المسيح الذى يعيش بداخلى. ربما ارتكبت خطيئة التعجرف والغرور، وأراد الله أن يعاقبنى. حينئذ ظهرت أنت واعترضت طريقى وأخرجتنى منه وجعلتينى فاسقًا. الآن تتهميننى وتسخرين منى، وتدعين على بأني داعر ومستهتر، أنت بذلك عندما تسخرين منى تهينين نفسك أيضا، فلنفترض أن خطئى هذا تسببت فيه امرأة أخرى قليلة الشأن. فى تواضعى لا أود أن أكون متغطرسًا وأنا أدافع عن نفسى. فوق كل أحلام خيالى الشاب، أتت إلىّ وتربعت على العرش؛ الحقيقة التى رأيتها فيك أنت، فوق كل حورياتى وملكاتى وآلهتي، فوق كل مخلوقاتى المثالية التى هدمها وقطع أوصالها الحب الإلهى ارتفعت الصورة الصادقة، الصورة المطابقة للجمال الحقيقى، الذى هو جوهر هذا الجسد وهذه الروح. شيئ غامض، خارق للطبيعة، يمكن أن يكون قد تدخل فى هذا الحب، لأننى أحببتك منذ رأيتك، أو من قبل أن أراك تقريبا. من قبل أن أعى أنى أحببتك، أحببتك كثيرا. من الممكن أن يكون فى هذا شيئ محتوم، شيء كان مكتوبًا، مصيريًا.

قاطعته ببيتا:

- وإذا كان محتومًا، إن كان مكتوبًا، لماذا لا تستسلم، لماذا مازلت تقاوم؟ ضحِ بأهدافك من أجل حبنا. ألم أضح كثيرًا؟ الآن، وأنا أتوسل إليك، وأنا أبذل جهدى للانتصار على صدك لى، ألا أضحى فى ذلك بكبريائى، باحترامى، بحيائى؟ أنا أيضا أعتقد أننى أحببتك من قبل أن أراك. الآن أحبك أكثر من كل قلبى، ودونك لا سعادة لى. صحيح أنك - فى ذكائى المتواضع - لا تستطيع العثور على منافسين أقوياء مثلما أجد أنا من منافس فى حبك. فلا العقل ولا الإرادة ولا خلجات النفس ترفعنى إلى منزلة الذات العليا بأية حال. فلا طبيعتى ولا ملاحتى تسوّل لى أن أجرؤ على ارتقاء مرتبة بهذا السمو. ومع ذلك، فإن نفسى مليئة بالتقوى والورع الدينى، وأعرف وأحب وأعبد الله تعالى، لكن فقط أرى قدرته على كل شىء، وأعجب لكرمه فى الأعمال التى تخرج من بين يديه. ولا بالتصور أو التخيل أستطيع صياغة هذه الأحلام التى تحدثنى عنها. مع ذلك، حلمت برجل أكثر جمالا وخبرة وشاعرية وحنانًا من الرجال الذين تقدموا لطلب يدى حتى الآن، بحبيب أكثر تميزًا ووجاهة ورجاحة عقل من كل الشغوفين بى فى هذا المكان وفى الأماكن المجاورة، حلمت به كى يحبنى وأحبه وأنتصر لاختيارى. هذا الشخص كنت أنت، لقد شعرت بذلك عندما علمت أنك قد وصلت إلى هذا المكان، تعرفتك عند رؤيتك من الوهلة الأولى. لكن تصورى باء بالفشل، كان غير مثمر،

الصورة التى رسمتها لك لا قيمة لها الآن، ولا أنت تستحقها مطلقًا. أنا أيضا قرأت بعض كتب التاريخ والقصائد، لكن من كل العناصر التى احتفظت بها لم أتمكن قط من تشكيل لوحة تكون أدنى كثيرًا فى قيمتها مما أراه فيك منذ أن عرفتك. ذلك لأننى خضعت واقتنعت وقضى علىّ من أول يوم. لو كان ما تقوله حبًا، لو أن إماتة النفس لكى تحيا بداخل المحب حب حقيقى وشرعى، إذن، هذا هو حبى أنا، لأننى قد مت، قد ماتت نفسى بداخلى وأحيا فقط بداخلك ومن أجلك. أردت أن أبعد عن نفسى هذا الحب، معتقدة نكرانك الجميل، ولم أستطع فعل ذلك، ولم يكن ممكنًا. سألت الله أن ينتزع هذا الحب من قلبى أو يميتنى، ولم يرد الله سماعى. لقد أقمت الصلاة ودعوت العذراء الطاهرة أن تمحو صورتك من نفسى، لكن الدعاء صار غير مفيد. ونذرت النذور للقديس الذى أحمل اسمه كى لا أفكر فيك إلا مثلما يفكر هو فى النفس الطاهرة، والقديس لم يسعفنى. عندما فطنت إلى ذلك، تملكتنى الجرأة وطلبت من السماء أن تقنعك لتترك رغبتك فى أن تصبح من رجال الدين، وأن يولد فى قلبك حب دنيوى مثل الذى فى قلبى. قل لى بصراحة، يا دون لويس ، هل السماء كانت صماء أيضا إزاء هذا التوسل الأخير؟ أم أنها كى تذل وتخضع نفسًا صغيرة ومهمومة وضعيفة مثل نفسى يكفيها حب صغير، أما لكى تخضع الحب الذى لديك، أنت الذى تحمى نفسك بأفكار سامية

وقوية، تحتاج حبًا أقوى أنا لست جديرة بإلهامه أو اقتسامه أو فهمه حتى؟

أجاب دون لويس:

– ببيتا، كلا، ليس لأن نفسك أصغر من نفسى، بل لأنها متحررة من الوعود، ونفسى أنا ليست هكذا. إن الحب الذى ألهمتنى إياه كبير جدًا، لكن التزاماتى تصارع ضده وصلواتى وجميع أهدافى فى الحياة، التى ستتحقق مستقبلا. لماذا لا أقولها دون خوف من إهانتك؟ لو أنك وجدت حبك معى فلا إهانة لك فى ذلك. أما أنا، لو استسلمت لحبك، سأهان وأحتقر. أترك الخالق من أجل المخلوق، أحطم العمل الذى شاعته إرادتى الدائمة، أكسر صورة المسيح، التى فى صدرى، والرجل الجديد؛ الذى شكلته فى كل ضلع بداخلى، يختفى من أجل أن يولد الرجل القديم. لماذا؟ بدلاً من أن أهبط إلى الأرض، إلى الدنيا، إلى دنس هذه الدنيا التى احتقرتها من قبل، ألا ترتفعين أنت لتصلى لى بفضيلة هذا الحب نفسه؛ الذى تكنينه لى، مطهرة إياه من كل الخبث؟ لماذا لا نتحابب إذن دون خجل ودون خطيئة ودون وصمة عار؟ إن الله – مثل نار حبه المطهِّرة والمشرقة – يتخلل النفوس الطاهرة ويعمرها مثل المعدن الذى يخرج من الكير فهو، دون أن يصبح شيئًا آخر، يضيء ويخطف البصر وهو كله نار، هكذا تكون النفوس، تمتلئ بالله، وفى كل شيء هى الله، يتخللها أينما توجد بنعمة الحب الإلهى.

هذه النفوس تتحابب وتستمتع حينئذ كما لو كانت تحب وتستمع بحب الله، تحبه وتستمتع به لأنها هى الله نفسه. فلنصعد معًا بالروح هذا السلم الصوفى والصعب، لتصعد روحانا إلى هذه السعادة، إلى هذا النعيم الذى هو فى الحياة الخالدة ممكن محتمل، ولكن من أجل ذلك ينبغى أن يفترق جسدانا، لأذهب أنا حيث ينادينى واجبى وعهدى وصوت الخالق الأعلى، الذى يهيء عبده ويرشده لعبادته على مذبحه المقدس.

- أجابته بيبيتا كسيرة النفس:

- ويحك يا سيد لويس! الآن فقط عرفت كمْ هو دنيء المعدن الذى تشكلت أنا منه، وكم هو لا يستحق أن تتخلله النار الإلهية. سوف أوضحه كله، أستبعد الخجل. أنا آثمة جهنمية. وروحى الفظة وغيرُ المثقفة لا ترقى إلى هذه الرفعة، هذا التميز، إلى ترف هذا الحب. وإراداتى المتمردة ترفض بشده ما تقترحه أنت. أنا حتى لا أتصورك أنت إلا كما أنت. فأنت عندى فمك، عيناك، شعرك الداكن، الذى وددت مداعبته بيدى، صوتك العذب ونبرة كلماتك الدافئة، التى تجرح وتسحر أذنى حرفيا، كل هيئتك الجسدية التى هي، خلاصة القول، تسحرنى وتفتنى، ومن خلالها، وفقط من خلالها، تظهر لى الروح غير المرئية، الخفية، الملغزة. إن نفسى، الرافضة وغير القادرة على هذه الشطحات الغامضة، لن تفلح فى أن تتبعك إطلاقا إلى المناطق التى تريد اصطحابى إليها. لو أنك

ستصعد إليها، سأظل هنا أنا وحدى، متخاذلة، أغوص فى أشد كآبة. أفضل الموت. أستحق الموت، وأرغب فيه. ربما عند الموت، تمحو وتكسر روحى هذه القيود الحقيرة التى تقيدها، ستكون قادرة من أجل هذا الحب الذى ترغب فيه أنت أن نتحاب. اقتلنى قبل ذلك، فإذا ما تحررت روحى سأتبعك إلى كل المناطق وسأسافر فى الخفاء إلى أماكن بعيدة بجانبك، أسهر على أحلامك وأتأملك وأنفذ بعد ذلك إلى أفكارك المحجوبة، أشهد حقيقة روحك دون تدخل الأحاسيس. لكن هذا، وأنا على قيد الحياة، محال. إننى لا أحب فيك الروح فقط، بل الجسد أيضا، وخيال الجسد وانعكاس الجسد فى المرآة وفى الماء، والاسم واللقب، والدم، وكل تلك الأشياء التى تحدد من هو دون لويس بارجاس: معدن الصوت، الحركة، طريقة المشى. ولا أعرف ماذا أقول أكثر من ذلك. أكرر إن من الأفضل قتلى. اقتلنى دون شفقة. لا، أنا لست مسيحية، بل وثنية مادية.

توقفت هنا بيبيتا فى وقفةٍ طويلة. دون لويس لم يعرف ماذا يقول، فسكت عن الكلام. لحظتها كان البكاء يغسل وجه بيبيتا، التى استمرت فى البكاء.

- أعرفك: إنك تحتقرنى وتفعل خيرًا باحتقارى، أنت على حق فى احتقارى، بهذا الاحتقار من الأفضل أن تقتلنى بخنجر، دون أن

تلطخ بالدم يدك ولا ضميرك. إلى اللقاء. سأحرر سيادتك من وجودى الكريه. وداعًا إلى الأبد.

عند قولها هذا، نهضت بيبتا من مقعدها، دون أن تلفت بوجهها، غارقة فى دموعها، غائبة عن وعيها، بخطوات متعجلة انطلقت نحو الباب المؤدى إلى الحجرات الداخلية. دون لويس شعر بحنان لا يقاوم، بشفقه محزنة، خاف أن تموت بيبتا. تبعها لكى يوقفها، لكنه لم يصل فى وقته. مرت بيبتا من الباب. اختفى وجهها فى الظلام. زاحفًا، كما لو كان مصحوبًا بقوة خارقة، كما لو كان مدفوعًا بيدٍ خفية، دخل خلف بيبتا فى المكان المظلم. ظلت الحجرة وحدها.

أوشك حفل الخدم الراقص على الانتهاء، فلا تسمع حتى الوشوشة الخفيفة. ويسمع فقط صوت ماء الفسقية التى بالحديقة الصغيرة.

ولا نفحة هواء خفيفة كانت تقطع سكون الليل وهدوء الجو. يتسلل عطر الزهور وضوء القمر إلى النافذة. بعد برهة طويلة، ظهر دون لويس، خارجًا من الظلام. مرسوما على وجهه الفزع. شىء من قبيل حيرة يهوذا.

تهالك على أول مقعد، وضع قبضتي يديه مغلولتين على وجهه وأحنى ركبتيه، وظل هكذا أكثر من نصف الساعة، غارقا دون شك في بحر من التفكير المرير.

لو أن أى شخص رآه لظن أنه قتل ببيتا؛ ومع ذلك، ظهرت ببيتا بعد ذلك، بخطوة بطيئة، يكسو الوجه حزن عميق، وبنظرة نحو الأرض، وصلت بالقرب من حيث كان دون لويس، وتحدثت بهذه الطريقة:

- الآن، بالرغم من أن ذلك متأخرا، أعترف بكل دناءة قلبى وكل الشر فى سلوكى. لا يجب أن أقول شيئا فى دفاعى عن نفسي، لكن لا أريد أن تعتقد أننى أكثر انحرافاً عما أنا. انظر، لا تفكر أننى، فى حيلتى ولا فى تقديرى أو خططى، فقدانك. نعم لقد كان ذلك شرا فظيعا، لكنها الغريزة، شر مستوحى ربما من روح جهنم التى تملكتنى. لا تحتر ولا تضعف، بحب الله. لست مسئولا عما حدث. كان هذا هذيانا؛ الشرود العقلى قوض نفسك الشريفة. ليست بك خطيئة، إنها خفيفة جدا. لكن عندى أنا فهى خطيرة ، إنها وصمة عار. الآن أستحقك أقل بكثير عن ذى قبل. اذهب ، أنا الآن التى تقول لك إن عليك أن تذهب. اذهب، كفّر عن ذنبك. سيغفر الله لك. اذهب ، حتى يستغفر لك راهب. وبهذا، تصبح متطهرا من جديد من الذنوب، أكمل إرادتك وكن وزيرا للخالق الأعلى. بحياتك المجهدة والقديسة، لا تمح فقط جميع آثار هذه السقطة، بل

إنك، بعدما تصفح عنى للشر الذى تسببت لك فيه، ستحصل من السماء على العفو بشأني. لا يوجد رباط إطلاقًا يصلك بى، ولو وجد، أنا سوف أحله وأحطمه. أنت حر الآن، يكفينى كونى أمسكت فجأة بنجم الصباح، لا أريد، ولا يجب، ولا أستطيع الاحتفاظ به أسيرًا، أتنبأ، أستنتج، من موقفك، وأراه بوضوح، الآن تحتقرنى أكثر من ذى قبل، وعندك حق فى احتقارى. لا شرف ولا فضيلة ولا حياء عندى.

عند قولها ذلك، غرزت ببيتا ركبتيها فى الأرض ومالت بعد ذلك حتى لمست بجبينها أرض الحجرة. دون لويس ظل فى نفس الوضع الذى كان عليه من قبل. هكذا ، استمر الاثنان بضع دقائق على هذه الحال فى صمت محير.

بصوت مخنوق، دون أن ترفع وجهها من الأرض، واصلت ببيتا أخيرا:

- اذهب الآن، اذهب فى الحال يا دون لويس، ليس بداعى الشفقة عليك أن تستمر وقتًا آخر بجانب هذه المرأة البائسة. سوف تكون عندى شجاعة لكى أتحمل نفورك ونسيانك وحتى احتقارك، الذى أستحقه بالفعل. سأكون دائما جارية لك، لكن بعيدة عنك، بعيدة جدا عنك، لكى لا أجلب لذاكرتك وصمة هذه الليلة.

خنق النحيب صوت ببيتا، عند انتهائها من هذه الكلمات. لم يستطع دون لويس التحمل أكثر من ذلك. نهض واقفًا، وصل إلى حيث كانت ببيتا ورفعها بين ذراعيه، وضمها تجاه قلبه، باعدًا برفق عن وجهها شعرها الأحمر المجعد المنسدل، وأغرقها بقبلات حارة.

نطق دون لويس أخيرا:

- روحى، حياتى، جوهرة قلبى المعشوقة، نور عينى، ارفعى وجهك ولا تركعى أكثر من ذلك، المذنب، الضعيف الإرادة، البائس، الأحمق، الغريب الأطوار هو أنا، ولست أنت. الملائكة والشياطين يجب أن تضحك تمامًا منى وألا تأخذنى مأخذ الجد أو لا تعيرنى اهتماما. لقد أصبحت قديسًا مستعارًا، لا أعرف كيف أقاوم، وأخبت ظنك من البداية، مثلما كان من الإنصاف ، والآن، لست متأكدًا أيضا من أن أكون سيدًا فاضلا، رجلاً مغازلاً، عاشقًا غنجًا، يعرف فضائل سيدته قدرها. لا أفهم ما الذى رأيته فى شخصى كى أفتنك بهذه الطريقة. فى حياتى لم تكن بى فضيلة ثابتة، بل تافهة، ادعاءات لشاب خجول غير مجرب كان يقرأ الكتب الدينية مثل من يقرأ روايات، وهكذا شكل روايته الحمقاء من المواعظ والتأملات. لو كانت عندى فضيلة قوية، كنت استطعت التحرر منك مع الوقت، وما كنا أخطأنا لا أنا ولا أنت. الفضيلة الحقيقية لا تسقط بسهولة، بالرغم من كل جمالك، بالرغم من موهبتك، بالرغم من حبك نحوى، لا، لم أكن لأخطئ لو كنت فى الحقيقة عفيفًا،

لو كان عندى ميل صادق للرهبنة. كان الله القادر على كل شيء قد أعطانى نعمتك، وهى معجزة، دون شك، شيء خارق للطبيعة، ونبهنى كى أقاوم حبك، لكن الله فعل المعجزة. تخطئين فى نصيحتك لى بأن أصبح راهبًا. أعترف بعدم أهليتى لذلك. لم يكن هناك سوى الغرور أو الكبرياء يحركنى. كان طموحًا دنيويًا كغيره. كلا، ليس كغيره! كان أسوأ؛ كان طموحا منافقا، دنسا، ماديًا.

أجابته بيبيتا:

- لا يكن حكمك على نفسك بهذه القسوة!

ثم أردفت وهى أكثر هدوءًا، وهى تبتسم من خلال الدموع:

- لا أريد أن يكون حكمك على نفسك على هذا النحو، ولا من أجل ألا تعتبرني غير جديرة بأن أصبح رفيقتك، بل أن تختارنى عن حب، بحرية، لا من أجل إصلاح خطأ، لا لأنك وقعت فى رباط قد ترتاب في أننى نصبته لك، أو أوقعتك فى شباكى. ارحل لو كنت لا تحبنى، لو أنك تشك فىّ، لو لم تكن تقدرنى. لن تجأر شفتاى بشكوى واحدة لو تركتني للأبد ولم تعد تذكرنى.

ضاق رد دون لويس بنسيج اللغة البشرية الضيق والحقير. قطع خيط حديث بيبيتا وطبع شفتيه على شفتيها واحتضنها من جديد.

بعد ذلك ببرهة، دخلت أنطونيونا الغرفة بسعال مسبق ووقع قدميها قائلة:

- يا لها من محادثة طويلة - ذكرت ذلك مداعبةً - كم تأخر الوقت! لم تكن موعظة الشاب ذات الكلمات السبع، بل كادت أن تكون موعظة الأربعين ساعة. لقد حان الوقت لكى ترحل يا سيد لويس. الساعة تقترب من الثانية صباحًا.

- حسن - قالت ببيتا - سيذهب فى الحال.

عاودت أنطونيونا الخروج من الحجرة وانتظرت بالخارج.

فى هذه اللحظة، تغيّر شكل ببيتا. السعادة التى لم تحظَ بها فى طفولتها، المتعة والسرور اللذان لم تتذوقهما فى أوائل سنوات شبابها، النشاط الصاخب والعربدة التى كبتتها أم عبوس الوجه، وزوج عجوز إلى ذلك الحين، يمكن القول بأنها اندلعت فجأة فى نفسها، مثلما تنبت من جديد أوراق الأشجار الخضراء عندما يتأخر نبتها فى ثلوج وجليد شتاء قارس تأخر نبته.

أية سيدة من سيدات المدينة، من العليمات بما يسمى العرف الاجتماعي، قد تجد غرابة، أو حتى ما يستحق اللوم فيما سوف أقوله عن ببيتا، لكن ببيتا، بالرغم من أناقتها الأصيلة، كانت على طبيعتها، وليست ممن يجدن المداراة الحذرة أو التكتم المعتادين فى المجتمع الراقي. لذا وقد انتصرت على الحواجز التى تعترض سعادتها،

وقد وجدت دون لويس مستسلمًا لحبها، وقد تعهد فجأة بأن يتخذها زوجًا شرعية له، وقد رأت حقًا أنها محبوبة، ومعشوقة ممن تحب وتعشق، ظلت تقفز وتضحك وبدت عليها علامات ابتهاج تجد فيه كثيرًا من الطفولة والبراءة.

كان من الضرورى أن يرحل دون لويس. بحثت ببيتا عن مشط ومشطت ببيتا بحب شعره وهي تقبل رأسه. أصلحت له رباط العنق. قالت:

- إلى اللقاء، يا مالك حبى، إلى اللقاء، يا ملك نفسي العذب. سوف أذكر كل ما حدث لوالدك لو أنك لا تريد الإقدام على ذلك. إنه طيب القلب وسوف يغفر لنا.

فى النهاية افترق الحبيبان.

عندما وجدت ببيتا نفسها وحدها، فرحتها الصاخبة تبددت واتخذ وجهها سمتًا جادًا وراحت تفكر. فكرت ببيتا فى أمرين جادين: الأول دنيوى، والآخر باهتمام أكثر سموًا. ما فكرت فيه أولا كان سلوكها تلك الليلة، متأثرة بنشوة الحب، من الممكن أن يضر بها من مفهوم دون لويس. لكنها أخضعت نفسها لامتحان صارم للضمير، وأقرت أنها لم تتعمد الخبث أو سبق الإصرار فى أى شيئ، وأن كل ما فعلته قد تولد عن حب لا يقاوم وعن دوافع نبيلة؛ اعتبرت أن دون لويس لن يستطيع احتقارها أبدًا، وهدأت واطمأنت من هذا الجانب.

مع ذلك، على الرغم من اعترافها الساذج بأنها لا تفهم الحب الروحاني المجرد، وعلى الرغم من أن هروبها لداخل الغرفة المظلمة كان بوازع من الفطرة الأكثر براءة، دون رؤية النتائج مسبقًا، لم تنفِ ببيتا أنها – فى نهاية الأمر – كانت تخطئ فى حق الرب، ومن هذا المنطلق لم تجد مبررًا أو عذرًا لذلك. توكلت، إذًا، من كل قلبها على العذراء لكى تغفر لها، قدمت نذرًا لصورة "عذراء الوحدة"، التى كانت توجد بدير الراهبات، يتلخص فى شراء سبعة سيوف جميلة من الذهب، من الشغل الناعم والثقيل، لتزين صدرها وقررت الذهاب للاعتراف اليوم التالى مع السيد نائب الأسقف، والخضوع لأقصى عقوبة يضعها لكى تستحق الغفران من تلك الذنوب، التى بفضلها انتصرت على عناد دون لويس، وإلا لكان أصبح قسًا بلا رجعة.

فيما تحسب ببيتا فى ذهنها وتحلل بذكاء كبير شئونها المختصة بالنفس، نزل دون لويس إلى الدهليز برفقة أنطونيونا.

قبل أن يرحل، قال دون لويس دون تمهيد أو مداراة:

– أنطونيونا، أنت التى تعلمين كل شىء، قولى من هو كونت خيناثار، وما العلاقة التى كانت تربطه بسيدتك؟

– أمن البداية تظهر غيرتك!

– ليست غيرة، إنه فضول، ليس إلاّ.

- خير لك أن يكون فضولاً. فلا شيئ أكثر إزعاجًا من الغيرة. سوف أرضى فضولك. هذا الكونت، المرعب إلى حد ما، فاسق ومقامر ومتهور، ولكن لديه من الغرور ما لا يحتمل. أصر على أن تحبه طفلتى وتتزوجه، ولما رفضت طلبه آلاف المرات، استشاط غضبًا. هذا لا يمنع أنه يحتفظ لديه بأكثر من خمسة آلاف بزيتة، فمنذ أعوام كان قد اقترضها من دون جومرسيندو، زوجها السابق، في مقابل بعض المستندات القليلة الأهمية، بفضل توسلات ببيتا لزوجها، فهى في غاية الطيبة. بعد ذلك، غباء الكونت صور له، دون شك، أن ببيتا، التى كانت زوجًا صالحة؛ إذ حثت زوجها أن يعطيه النقود، كان لزامًا أن تصبح أرملة أشد منفعة له، ولابد من اتخاذها زوجًا له. من هنا أتت خيبة الأمل مع ثورة الغضب الناتجة عن ذلك.

- إلى اللقاء يا أنطونيونا - قالها دون لويس وخرج إلى الشارع الساكن المعتم - أضواء المحلات وأماكن المعارض كانت قد أطفئت وخلد الناس إلى النوم إلا أصحاب محلات اللعب وبائعى الخردة الفقراء الذين ينامون بهدوء بجانب بضائعهم.

عند بعض الأسوار، ظل كثير من الملثمين المثابرين وغير المتعبين يمارس مناجاة العشاق مع خطيباتهم. رغم أن أغلبهم كان قد اختفى أيضا. فى الشارع، بعيدا عن عين أنطونيونا، ترك دون لويس الزمام لأفكاره. كان قد اتخذ قراره، وحضر كل شيئ إلى ذهنه لتأكيد

عزمه. الصراحة وحماسة العاطفة التى قد ألهمته ببيتا إياها، جمالها، رشاقة جسدها الشاب، نضارة الربيع في روحها، هذا كله طاف بمخيلته وجعله سعيدًا.

ومع ذلك ففي شيء من المعاناة التى مردها الكبرياء، فكر دون لويس فيما اعتراه من تغيير. ماذا سيفكر عمه رئيس الدير؟ أي رعب وفزع ذلك الذى سيصيب نيافة الأسقف؟ وبالأخص، يا لمبرر الشكوى الخطير الذي يعطيه دون لويس لوالده، بل وحزنه وغضبه عندما يعلم بالعهد الذى قطعه دون لويس على نفسه مع ببيتا! ذلك كله تداعى إلى نفسه وأزعجه للغاية.

وأما ما كان يسميه دون لويس خطيئة قبل أن يخطئ، فنستطيع الاعتراف بحق بأن ذلك يبدو له الآن أقل وطأة وأقل فزعًا، بعدما وقع بالفعل فى الخطأ. وتصوفه، بتحليله جيدا على الضوء الجديد الذى استبان له، عنَّ له بلا كينونة ولا رسوخ إذ كان نتاجًا زائفًا ومصطنعًا لقراءاته، لغطرسة صبى، لحنان تلميذ ساذج بلا هدف. وحين يتذكر أنه اعتقد أحيانا أنه حصل على نعم وعطايا خارقة للطبيعة، أو سمع همسًا صوفيًا، أو فى حالة محادثة داخلية مع النفس، أو أنه قد بدأ يمشى فى طريق التوحد بل وبلغ صلاة السكينة، متوغلا فى أعماق الروح وصاعدًا حتى رأس العقل، كان دون لويس يضحك ويشك في أنه كان فى كامل قواه العقلية. كان ذلك كله ادعاء من جانبه، فلا هو جاهد النفس توبةً ولا عاش أعوامًا طويلة فى التأمل

ولا يستحق ولم يستحق قط أن يرفعه الله ذلك المقام الرفيع. وأما برهانه الأكبر لنفسه في كل ذلك، يقينه الأكبر من أن تمتعه بالعطايا الخارقة للطبيعة لم يكن سوى وهم، محض صدى ساذج للمؤلفين الذين قرأ لهم، وذلك البرهان قد تولد من أن لا شيء أمتع نفسه بقدر ما أمتعتها كلمة أحبك من ببيتا، بقدر لمسة رقيقة من يديها وهى تداعب شعره المجعد.

لجأ دون لويس إلى نوع آخر من التواضع المسيحى لكى يبرر لنفسه ما لا يريد أن يسميه خطيئة، بل تحولاً. اعترف بأنـــه غير جدير بأن يصبح راهبًا، ومهد ليصبح علمانيًا، زوجًا، قرويًا معتادًا وطيبًا، مهتمًا بمزارع الكروم والزيتون، يربى أنجاله، فقد أصبح ينشدهم، ويكون نموذجًا طيبًا للزوج إلى جانب ببيتا.

هنا أعود - كمسئول عن طبع ونشر هذه القصة - فأرى ضرورة عرض بعض الأفكار والإيضاحات من جانبي.

ذكرت فى البداية أننى أميل إلى الاعتقاد بأن هذا الجزء من الرواية أو "سفر الأيام" من تأليف السيد رئيس الدير، بهدف إتمام الصورة والانتهاء من سرد الأحداث التى لم تسردها الخطابات، لكننى لم أكن قد قرأت بتأنٍ المخطوط. لكن الآن عند ملاحظة الحرية التى يتعامل بها مع بعض المواد، وتساهل المؤلف مع بعض الكبوات، أشك فى أن السيد رئيس الدير، الذى أعرف عنه صرامته

جيدًا، يكون قد استهلك حبر محبرته فى كتابة ما انتهى القارئ من قراءته في التو. مع ذلك، لا يوجد مبرر كاف لئلا يكون رئيس الدير هو صاحب "سفر الأيام". ويظل الشك قائمًا، لأنه فى الأساس لا يوجد فى هذا ما يتعارض مع الحقيقة الكاثوليكية، ولا مع الأخلاق الكاثوليكية، على العكس، إذا أنعمنا النظر فى هذا، سوف نرى أننا خرجنا من كل ذلك بدرس ضد المتعجرفين والمتغطرسين بعظة نموذجية من خلال شخص دون لويس. هذه الرواية نستطيع استخدامها دون صعوبة كملحق لخيبة الأمل الصوفية للأب أريبول[1]. بالنسبة للذى يؤكده لى اثنان أو ثلاثة من أصدقائى المتحفظين، من أن السيد الأسقف لو كان هو المؤلف لكان قد روى الأحداث بطريقة أخرى، قائلا: نجل أخى عند الحديث عن دون لويس، وواضعا اعتباراته الأخلاقية من حين لآخر، لا أعتقد أنها حجة ذات قيمة كبيرة. السيد الأسقف اقترح سرد الذى حدث ولم يجرب أو يحث على شىء ولم يطرح أية أطروحة، وحالفه الصواب، فلم يتدخل بدافع الفضول ولم يرد استخراج مغزى أخلاقيًا للقصة. كما لم يخطئ - حسب إحساسى - فى إخفاء شخصيته وعدم الكذب على نفسه، وهذا لا يظهر تواضعه وخشوعه فقط، بل وذوقه الأدبى

---

(١) الأب أريبول هو أنطونيو أريبول دياث (1651-1726) شغل مراكز رفيعة داخل رهبانية الفرنسيسكان التي ينتمى لها.من بين مؤلفاته جميعا فى الدين والأخلاق، نبرز "خيبة الأمل الصوفية وتعاليم الدين".

الرفيع، لأن الشعراء الملحميين والمؤرخين، الذين يجب أن يكونوا نموذجًا، لا يقولون نحن بالرغم من أنهم يتحدثون عن أنفسهم، وهم أنفسهم أبطال وفنانو الحالات التى يقصونها. وأضع "أنتيسثينس"، تلميذ سقراط، كمثل، لا يقول أنا عند الحديث عن مذهبه، بل يتحدث بصيغة الغائب عندما يقتضى الأمر كما لو كان أحدهم الذى كتب، وآخر الذى نفذ تلك البطولات.

وأيضا هكذا، مرت فصول ليست قليلة من الرواية دون أن يظهر "أنتيسثينس"، تلميذ سقراط، قبيل بدء المعركة الشهيرة، والتى توفى فيها الشاب "سايروس" وهو يستعرض جيشه من الإغريقيين والبربر، وقريبًا من جيش أخيه "أرتاكسركسس"، الذى لمحه من بعيد، فى السهول الشاسعة القاحلة، أولاً، سحابةً بيضاء صغيرة ثم بقعةً سوداء، وأخيرًا، بوضوح ودقة، بصهيل جياده وصرير عرباته الحربية المسلحة بالمناجل المتوحشة، وقبع الأفيال وصوت المعدات الحربية، ناظرًا اللمعان البرونزي والذهبي للأسلحة وهو يومض في الشمس، فى تلك اللحظة فقط، أقول، وليس قبلها، يظهر "أنتيسثينس" ويتحدث إلى سايروس، خارجًا عن الصفوف وموضحًا له الهمس الذى يسري بين الإغريقيين، والذى لم يكن سوى ما نسميه اليوم "كلمة السر". وكانت فى تلك المناسبة "جوبيتر سلبادور وفيكتوريا".

لقد كان السيد الأسقف ذا ذوق رفيع، وضليعًا فى الثقافة الكلاسية حتى إنه لم يرد أن يجلب على نفسه الوقوع في زلة أن

يظهر في القصة عمًا ومعلمًا للبطل، أو أن يرهق القارئ في كل خطوة بتدخلات من صنف: "قف هنا..." أو "ماذا تفعل؟" أو "انظر، لا تخطئ، أيها البائس" أو تحذيرات أخرى من هذا القبيل.

أما ما قام به بالفعل؛ هو إضافة تفسير أو تعليق مفيد عندما اقتضت ذلك منه هذه الفقرة أو تلك، لكنى أحذفه هنا، لأنها ليست موضة الروايات المفسرة أو المشروحة، ولأن هذا العمل الصغير سيصير ضخمًا لو طبع بالشكل المشار إليه.

ومع ذلك، سوف أورد فى هذا المكان، على سبيل الاستثناء، فى النص، إشارة السيد الأسقف إلى التحول السريع الذى طرأ على لويس، من صوفى إلى غير صوفى. إنها علامة طريفة وتلقى الضوء على أشياء كثيرة. يقول:

– لم يصبني تحول ابن أخى ذاك بخيبة أمل. لقد توقعته منذ أن كتب لى خطاباته الأولى. لويس خدعنى فى البداية. فكرت أن لديه ميلاً فطريًا إلى الرب، لكن بعد ذلك أدركت أنها كانت نزعة شاعرية زائلة، الصوفية كانت قيثارة قصائده إلى أن أتت آلة أخرى أكثر ملاءمة. الحمد الله الذي شاء أن تجيء صحوة لويس من غروره فى وقتها، لأنه كان من الممكن أن يصبح رجل دين سيئًا لو لم تكن فرصة ببيتا مهيأة جدا، فلو أنه تلقي أسرار الرهبنة دفعة واحدة لأصبت بإحباط كبير لأن حنان العم أعمى بصيرتى.

والآن، ماذا؟ أتمنح نعم السماء فى الحال؟ هل يتلخص الأمر فى مجرد المجيء للانتصار؟ حكى لى صديق بحار أنه عندما كان فى بعض مدن أمريكا، وكان صغير السن جدا، كان دائما يخطب ود السيدات بتهور جرىء، وكن يقلن له بلهجة أمريكية واهنة: وصلت إلى هنا من توك وتريد الحب... أثبت جدارتك أولاً لو استطعت. لو أن هؤلاء السيدات استطعن قول ذلك، ما الذي لا تستطيع قوله السماء للمجترئين الذين يسعون إلى التسلق دون حق وبين غمضة عين وانتباهتها؟ لابد من السعى كثيرا لبلوغ هذا الهدف، يحتاج الأمر إلى طهارة كثيرة، يتطلب هذا الكثير من أمانة النفس لكى يبدأ بداية حسنة مع الله ويستمتع بعطاياه. حتى فى الفلسفات الزائلة والزائفة، التى بها شيئ من التصوف، لا توجد هبة ولا نعمة خارقة للطبيعة دون مجهود شاق، أو دون مساع قوية وتضحية مكلفة. يامبليكوس (جامبليق) [1] نفسه لم يستطع إثارة عفاريت الحب ليخرجهم من نبع إدجادارا إلا بعد أن حرق رموشه في الدراسة، وأجهد جسده بالحرمان والتقشف. وأبولونيو دى تيبانا – الفيلسوف المدعى الوحى – الذى من المفترض أنه أمات الشهوات بالصوم والتقشف قبل أن يقوم

(١) إغريقى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد، روائى وبلاغى كتب "البابليات"، رواية خيالية.

بمعجزاته الزائفة. لكن ابن أخى أراد أن يكون رجلاً ناضجًا دون بذل أى جهد، وانظروا إلام انتهى! إن الذى يهمه الآن هو أن يصبح رجلا متزوجا سويا، المهم هنا أنه لا يصلح لأشياء عظيمة، يصلح فقط للأشياء الصغيرة والعائلية، يسعد هذه الفتاة التى هي فى النهاية ليس لها ذنب غير أنها أحبته بجنون، وبشفافية قلب واندفاع بدائي.

إلى هنا تنتهي ملاحظة السيد الأسقف، المدونة بمرح حميمي، كأنما حررها لنفسه فقط، فأبعد ما يكون عن ذهن المسكين أننى سأضع يدى على هذه الأوراق وأنشرها ضد رغبته.

دون لويس، فى وسط الطريق نحو الساعة الثانية صباحًا، راح يفكر، كما قلنا، في أن حياته التى كان يحلم إلى هذه اللحظة بأن تكون جديرة بـــ"الأسطورة الذهبية" لجاكوبو دي فاراتسي – وهو سفر في حياة القديسين الصالحين –، قد تحولت إلى قصيدة رعوية رقيقة وخالدة فى مناجاة العشاق. لم يعرف كيف يقاوم الحب الدنيوى، لم يكن مثل قديسين كثيرين لا يعدون ولا يحصون، ومن بينهم القديس الإسباني البلنسي بيثنتي فيرير مع سيدة طروب من بلنسية، لكن لم تكن أيضا نفس الحالة، وإذا كان خروج القديس بيثنتي فيرير هروبًا من تلك السيدة المحظية الشريرة، من قبيل الفضيلة البطولية، فإنه – فى حالة دون لويس– كان هروبا من خضوع ببيتا وبراءتها ووداعتها، شيئ فظيع وبلا رحمة، كأن يركل بوعز راعوثًا أو

يطردها خين خرت راعوث عند رجلي بوعز، قائلة "أنا راعوثُ أمَتُكَ، فابسُطْ طَرَفَ ثوبِكَ عليّ لأنّكَ نسيبي وولِيُّ أمري". لكن دون لويس، عندما خضعت له ببيتا، كان لابد أن يقلد بوعز ويصيح: "باركَكِ الرّبُّ يا ابنَتي. ولاؤكِ هذا الذي تُظهرينَهُ الآنَ أعظَمُ مِنْ ولائكِ الأوّلِ"... هكذا كان يعتذر دون لويس لنفسه لأنه لم يستطع تقليد القديس بيثنتي والقديسين الآخرين إلا أريسكوس. وأما فيما يختص بنجاحه المحدود في الاقتداء بالقديس إدوارد، فكان يحاول أيضا أن يلتمس له الأعذار. فالقديس إدوارد تزوج زواجًا سياسيًا، لأن عظماء المملكة ألزموه بذلك، ودون ميل نحو الملكة إديث، لكن في حالته - وببيتا خيمنث - لا ضرورات سياسية هنالك، لا كبيرة ولا صغيرة، بل حب رقيق من جانب الطرفين.

على أية حال، لم ينكر دون لويس، وهذا يصبغ سروره صبغة خفيفة من الحزن، لأنه حطم فكرته وأصبح مهزومًا. إن الذين ليس لديهم غاية على الإطلاق ولم يكن لديهم هدف أيًا كان، لم يتعجلوا هكذا، لكن دون لويس تعجل.

فكر لويس بعدها في استبدال القديم والغاية السامية بأخرى أقل تواضعًا وأسهل. تذكر دون كيخوتي جيدًا عندما هزمه فارس "القمر الأبيض" فقرر أن يعمل راعيًا، ملعون الأثر الذى أحدث الاستهزاء، بل فكر في أن يجدد مع ببيتا، في عصرنا المبتذل والزنديق، العصر السعيد والرحيم، عصر فيلمون وبوسي، كانا ينشدان حياة سعيدة

بطريركية فى تلك القرى المبهجة، وأسسا فى المكان الذى شهد ميلادهما منزلا عائليًا، مترعًا بالدين والورع، وكان فى الوقت نفسه ملاذًا للفقراء ومركزًا للثقافة والوئام، كان مرآة نظيفة تستطيع العائلات النظر فيها، حيث يتحد، في نهاية الأمر، حب الزوجين بحب الله، لكى يطهر الرب ويزور مسكنهمًا، جاعلا منه معبدًا يكون فيه كلاهما مبشرين بالرب وراهبين، حتى تقرر السماء انتقالهما معًا إلى الحياة الأفضل.

على الرغم هذا الإنجاز، كانت ثمة عقبتان تعترضان ذلك. كان من الضرورى التمهيد لهما، وكان لويس جاهزًا للتمهيد لهما. أولاهما، انزعاج والده الذى كان سيحبط فى أكبر من آماله. والأخرى - وكانت مختلفة وأكثر خطورة -، تتلخص في أن دون لويس، لما كان فى طريقه لأن يصبح راهبًا، لم يكن دوره الدفاع عن ببيتا من الإهانات البذيئة التي كالها لها كونت خيناثار بغير الموعظة الأخلاقية، وليس انتقامًا من الاستهزاء والتحقير الذي كان على مسمع من الجميع؛ لكن، بعد تركه الرهبنة، وإعلانه الوشيك أن ببيتا أصبحت خطيبته وسوف يتزوج منها، وبالرغم من طبيعته المسالمة، ومن أحلامه الإنسانية الحانية، واعتقاداته الدينية التى ظلت على حالها فى نفسه، وكان ضد العنف، لم يستقم في نفسه الجمع بين كرامته وترك الكونت الوقح بغير أن يشج رأسه. كان يعلم أن المبارزة عادة همجية، وأن ببيتا غير محتاجة إلى دم الكونت لكى

تظل طاهرة من كل وصمات الافتراء، وحتى الكونت نفسه، لكونه غير مهذب ولكونه فظ الطبع، وربما لغضب مبالغ فيه، قد بالغ في قدر أو حجم الشتائم. مع ذلك، بالرغم من كل هذه الانعكاسات، دون لويس كان يعلم أنه لن يتألم لنفسه أثناء حياته كلها وأنه، بالتالى، لكي يصل إلى ما آل إليه فيلمون، يجب أن يعطي الكونت ما يستحقه ثم يطلب من الله ألا يضعه فى موقف آخر مشابه.

قرر إذن الانتهاء من ذلك الأمر فى الحال. وعنّ له قبيحًا وغريبًا إرسال نصير له كي يجر الكونت إلى التفوه بشرف ببيتا، ووجد أن من الأصلح البحث عن مشاجرة بأى حجة أخرى.

من المفترض أيضًا أن الكونت مقامر شاذ وحقود، ومن الممكن جدا أن يكون مازال فى الكازينو يقامر بمهارة، بالرغم من تقدم المساء، اتجه دون لويس رأسًا إلى الكازينو. كان الكازينو مازال مفتوحًا، لكن أنوار الفناء والصالونات كانت مطفأة تقريبا، ويأتى ضوء من صالون واحد فقط. توجه دون لويس إلى هناك، شاهد من الباب كونت خيناثار، الذى كان يلعب الورق ويوزعه في تلك اللحظة. خمسة أشخاص فقط يدوّنون النقود، اثنان منهم غرباء مثل الكونت والثلاثة الآخرون هم قائد الخيالة المكلف بإمدادات الخيول وتربيتها وكوريتو والطبيب.

لم يستطيعوا معرفة مقصد دون لويس من الحضور، وهذا من جانبه، دخل دون أن يراه أحد ممن أتى من أجلهم وكانوا يلعبون الورق. بمجرد أن رآهم خرج من الكازينو وذهب سريعًا إلى منزله. فتح له الباب أحد الخدم، سأله عن والده، علم أنه نائم، لكي لا يوقظه صعد على أطراف أصابعه إلى غرفته في الضوء الخافت وأخذ ثلاثة آلاف ريال من الذهب؛ كان يدخرها لنفسه واحتفظ بها فى جيبه، ثم أمر الخادم أن يفتح له الباب وذهب إلى الكازينو مرة أخرى.

دخل دون لويس حينئذ الصالون حيث كانوا يلعبون ضاربًا الأرض بكعب حذائه، في شموخ وشمم، كما يقولون. ظل اللاعبون فى دهشة كبيرة عند رؤيته. تحدث كوريتو:

- أنت هنا فى هذه الساعة!

- من أين خرجت يا رجل الدين الصغير، قال الطبيب.

- هل أتيت لتعطينى موعظة أخرى؟ تعجب الكونت.

أجاب دون لويس بهدوء كبير وثبات:

- لا شيء من هذا القبيل، إن الأثر السيئ الذى نجم عن موعظتى أثبت لى بوضوح أن الله لم يخترنى لهذا الطريق، وأخيرا، أخذت طريقًا آخر. وأنت، سيدي الكونت كنت سبب تحول اتجاهى. لقد تركت الرهبنة، أريد أن أستمتع، فمازلت فى زهرة شبابى، وأريد الاستمتاع بذلك.

- هيا بنا، إنني سعيد - قاطعه الكونت - لكن احذر، أيها الطفل؛ لو كانت الوردة رقيقة، من الممكن أن تذوي وتتساقط أوراقها سريعا.

- من أجل ذلك سوف آخذ حذرى - أجاب لويس- أرى أن اللعب يجب أن يبدأ. أشعر أننى ملهم. وزع سيادتك الورق. هل تعلم يا سيدي الكونت، أننى أستهدف ربح جميع نقود المقامر؟

- تربح جميع النقود، هيا؟ يبدو أنك أكلت فى العشاء أكلة ثقيلة.

- لقد أكلت ما شئت.

- سيبدأ الغلام بقلة الحياء.

- افعل ما أشاء.

قال الكونت: "هيا إذاً..." وشعر بقدوم العاصفة لكن تدخل قائد الخيالة أعاد الهدوء تماما.

- هيا! - صاح الكونت، هادئًا ومهذبًا- أخرج سيادتك النقود وجرب حظك.

جلس دون لويس أمام المائدة وأخرج من جيبه كل الذهب. بعثت رؤية الذهب الهدوء في نفس الكونت، لأن مبلغ المال الذى

أمامه زاد على الذى عنده فى البنك، وتصور أنه سوف يربح دون لويس المبتدئ.

- لا يجب أن تتعب الرأس كثيرا فى هذه اللعبة - قال دون لويس- يبدو لى أننى أفهمها. أضع نقودًا على ورقة ما، وإذا خرجت الورقة أكسب أنا، وإذا خرج عكسها تربح سيادتك.

- هكذا يكون، صديقى، عندك ذكاء وفطنة وهما من صفات الرجال.

- أجل، من الأفضل ألا يكون عندى ذكاء الرجال فقط، بل أيضا الإرادة، لذلك، أنا جاهز تماما لأن أكون رجلاً مثل الكثيرين الموجودين هنا.

- ها أنت تثرثر وتضمر خبثًا.

سكت دون لويس، لعب عدة مرات، وكان سعيد الحظ لأنه كان يربح دائما. بدأ الكونت يغضب فقد أحل به ضررًا عظيمًا.

قال فى نفسه: لو سلبني الطفل كل النقود، فإن الله يحمى البراءة. بينما كان الكونت يستشيط غيظًا، شعر دون لويس بتعب واشمئزاز وأراد إنهاء اللعبة مرة واحدة. قال:

- نهاية كل ذلك أن أفوز أنا بهذه النقود، أو تفوز أنت بها، أليس صحيحًا، يا سيدى؟

- هذا صحيح.

- إذن، لماذا نحن هنا فى هذا الوقت المتأخر من المساء؟ إن الوقت متأخر جدا، وأتبع نصيحتك، يجب أن أمضى لكى لا تزول زهرة شبابى.

- ما هذا؟ هل تريد ترك اللعب، إنهاءه، الهروب من الخطر؟

- أنا لا أريد الهروب إطلاقا، بالعكس. قل لى، يا كوريتو: هنا فى هذه الحزمة من النقود، ألا يوجد أكثر من ذلك فى البنك؟

نظر كوريتو وأجاب:

- دون شك.

- كيف أشرح ذلك؟ - تساءل دون لويس - فلنلعب على ورقة واحدة طالما يوجد فى البنك أكثر مما نلعب عليه.

أجاب كوريتو قائلا: هذا يعني المراهنة بكل شيء على ورقة واحدة.

- ورقة واحدة إذاً! - قال دون لويس متجها نحو الكونت- بملك السيوف أربح وبرقم ثلاثة أخسر.

انزعج الكونت، وكل رأس ماله مرهون على طاولة اللعب، عندما رأى نفسه في مأزق وعرضة للخطر، لكنه لم يجد بدًا من الموافقة. إنه القول الشعبى المأثور: سعيد فى الحب تعيس فى اللعب.

لكن، يبدو الأمر عكس هذا التأكيد. فعندما يأتى الحظ السعيد، يأتى معه كل شيء سعيد؛ والعكس: عندما يأتى النحس، يأتى معه كل شيء نحس.

راح الكونت يرمى أوراقًا ليس من بينها أى رقم ثلاثة. كان انفعاله كبيرا رغم محاولته إخفاءه.

قال قائد الخيالة:

- ارمِ سيادتك.

- لا! لماذا؟ ! ملعون ملك السيوف! القس الصغير سلبنى كل المال. خذ سيادتك النقود.

رمى الكونت ورق اللعب على المائدة بغيظ شديد.

أخذ دون لويس كل النقود بعدم اكتراث وهدوء.

بعد برهة من الصمت القصير تحدث الكونت.

- أيها القسيس، يجب أن تعطينى سيادتك فرصة للرد.

- لا أرى ضرورة لذلك.

- يبدو لى أن بين السادة...

- من هذا المنطلق لن ينتهي اللعب أبدًا، على هذا الأساس، من الأفضل عدم لعب الورق.

أردف الكونت دون أن يلتفت إليه:

– أعطني فرصة لاسترداد مالى.

– فليكن – قال دون لويس– أريد أن أكون كريما.

عاد الكونت وأخذ ورق اللعب واستعد لرمى الورق مرة أخرى. قال لويس:

– قف هنا، لنتفاهم أولاً، أين مالك الذي ستقامر به؟

أسقط في يد الكونت.

– لا نقود معى – أجاب – لكن يبدو لى أن كلمتى أفضل لأنها موثوق بها.

حينئذ قال دون لويس بلهجة رصينة وهادئة:

– سيدى الكونت، ليس عندى أى اعتراض على ثقتى فى كلمة سيد محترم أو على إقراضك لو لم أخشَ فقدان صداقتك التى اكتسبتها تقريبا، لكن منذ أن رأيت هذا الصباح القسوة التى كنت تتعامل بها مع بعض أصدقائى، وهم أصحاب دين عندك، لا أود أن أرتكب الخطأ نفسه، فلا حاجة لي أن أجلب على نفسى بإرادتى غضبك مقرضًا إياك النقود، التى لن تدفعها لى مثل التى لم تدفعها حتى الآن، إلا بالشتائم التى تدين بها ببيتا خيميث.

ولأن هذا الكلام كان صحيحا، كانت الإهانة كبيرة، اسود وجه الكونت من الغضب ونهض واقفا يريد أن ينقض بيديه على الراهب التلميذ. قال بصوت هائج:

- إنك تكذب، يا بذيء اللسان! سوف أقطعك بين يدى، يا ابن أكبر...!

هذه الإهانة الأخيرة، التى كانت تذكر دون لويس بخطيئة ميلاده، بشرف الشخصية التى كانت ذكراها عزيزة ومحترمة جدًا على نفسه، لم تصل إلى سمعه. بسط دون لويس ذراعه اليمنى، من فوق المائدة التى كانت بينه وبين الكونت، بمهارة مذهلة فى الرماية والقوة، مسلحًا بعصا أو بغصن وانحنى واجتاز به وجه عدوه رافعًا إياه بطرف العصا واسمًا وجهه من أثر الضرب.

لم يسمع صراخ ولا شتائم، ولا شغب لاحق. فعندما تشتبك الأيدى عادةً ما تسكت الألسنة. كان الكونت على وشك الهجوم على لويس كى يفتك به لو أمكنه ذلك، لكن الرأى منذ الصباح كان قد غير دفته ليؤازر دون لويس.

ردع قائد الخيالة والطبيب وحتى كوريتو، ردعوا الكونت بحماسة أكبر، الذى ناضل وحاول بشراسة أن ينقض عليه.

- اتركونى، اتركونى كى أقتله! صاح.

قال القائد:

- أنا لا أحاول أن أجنبك المواجهة، فالمواجهة لا مفر منها. أحاول فقط ألا تتصارعا مثل جلفين ودون مبدأ. سأفقد سمعتى لو شهدت مثل هذا الشجار.

- أحضروا الأسلحة - قال الكونت - لا يجب أن يتأخر الأمر دقيقه واحدة... في الحال وهنا...

قال الكابتن:

- هل تريد قتالاً بالسيف؟

- حسنا، أجاب دون لويس.

قال الكونت:

- أحضروا السيوف.

كان الجميع يتحدث بصوت خافت لكى لا يسمع أحد فى الشارع. حتى خدم الكازينو أنفسهم، الذين كانوا ينامون على المقاعد، فى المطبخ وفى الفناء، لم يستيقظوا. اختار دون لويس القائد وكوريتو ليكونا شاهديه فى المبارزة. واختار الكونت الرجلين الغريبين. الطبيب ظل محايدًا ليؤدي عمله ورفع راية الصليب الأحمر. كان الوقت مازال ليلاً. اتفقوا على جعل تلك القاعة ميدانًا للمبارزة وغلّقوا الباب أولاً. ذهب القائد إلى منزله لإحضار السيوف وعاد في الحال. وخبأها تحت معطفه. نعلم أن دون لويس لم يكن

أمسك سلاحًا فى حياته. من حسن الحظ أن الكونت لم يكن أكثر براعة فى المبارزة بالرغم من أنه لم يدرس علوم اللاهوت ولم يفكر قط فى أن يكون رجل دين. وشروط المبارزة اقتصرت على الآتى: ما إن يمسك أحدهما بالسيف عليه أن يفعل ما يفتح الله عليه به.

أغلق باب الصالة. أزيحت الموائد والكراسى فى أحد الأركان لكى تفسح المجال. علقت الأضواء بطريقة مناسبة. خلع دون لويس والكونت سترتيهما وصداريهما وأخذا سيفيهما. أخذ المشاهدون جانبا، وبإشارة من القائد، بدأت المعركة بين شخصين لا يعرفان ثباتًا ولا دفاعًا في معركة، لذا كان لابد أن تكون قصيرة جدا، وقد كانت.

انفجر غيظ الكونت الذي كظمه طويلاً وأعماه. كان قويًا، له قبضة من حديد، يضرب الهواء بالسيف خبط عشواء، لمس دون لويس أربع مرات، لكن من طيب الطالع لم تكن جروحًا غائرة. أصاب كتفيه، لكنه لم يجرحه، كان على رجل الدين أن يعتمد قوته وشبابه لكى لا يتأثر بالضربات القوية وبألم الكدمات . مازال الكونت يلمس دون لويس للمرة الخامسة وأصابه فى ذراعه اليسرى. هنا الجرح كان غائرًا، على الرغم من انحرافه. بدأ لويس ينزف بوفرة، توغل سيف الكونت تحت سيف لويس. وهذا بدلا من أن يستعد لذلك، أسقط سيفه وأصاب بسكين رأس الكونت. سال الدم باندفاع شديد، وانتشر على جبينه وزحف على عينيه. مذهولا من هول الضربة، خر الكونت بجسده على الأرض.

لم تدم المعركة إلا بعض ثانية. كان دون لويس هادئا، مثل الفيلسوف الرواقي الذى يجبره قانون الحاجة على الإتيان بمثل ذلك الفعل، على عكس عاداته وتفكيره. نظر إلى غريمه على الأرض، غارقًا فى الدم كالميت، وشعر بضيق شديد وخشي أن يحدث له مكروه، فهو الذى لا يعتقد أنه يستطيع قتل دودة كان على وشك قتل رجل، هو، الذى كان مازال ثابت العزم ليكون راهبًا، ليكون مبشراً، ليكون وزيرًا، وقاصدًا رسوليًا إنجيليًا، منذ خمس أو ست ساعات كان قد ارتكب أو متهمًا بارتكاب كل الجرائم فى وقت قصير جدا، وكان قد خالف كل الوصايا وقانون الله. لم يبق خطيئة مميتة لم يرتكبها. غايات القداسة البطولية والكاملة قد تلاشت أولا. حتى غايات القداسة السهلة، المريحة، البرجوازية، قد تلاشت أيضًا. قضى الشيطان على خططه. تصور أنه لن يستطيع حتى أن يكون "فليمون" مسيحيًا، لأنه في بداية حبه الخالد شج رأس رجل غير محترم بضربة سيف.

كانت حالة دون لويس، بعد كل قلق هذا اليوم، كمن عنده حمى دماغية. كوريتو والقائد اصطحباه إلى منزله. نهض دون بدرو مذعورًا عندما علم أن نجله عاد إلى المنزل جريحًا. ذهب لرؤيته وفحص الكدمات وجرح ذراعه ورأى أنه ليس بالخطير، لكنه صرخ متوعدًا بأنه سوف يأخذ بثأر ابنه بعد ذلك على تلك الإهانة، ولم يهدأ

حتى علم بالواقعة وأن دون لويس قد عرف كيف ينتقم لنفسه بالرغم من أنه رجل دين.

حضر الطبيب بعد ذلك بقليل ليعالج دون لويس وتنبأ بأنه فى غضون ثلاثة أو أربعة أيام من الممكن أن يخرج إلى الشارع، كالمعتاد. الكونت، على العكس من ذلك، لن يستطيع الخروج قبل مرور شهر. ومع ذلك، ليس هناك خطورة على حياته. أفاق من إغمائه وطلب اصطحابه إلى قريته، التى لا تبعد أكثر من فرسخ من المكان الذى وقعت فيه الحادثة. كانوا قد بحثوا عن سيارة مغطاة بالإيجار وحملوه بمصاحبة خادمه والغريبين الذين كانا شاهدين معه.

بعد أربعة أيام من الحادثة، بالفعل، كما توقع الطبيب، ودون لويس بالرغم من الكدمات والجرح الذى مازال مفتوحًا، كان فى حالة تسمح له بالخروج، وأمّل خيرًا فى استعادة قواه تمامًا فى مهلة قصيرة.

اعتقد دون لويس أن واجبه الأول هو الاعتراف لوالده بأنه يحب ببيتا، ويخبره بأنه يريد الزواج منها.

لم يكن دون بدرو قد خرج إلى الحقل، ولم يفعل أى شىء سوى الاعتناء بابنه طوال فترة مرضه. كان دائما بجانبه يصاحبه ويُدَلّله بحنان فريد.

في صباح يوم ٢٧ يونيو، بعد ذهاب الطبيب، ظل دون بدرو وحده مع نجله، حينئذ الاعتراف الصعب جدًا على دون لويس أخذ مكانه كما يلى:

- أبى، لا يجب أن أستمر فى خداعك أكثر من ذلك.

- ولدى، لو كان اعترافًا هذا الذى ستفعله، فمن الأفضل أن تطلب الأب نائب الأسقف، فرأيى قليل الفائدة، وسوف أغفر لك كل شيء، دون أن يفعل لك شيئًا غفرانى. لكن لو أنك تريد الاعتراف بشيء على قدر من السرية لصديق، ابدأ وأنا كلى آذان صاغية.

- ما أريد الاعتراف به لك زلة خطيرة جدًا وأنا خجلان منها...

- إذن لا تخجل من والدك وقل لى دون خوف من الحقيقة.

- هنا احمر وجه لويس كثيرًا وقال باضطراب واضح:

- إن السر الذى عندى هو أننى أحب... ببيتا خيمينث، وهى أيضا...

قاطع دون بدرو نجله بضحكة عالية واستمر فى الحديث:

- وهى أيضا تحبك، وعشية عيد القديس يوحنا كنت معها فى مناجاة عذبة حتى الساعة الثانية صباحًا، ومن أجلها سعيت إلى مشاجرة مع كونت خيناثار، الذى كسرت رأسه. إذن، أي بنى،

ما أشجعك إذ تعترف لي بهذا السر. لا يوجد كلب ولا قط في القرية لم يعلم كل الذي يحدث هنا. الشيء الوحيد الذي يبدو أنه من المحتمل في الخفاء هو طول الحديث حتى الساعة الثانية صباحًا، لكن بعض البائعات الغجريات شاهدنك تخرج من منزلها، ولم يتوقفن حتى حكينه لكل دابة على الأرض. بالإضافة إلى ذلك، أن بيتنا لا تخفي شيئًا أبدًا، وفعلت خيرًا، لأنه سيصبح سرًا على الملأ... فمنذ أن كنت مريضًا تحضر بيتنا مرتين في اليوم، ومرات أخرى ترسل أنطونيونا لتطمئن على صحتك، وإذا كنت أنا رفضت إدخال أحد عندك، لأنني رفضت، لكي لا يزعجك أحد.

الاضطراب والضيق ارتفعا إلى أقصى درجة عندما سمع والده يحكي كل القصة في اختصار شديد.

- يا لها من مفاجأة! - قال- يا لها من مفاجأة قطعًا لسيادتك!

- لا مفاجأة ولا دهشة، أي بني. أذيع الخبر في المكان منذ أربعة أيام والحق أنك ستصير سعيدًا، كم تبدلت، "انظروا إلى التلميذ كيف يعمل في الخفاء بخبث وسرية، انظروا المنافق والقط الميت"، هكذا يصيح الناس بمن تغير فجأة. وبالأخص، الأب نائب الأسقف الذي ظل مذهولاً. مازال حتى الآن يرسم علامة الصليب. أما أنا فلم تفزعني هذه الأنباء إلا لجرحك. ونحن

الشيوخ نشعر بنمو الحشائش. ليس من السهل أن يخدع الدجاج تاجر الدجاج الذى يبيعه.

- هذا صحيح، أردت أن أخدع سيادتك، لقد كنت منافقًا.

- لا تكن غبيًا، لا أقول ذلك لكى ألقبك بلقب قبيح. أقول ذلك لكى أعطى نفسى بهجة الذكاء. لكن فلنتحدث بصراحة: تفاخرى لا مبرر له. إننى أعرف خطوة بخطوة تطور حبك مع ببيتا من أكثر من شهرين، لكن أعلم ذلك لأن عمك الأسقف، الذى كنت تكتب له انطباعاتك، أشركنى فى ذلك، سمعت خطاب الاتهام من عمك، وسمعت الإجابة التى أعطانى إياها، مستندًا مهمًا جدًا أحتفظ بنسخة منه.

أخرج دون بدرو بعض الأوراق من جيبه، وقرأ الآتى:

خطاب من عمك الأسقف." أخى العزيز: يحزننى من أعماق نفسى أن أعطيك أخبارًا سيئة، لكني أثق فى الله أن يمنحك صبرًا وجلدًا كافيين لكى لا تغضب ولا تشعر بمرارة كبيرة. لويسيتو (تصغير لويس) كتب لى منذ أيام خطابات غريبة، حيث اكتشفت، من خلال اندفاعه وراء شعوره الدينى، ميلاً دنيويًا كبيرًا وأثيمًا نحو أرملة جميلة وغنجة موجودة في القرية. كنت مخدوعًا حتى هذه اللحظة، معتقدًا فى ثبات الدعوة الدينية عند لويس كعالم صالح ومثالى، لكن الخطابات المشار إليها أتت لتحطم أوهامى. لويس يبدو

لك في هذه الخطابات شاعرًا أكثر منه رجل دين رحيمًا، والأرملة، التي لابد من أنها امرأة شريرة، انتصرت عليه بالقليل الذي يفعله. بالرغم من أنني أكتب للويس أحذره لكي يهرب من هذا الإغراء. إنني متأكد من أنه سيقع في هذا الإغراء. لا داعي لأن يجعلني هذا آسفًا، لأنه إذا كان لابد من خطئه وأنه سيصبح مغازلاً للنساء ويتودد لهن، فمن الأفضل أن تتكشف حالته بوقت كاف قبل الوصول إلى الرهبنة. ومن ناحية أخرى، لا أرى ضررًا كبيرًا في أن تتاح للويس - على الأقل - فرصة أن يجرب ويحلل الاحتكاك في بوتقة هذا الحب، من أجل أن تكون هذه الأرملة هي التي تكشف لنا رد الفعل الذي بموجبه سنكتشف الصفاء الروحي لفضائله الدينية، أو الرابطة الوضيعة التي يختلط بها معدن هذا الذهب، ولكي لا نجد أنفسنا أمام عقبة أساسية؛ وهي أن الأرملة المذكورة خطيبتك، أو لا أدرى إذا كانت عشيقتك. وينتج عن ذلك أن ابنك سيكون خصمًا لك. وهذه فضيحة مروِّعة، ولكي نتجنبها بوقت كاف، أكتب لك اليوم، من أجل أن نتعلل بأي شيئ ونرسل لويس إلى هنا بأسرع ما يمكن".

كان دون لويس ينصت في صمت وعيناه ناظرة إلى أسفل. واصل والده:

وقد رددت على خطاب عمك بالآتي:

الإجابة: "أخي العزيز والأب الروحي الموقر. ألف شكر لك على هذه الأخبار التي أرسلتها لي كي تبصرني وتنصحني. برغم ذكائي، أعترف بعدم مهارتي في هذه الحالة. لقد أعماني الغرور، ببيتا خيمينث، منذ أن حضر نجلي، وهي تظهر لطفها وحنانها، وكان ذلك يؤكد سعادتي فاستبشرت بهِ سعيدًا. كان لابد من رسالتك لكي تخبرني بالواقع. الآن أفهم أن الذي جعلها لطيفة وحدا بها إلى إقامة عدة حفلات والتملق لي، لم تكن تنظر لي أنا ببيتا الخبيثة، بل كوالد القديس الصغير. لا أخفي عليك. لقد تضايقت وحزنت بعض الشيئ لخيبة الأمل في بادئ الأمر، لكن بعد ذلك، تأملت كثيرا في كل شيئ، بالنضج الواجب، تحول ضيقي وحزني إلى فرح وبهجة. الولد ممتاز، لقد شعرت نحوه بحب شديد منذ أن وجد معي. لقد افترقت عنه وسلمته لك لكي تقوم بتربيته، لأن حياتي لم تكن مثالية، في هذه القرية، كما يقال، ومن أجل أسباب أخرى، لأنه كان سينمو بطريقة همجية، أما أنت فلقد جاوزت آمالي، بل ورغباتي، وبقليل من الجهد كنت ستجعل من لويس أبا للكنيسة. ومسألة أن يكون لك ابن قديس كان سيروقني ويزيد من غروري، لكن كنت سأشعر بأنني مكثت دون وريث لمنزلي ولاسمي، يعطيني أحفادًا أكثر جمالاً وبعد وفاتي يستمتعون بأموالي، التي هي مجدي، لأنني اكتسبتها بعرق جبيني وبمهارة، ولم أفعل ذلك بالغش ولا بالدسيسة. ربما الاعتقاد بأنني كنت لم أجد وسيلة أخرى من أن يذهب لويس ليبشر وليعلم الصينيين

أصول علم الدين المسيحى، وللهنود وللسود المنكونجو، لذلك قررت الزواج لكى أؤجل وراثتى. من الطبيعى أن أضع عينى على ببيتا خيمينث التى ليست شريرة كما تتصور، بل مخلوق رقيق جدا، وطيبة القلب والخلق وعاطفية. ولدى انطباع جيد جدا عن ببيتا، التى لو عادت لتصبح ذات السادسة عشر ولها أم آمرة وعنيفة وكنت الثمانين، مثل دون جومرسيندو، لو كنت أرى الموت على الأبواب، لاتخذت ببيتا زوجًا، لألقى الموت مبتسمًا كأنها فى ثوب امرأة، ولتركت لها مركزى الاجتماعى وثروتى واسمى. لكن لا ببيتا عندها الآن ستة عشر عاما، بل عشرون، ولا هى خاضعة لأمها الخبيثة، ولا أنا عندى ثمانون عاما، بل خمسة وخمسون. لقد بلغت من العمر أرذله لأننى بدأت أشعر بأننى عاطل، مع بعض أعراض الربو والسعال الكثير والآلام الروماتيزمية والوعكات الأخرى، ومع ذلك، أعتقد أننى ولا بعد عشرين عامًا سوف أموت، وبما أننى أكبر من ببيتا خيمينث بخمسة وثلاثين عاما، أقدر المستقبل المنحوس الذى ينتظرها مع شيخ مثلي. بعد سنوات قليلة من زواجها منى سوف تضجر، بالرغم من أنها طيبة، لأنها فعلاً طيبة وكتوم لا تريد – دون شك – أن توافق علىّ زوجًا لها، بالرغم من الإلحاح والإصرار اللذين كنت أحرجها بهما. كم أشكر لها الآن – غرورًا منى وأنفة جريحة – اعتبار أنها إذا لم تحبنى فهى على الأقل تحب رجلاً من دمى، لقد أعجبت بابنى. إذا كانت لا تريد هذه العاشقة الغضة النضرة

الارتباط بالجذع المتهالك العجوز، تفرق منه، أقول، فلتصبُ إلى النبت الجديد الناعم الأخضر المثمر. باركهما الله ووفق هذا الحب. وقبل أن تأخذ مني الصبى مرة أخرى، سوف أحتفظ به هنا ولو بالقوة، إذا دعت الضرورة. لقد قررت التآمر على دعوته. أحلم بأن أراه متزوجًا. وسوف أجدد تأملى لهذين الزوجين اللطيفين اللذين جمعها الحب. عندما يعطياننى عددًا من الأطفال؟ بدلا من أن يذهب مبشرًا ويحضر لى من أستراليا أو من مدغشقر، أو من الهند، بعض المستقين الجدد فى الدين، بغناطيس وألعاب، أو الزنوج الملطخي الأوجه، أو أصفر ذا بشرة جافة وعينين مثل أم قويق، أليس من الأفضل أن يبشر لويس فى المنزل، ويخرج بوفرة طلاب العماد الشقر، المتوردين، بعيون مثل عيون ببيتا، ويشبهون شاروبيم بغير أجنحة؟ طلاب العماد الذين سيحضرهم لى من هناك يكون من الأفضل أن تكون بينهم وبينى مسافة لكى لا يلوثونى بالجراثيم أو لكى لا ينقلوا لى أى عدوى، أما الذين سيجلبهم من هنا سأشم رائحة زهور الجنة منهم، وسوف يأتون للجلوس على ركبتى، وسوف يلعبون معى، ويقبلونني ويناديننى "يا جدو"، ويضربونني على ما ستكون صلعتي في المستقبل. ماذا تريد؟ عندما كنت أنا فى قوتى لا أفكر فى المتع المنزلية، لكن الآن، بما أنى مقبل على الشيخوخة، إذا لم أكن قد وصلت بالفعل إليها. كما أننى بما أنني لم أكن راهبًا مقيمًا فى الدير، يسعدنى الآن أن أقوم بدور البطريرك، ولا تفهم من هذا

أننى سوف أحتجب فى انتظار أن ينجح ميلاد هذا الزواج، بل سوف أعمل على إنجاحه. باتباع مقارنتك، التى تتحول فيها ببيتا إلى بوتقة ولويس إلى معدن، أنا سوف أبحث، وبحثت فعلا عن كير أو بديل مفيد ليسهم في إشعال اللهيب لكى يصهر المعدن سريعًا. هذا المتمم هى أنطونيونا، مرضعة ببيتا، امرأة ماكرة، كتوم جدًا، تحب صاحبتها جدا. أنطونيونا متفهمة جدًا، وعلمت عن طريقها أن ببيتا غارقة فى الحب. اتفقنا على أننى أظل متغاضيًا عن الأمر وعلى أننى لا أفهم أى شيئ. الأب نائب الأسقف، الذى هو نفس من الله، دائما فى غيبوبة لا يعلم أى شيئ، أستخدمه مثلما أفعل مع أنطونيونا بل أكثر، دون أن يلاحظ هو، لأن كل شيئ يعود به ليتحدث عن لويس وببيتا وعن ببيتا ولويس، من حسن الحظ أن السيد نائب الأسقف الممتاز، وهو يحمل نصف قرن فى قدمه قد تحول، يا للمعجزة، من الحب والبراءة إلى حمام زاجل ومرسال للعاشقين الاثنين، يرسلان مغازلاتهما جاهلين بذلك هما أيضا. يا لها من تركيبة قوية من الوسائل الطبيعية والمصطنعة يجب أن تعطى نتيجة أكيده محققة. سوف أبلغك بموعد الزفاف، لكى تحضر وتعقد القران أو ترسل للعروسين بركاتك وهدية قيمة".

هكذا قرأ دون بدرو الرسالة، وعندما التفت لينظر إلى دون لويس ألفاه منصتًا وعينيه مغرورقتين بالدموع. الأب والابن تعانقا عناقا شديدا ومطولا.

بعد شهر بالتمام من هذا الحديث ومن هذه الرواية، احتفلوا بزفاف دون لويس بارجاس وببيتا.

كان الأخ الأسقف خائفًا من أن يكون أخوه يسخر كثيرًا من أن تصوُّف لويس كان باطلا، وبالإضافة إلى ذلك يعرف أن دوره غير مستساغ فى المكان، حيث يقول الجميع إن لديه ملكة إعداد قساوسة بلا موهبة، لذا اعتذر وتعلل بأن مشاغله كثيرة ولم يرد الحضور، بالرغم من أنه أرسل مباركته وقرطًا جميلاً جدًا هدية للعروس ببيتا. ولذا كان للأب نائب الأسقف شرف عقد زواجهما. العروس كانت مختالة بشكل حسن جدًا، وبدت جميلة جدا للجميع ومحترمة، وترتدى حزامًا من سلاسل حديدية بأطراف حول خصرها ورداء جميلاً.

فى ذلك المساء رقص دون بدرو رقصًا بارعًا فى فناء المنزل والصالونات المجاورة. وحضر خدم وسادة وأشراف وعمال أجراء، والسيدات والآنسات وفتيات المكان، واختلطوا معه فى أجمل عصر حالم فى العالم، والذى لا أعرف لماذا يسمونه بالعصر الذهبى. أربعة يعزفون القيثار لا يملون ولا يكلون، عزفوا موسيقى رقصة الفاندنجو الشعبية الشهيرة، غجرى وغجرية، من مشاهير المطربين، صدحا بالألحان وأبيات أغانى الحب مشيرين إلى تفاصيل العشق. وقرأ مدرس المدرسة نشيد العروس خصيصًا لهذه المناسبة.

وقدمت في الحفل فطائر مقلية، منها الفطائر المقلية بالعسل، وكعك صغير مغطى بالسكر، ونبيذ كثير للعامة، أما السادة فكان لهم العسل، الشيكولاتة، زهر البرتقال، وحلوى فاخرة من العسل، وعرق عنبرى متنوع، وعصير عنب ممزوج بالكحول ذكى الرائحة والفاخر جدا.

دون بدرو كان مثل تلميذ المدرسة، صاخبًا، كثير الحركة، مداعبًا ومغازلاً للنساء. وبدا غير صحيح ما صرح به لأخيه الأسقف من أنه مصاب بالروماتيزم وبوعكة. رقص رقصة الفاندنجو مع ببيتا ومع أكثر خدمه ملاحة ومع ست أو سبع شابات أخريات. يعانق كل واحدة، عند عودتها إلى مقعدها متعبة، عناقًا مناسبًا ومسرفًا فى العاطفة. بالغ دون بدرو فى ظرفه حتى أخرج السيدة كاسيلدا، التى لم تستطع الرفض، والتي، بعشرة أوزان من البدانة وفي حر يوليو، سكبت سيلاً من العرق من كل مسامها. أخيرا، ضرب دون بدرو كوريتو وجعله يشرب نخب العروسين عدة مرات من أجل سعادة الزوجين الجديدين، لدرجة أن البغّال اضطر إلى اصطحابه إلى منزله لينام ويفيق من سكره، ملقى على ظهر بغله في حالة من السكر الشديد.

استمر الرقص بعد ذلك حتى الساعة الثالثة فجرًا، واحتجب العروسان فى الخفاء قبل الساعة الحادية عشرة، وذهبا إلى منزل ببيتا، عاد دون لويس ليدخل في الضوء والأبهة والعظمة هذه المرة،

وكصاحب منزل وسيد محبوب، فى هذه الحجرة النظيفة، حيث دخلها فى الظلام منذ أقل من شهر قبل ذلك، وهو مليئ بالقلق والخوف.

على الرغم من أنهم فى القرية جرت العادة – ورغم أنه لم يحدث قطعيًا أن يحتفل بالأرمل أو الأرملة الذى يرتبط بزواج مرة ثانية– على ألا يتركوهما فى هدوء، بل يلاحقونهما برنين الجلاجل فى أول يوم من المشاركة الزوجية، إلا أن ببيتا كانت مليحة جدا ودون بدرو وقورًا ودون لويس محبوبًا جدًا، فلم يحدث أحد ضوضاء ولا أقل محاولة للرنين فى ذلك المساء، وهى حالة نادرة تسجل كما هى فى تواريخ العادات والتقاليد للقرية.

خاتمة

رسائل من أخى

كان من المفترض أن تنتهى هنا حكاية ببيتا ولويس، فهذه الخاتمة لا حاجة لها، لكن الأسقف كان يحتفظ بها بين الأوراق، ونظرًا إلى أننا لن ننشرها كاملة، فإننا سنعرض جزءًا منها، سنأخذ أى جزء منها.

لا يجب أن يبقى لأحد أدنى شك بأن السيد لويس، وببيتا، اللذين جمعهما حب لا يقاوم، وهما فى نفس السن تقريبا، هى فاتنة وهو شجاع ووسيم، ويعمر قلبيهما الطيبة والخير، قد عاشا لأعوام طويلة يتمتعان بكل سعادة الكون وسكينته. إلا أن هذا الذى يمثل فرضية جدلية لدى أغلبية الناس، هو استنتاج مشكوك فيه، قد يتحول لدى من يقرأ هذه الخاتمة إلى يقين.

والخاتمة، إلى جانب ذلك، تقدم بعض الأخبار حول الشخصيات الثانوية التى ظهرت فى الرواية، ويحتمل أن ينطوى مصيرها على أهمية لبعض القراء. تتلخص الخاتمة فى مجموعه من الرسائل، بعث بها السيد بدرو دى بارجاس لأخيه الأسقف، بدءًا من يوم الزفاف حتى أربعة أعوام من هذا التاريخ. وسننقل هنا أجزاء

قليلة وموجزة من هذه الرسائل قبل النهاية. دون وضع تواريخ، على الرغم من اتباع الترتيب الزمنى.

يبدى لويس أحر الامتنان إلى أنطونيونا، التى لولا خدماتها لما تمكن من الوصول إلى ببيتا. لكن هذه المرأة، الشريكة فى الخطأ الوحيد الذى ارتكباه هو وببيتا والعالمة بأمور المنزل، المحيطة بكل شيئ، كان استمرار بقائها معهما يمكن أن يسبب لهما بعض المضايقة على الأقل. ولكي يتخلص منها والإحسان إليها فى نفس الوقت، تمكن لويس من إعادة الحياة بينها وبين زوجها إلى طبيعتها، رغم أنها لم تكن ترغب فى العودة له والمعاناة من نوبات سكره اليومية، أما هو، زوجها نجل المعلم ثنيثاس، فقد وعد بعدم فعل ذلك أبدًا ومطلقًا. رغم هذا، وافقت أنطونيونا على العودة إلى حياة الزوجية، بالرغم من أنه وعد بذلك قدر استطاعته دون أن يتجرأ على الوعد بعدم فعله أبدًا. وأبدت هى ثقتها فى هذا الوعد واعتقد دون لويس بجدوى مقولة "وداونى بالتى كانت هى الداء" لمعالجة نجل المعلم ثنيثاس. وبعد أن سمع تأكيدات بأن صانعى الحلوى يسأمون من تناولها، استنتج أن أصحاب الحانات لابد وأنهم يسأمون الخمر والنبيذ، فأرسل أنطونيونا وزوجها إلى عاصمة الإقليم، حيث أعد لهما من ماله حانة رائعة. وهما يعيشان هناك سعيدين، حيث حصلا على العديد من الزبائن ومن الممكن أن يصبحا من الأغنياء. هو لا يزال يشرب الخمر فى

بعض الأحيان، لكن أنطونيونا التى أصبحت أكثر قوة ، كانت قد اعتادت ضربه حتى يستقيم.

أما كوريتو، فمع وسامته ورغبته فى تقليد ابن عمه، الذى يزداد به إعجابًا يومًا بعد يوم، ولمراقبته وغبطته السعادة الزوجية التى يحياها كل من ببيتا ولويس، بحث عن زوجة بمنتهى السرعة وتزوج من ابنة مزارع من هنا، سليمة الجسد ويانعة لها لون شقائق النعمان ويبدو أنها عما قليل ستصبح فى حجم ووزن يفوقان حماتها السيدة كاسيلدا.

الكونت خيناثار شفى من جرحه حسبما يقولون بعد أن قضى خمسة أشهر فى الفراش، وقد أصلح كثيرا من سفاهات الماضى، ودفع لببيتا أخيرًا نصف الدين، وطلب مهلة لدفع الباقى.

حل علينا كرب عظيم، رغم أننا إلى حد ما نتوقعه. فالأب الكاهن نائب الأسقف قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، بعد أن أثقلته سنون العمر. كانت ببيتا عند رأس فراشه حتى اللحظة الأخيرة، وأغلقت عينيه، وفتحت له بيديها الحانيتين فمه قليلا. ورحل الأب الكاهن عن الحياة رحيل عبد مبارك من عباد الله، فقد بدا الأمر كانتقال سعيد إلى مكان أكثر هدوءًا. رغم ذلك فإن ببيتا ونحن أيضا جميعا بكيناه بحرقة. لم يترك سوى خمس أو ست قطع من النقود إلى جانب أثاثه، لأن كل ما لديه كان يوزعه فى الزكاة. بموته كان الفقراء هنا

سيصبحون يتامى لولا ببيتا. الكثيرون فى البلدة يأسفون لوفاة الأب نائب الأسقف، وليسوا بقليلين الذين يرونه قديسًا حقيقيًا، وشخصًا يستحق أن يكون فى الأضرحة، كما نسبوا له المعجزات. أنا لا أعرف شيئًا عن ذلك، لكننى أعلم أنه كان رجلا ممتازًا، ومن المؤكد أنه صعد سعيدًا إلى السماء، حيث سيصبح شفيعًا لنا. ومع كل ذلك فإن تواضعه وخشوعه وخوفه من الله بلغ به أنه كان يتحدث عن ذنوبه عندما حضرته الوفاة، كما لو كان لم يتخلص منها، ويرجونا أن نطلب له الغفران وأن نصلى من أجله.

تركت هذه الحياة وهذا الموت فى نفس لويس انطباعًا عميقًا، من الواجب الإقرار بذلك فربما كان رجلا بسيطًا، لكنه تمتع بإرادة صلبة وعقيدة راسخة وشفقه كبيرة. يقارن لويس نفسه بالأب نائب الأسقف ثم يقول: إنه يشعر بالصغر، وقد أصاب ذلك قلبه بشىء من الحزن المرير، لكن ببيتا - التى تعرف الكثير - تبدد هذا الحزن بالابتسامات والحب.

كل شىء يزدهر فى المنزل. لدينا أنا ولويس صناديق نبيذ لا يوجد مثلها فى إسبانيا لا فى شريش وحدها. حصاد الزيت هـذا العام كان ضخمًا. يمكننا الحصول على كل مظاهر الترف التى ترغب فيها، وأنا أنصح لويس وببيتا أن يسافرا إلى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا عندما تخرج ببيتا من همها وتشفى. فهما يمكنهما ببصيرة أن

ينفقا ببذخ بضعة آلاف فى الرحلة وإحضار تحف من الكتب والأثاث والأعمال الفنية لتزين مسكنهما.

انتظرنا أسبوعين كى يتوافق موعد التعميد الذكرى الأولى لزواجهما. الطفل جميل كالبدر ويتمتع بصحة جيدة. كنت أنا إشبينه كما أعطيناه أسمى، وأنا أحلم أن يتحدث بريكينو ويقول شكرًا.

كى يصبح كل شيء على ما يرام لهذين الزوجين العاشقين يبدو الآن طبقا للخطابات الواردة من هافانا أن شقيق ببيتا، الذى كنا نشتكى من أن العائلة تتحيز له لخداعه، سيقوم تقريبا بتشريفها وسيغدو مصدر فخر لها بعد أن أصبح رجلاً ذا قيمة. فى ذلك الوقت الطويل الذى لم نكن نعلم عنه فيه شيئًا، استفاد هو من الظروف وكان التوفيق ملازمًا له. فقد حصل على عمل جديد فى الجمارك، ثم تاجر بعد ذلك فى الزنوج، قبل أن يحدث له ما يجعل رجل الأعمال يبدأ ومن جديد نتيجة توقف تجارته، إلا أنه اليوم أكثر توفيقًا بعد أن انضم إلى الطبقة الأرستقراطية الأولى ويمكنه أن ينال لقب أمير أو دوق، وتخاف ببيتا وتتأذى من هذه الثروة المفاجئة، لكننى أقول لها ألا تكون بلهاء، فإذا كان شقيقها لا يزال مخادعًا، أليس الأفضل أن يكون وهو على ذلك، في برج حظه؟

كنا نستطيع أن نستمر على هذا المنوال لولا إشفاقنا من إرهاق القراء، لذا سنحاول أن نختم بذكر جزء من إحدى الرسائل الأخيرة.

عاد أبنائى من رحلتهم بصحة جيدة وأصبح بريكيتو شقيًا وجميلا. لويس وببيتا قررا عدم السفر مجددًا مهما طال بهما العمر. إنهما يحبان بعضهما البعض أكثر من أى وقت مضى. أحضرا أثاثًا أنيقًا والكثير من الكتب وبعض اللوحات، ولا أعرف كم اشتريا من الحلى الجذابة من هذه الدول وخصوصًا باريس وروما وفلورنسة وفيينا. هذا إلى جانب مشاعرهما والحنان والود الذى يعاملان به ويعاملان به الجميع، وهما بذلك يبثان أثرًا إنسانيًا فى العادات، فالأناقة والذوق الطيب، اللذان يزينان بهما منزلهما، سيكونان مفيدين كى تنتشر الثقافة الخارجية وتشيع.

يعتاد الناس في مدريد وصفنا بالكسل والبذاءة، ولكنهم يبقون هناك ولا يأتون لتطهيرنا، من قبل كان الأمر عكس ذلك. وعندما يوجد شخص بيننا يعرف أو يقدر أو يعتقد أنه لا يعرف أو يقدر، لا يستمر به الأمر طويلا، ويترك الريف وقرى الأقاليم المهجورة لو كان ذلك بإمكانه. أما ببيتا ولويس فيبدو لهما عكس ذلك، وأنا أحبيها بكل كيانى. فهما يحسنان ويجملان كل شيء، ويصنعان من هذه العزلة جنتهما.

ولا تتخيل – رغم ذلك – أن ميل لويس وببيتا للرفاهية المادية قد أوهن عندهما الشعور الدينى ولو بأقل قدر. فورعهما يزداد عمقًا كل يوم، وفى كل قدر من سعادة أو رضا يحصلان عليه أو يمنحانه لغيرهما يريان خيرًا جديدًا من السماء، وهما مجبران على شكره

أكثر. كما أن هذا القدر من الرضا والسعادة لن يكون كذلك، ولن تكون له قيمة أو معنى أو جوهر بالنسبة لهما، إذا لم تقدر الاعتبارات والعقيدة الراسخة فى الأمور الدينية تلك القيمة.

لويس لا ينسى أبدًا، وسط سعادته الحالية، انهيار المثل الأعلى الذى حلم به. ففى بعض الأوقات تبدو له حياته الآن فظة وأنانية ومبتذلة مقارنة بحياة التضحية والوجود الروحى التى اعتقد بأنه خلق من أجلها فى مطلع سنوات شبابه. لكن ببيتا تعتنى بتبديد هذا الحزن وحينئذ يفهم لويس ويؤكد أن الإنسان يمكنه خدمة الله فى كل الأحوال والظروف ويتوافق مع العقيدة الحية، وحب الله اللذين يملآن روحه، بهذا الحب المسموح به لما هو دنيوى وفان. لكن فى كل ذلك يضع لويس أساسًا إلهيًا، من دونه لم يكن ليرى فى النجوم التى تسبح فى الفضاء أو فى الزهور والثمار التى تزيّن الحقول، ولا فى عينى ببيتا أو فى براءة وجمال بريكيتو شيئًا لطيفًا. فالعالم الكبير، وهذا الصنع العظيم للكون، يقول هو إنه دون إلهه القدير، كان ليبدو له ساميًا، لكن دون نظام أو جمال أو هدف. وبالنسبة للعالم الصغير، كما اعتاد أن يطلق على الإنسان، لم يكن ليحبه أيضا لو لم يكن سبب وجوده هو الله. وهذا ليس لأن الله يأمره بحبه، لكن لأن كرامة الإنسان واستحقاقه أن يكون محبوبا يكمنان فى الله، الذى لم يصور روح الإنسان على صورته فحسب، بل شرف الجسم البشرى، جاعلاً منه معبدًا حيًا للروح، واتصل معه عن طريق السر، وعظمة لدرجة أنه

جمع بينه وبين فعله غير المخلوق. لهذه الأسباب وأخرى لا أوفق في شرحها هنا، يتعزى لويس ويتوافق مع كونه لم يصبح رجل دين وتصوف، ويبعد عن نفسه ذلك الحسد الكبير الذى رمق به الأب نائب الأسقف يوم وفاته. لكن سواء هو أم بيبتا فهما يمارسان عبادة مسيحية كبيرة يشكران فيها الرب على الخير الذى ينعمان به، ولا يريان قاعدة أو سببًا أو دافعًا لهذا الخير سوى الرب نفسه.

ولهذا يوجد فى منزل أبنائى بعض القاعات التى تبدو كمصلى كاثوليكى أو أماكن للعبادة لكن على الاعتراف بأنها تحوى أيضا أشياء وثنية، مثل شعر الريف الرعوى الذى نبت وتطور خارج أسوار المدينة.

ولم يبق بستان بيبتا كذلك، بل أصبح حديقة غناء بأشجار الصنوبر البرازيلى وأشجار التين الهندية التى تنمو هنا فى الهواء الطلق، ومع الاهتمام بها حيث تعج بنباتات غريبة.

مكان الطعام، حيث أكلنا الكرز تلك الليلة، التى كانت ثانى ليلة يتقابل فيها لويس وبيبتا ويتحدثان، تحول إلى بهو أنيق ذى رواق وأعمدة من الرخام الأبيض. فى الداخل توجد صالة رائعة تحوى أثاثًا مريحًا. ويزينها لوحتان رائعتان، إحداهما تمثل بيسكس، تكشف وتتأمل وهى مذهولة على ضوء مصباحها الحب النائم فى فراشها وأخرى لكلوى عندما تختبئ حشرة الزيز الهاربة فى صدرها،

حيث تعتقد أنها أصبحت فى أمان. وفى ذلك الظل الهانئ تشرع فى الغناء بينما يحاول دافينس إخراجها من هناك.

يجمل المكان البارز تمثال صنع بشيء من الدقة من رخام كارارا لفينوس، كما لو كانت تترأس الصالة، وعلى الحامل وفى حروف من ذهب، طبعت هذه الأبيات للوكريسيوس:

بدونك لا يظهر أي شيء من النور فى الأقاليم،

ولا تنبت البهجة والسرور ولا الحب.

ملحق

إلى السادة أبليتون

سادتى الأجلاء، كان الغرض من كتابة المقدمة أن أصدّق على هذه الطبعة التى ستقومون بها لترجمة رواية ببيتا خيمِنيث إلى اللغة الإسبانية، بصفتى المؤلف، لكن لاعتبارات أخرى كثيرة، أتت لذاكرتى حكاية طريفة كنت قد سمعتها فى شبابى. بحث شاب عمن يقدمه فى منزل أحد السادة، حيث أقيم حفل رائع للرقص، وعهد بهذه المهمة إلى صديق كان يتيه بأنه على وثيق الصلة بذلك السيد العظيم. نجح الشاب فى حضور الحفل بعد أن قدمه الآخر، لكن السيد قال لهذا: "وأنت من يقدمك؟ فأنا لا أعرفك". وبما أننى أحترم وأحب هذا البلد، بالإضافة إلى أننى أعرف ما فى مثل تلك الواقعة من مرح، فلا يجب أرد أنا كما يقولون إنه كان رد ذلك الآخر: "الآن أذهب ولست بحاجة إلى من يقدمنى أو يزكينى". أستنتج إذن، كمغزى صريح وواضح، أنه لا يجب أن أتوجه لجمهور الولايات المتحدة، الذى كنت دائما غريبًا عنه ككاتب، مهما تكن لحكومته علاقات طيبة وودية عند تقديمى، وممثله فى شخصى.

إذن، من المناسب ومن الحكمة أن أقتصر على توجيه عميق الشكر لسيادتكم لطلبكم منى الإذن، الذى لم تكونوا بحاجة إليه، لا بالقانون ولا بالوساطة، لأنكم تريدون تعريف مواطنيكم على الأقل

بثمرة موهبتى العقيمة، ولأنكم تفكرون بكرم فى مكافأتى بحقوق المؤلف.

هذا لا يمنع، عند توجهى بالشكر لسيادتكم بحروف نموذجية، أن أرتبط بعهد لم أرتبط بمثله في حياتى، لا فى ألمانيا، ولا فى إيطاليا، ولا فى بلاد أخرى، حيث ترجمت أعمالى، لو أن الرواية لم تعجبهم هناك، على الرغم من أن هذا يؤلمنى بالطبع، سوف أهز منكبى وألقى اللوم على من ترجمها وقدمها للمطبعة.

ببيتا خيمنِيث أصبحت مشهورة جدا فى إسبانيا، وأيضا بين كل الأمم التى تتحدث اللغة الإسبانية. أننى أعتقد بتحفظ غير محدود، أننا نحن الإسبان اليوم أصبحنا إما أكثر ميلاً للسرور، أو أكثر فظاظة، أو أسوأ متذوقي الأدب على الأرض.

لكن هذا لا يكفى لإزالة ريبتى من أن روايتى ستقابل بازدراء أو باتهام لو ترجمت لجمهور موجه ضد إسبانيا بمفاهيم خيالية.

إن روايتى من حيث الشكل والمضمون، هى من أكثر الروايات أصالة وخصوصية يمكن تصورها. قيمتها، لو أن لها قيمة، تكمن فى اللغة والأسلوب وليس فى المغامرات، التى تحدث فى كل خطوة، ولا فى العقدة البسيطة جدا أو المنعدمة تقريبا.

ومن وجهة نظرى، لا يعدم شخوص الرواية فرادة تحدد ملامحهم ولا حقيقة إنسانية تجعلهم يبدون أشخاصًا أحياء، لكن

الأحداث بسيطة جدا - وهذا يلاحظ بالتحليل الرفيع وفى تعبير الشخوص عن مشاعرهم، وهو ما يمكن فقدانه عند الترجمة. يوجد فى روايتى، بالإضافة إلى ذلك، بعض التهكم اللطيف والبريء، وبعض الفكاهة التى تشبه الفكاهة الإنجليزية أكثر مما تشبه طريقة الفرنسيين. والسبب الرئيسى، أخيرا، لنيل ببيتا خيمنيث فى بلدى مثل هذا النجاح قد يغيب، فى رأيي، عن القارئ غير المنتبه.

أؤمن بمذهب الفن للفن، وأرى من غير اللائق دائما ومن قبيل الادعاء أو الحذلقة المألوفة، محاولة إثبات نظرية فرضية بكتابة قصة. فيما ينبغى أن تكتب لهذا الغرض دراسات أو كتب تعليمية بحتة وصارمة. الغرض من كتابه رواية يجب أن يكون الإمتاع ومحاكاة العواطف والأفعال البشرية وإبداع رواية جميلة على أساس المحاكاة المشار إليها. إن الغرض من الفن هو خلق الجمال، ويحقره من يخضعه لغرض آخر، حتى لو كانت الفائدة رفيعة. لكن، فى ظروف مشتركة مواتية وإلهام، لأن كل شيء اتفق فى لحظة كما لو كان بفعل السحر أو بفعل إرادة خارقة للطبيعة، يمكن أن تأتى نفس المؤلف لتكون مثل المرآة النظيفة والسحرية، لتعكس الأفكار والأحاسيس التى تهز الروح الجماعية لشعب ما، فتذوب حينذاك الخلافات ويجتمع أفراده ويأتلفون فى وفاق عذب وتناغم.

وتلك حال ببيتا خيمنيث، لقد كتبتها عندما كان كل شيئ فى إسبانيا متأرجحًا وخارجًا عن سياقه، بفعل ثورة متطرفة اقتلعت من

جذورها استقرار البلاد السياسى والدينى. كتبتها عندما كان كل شيئ مسبوكًا مثل المعادن المصهورة، من الممكن أن تدخل فى قالب وتمتزج بسهولة، وفى زمن الصراع المحتدم بين القديم والجديد. وكتبتها وأنا فى عنفوان حياتى، عندما كانت نفسى أكثر صحة وسرورًا بتفاؤل أحسد عليه، وبخطابية مفرطة ولطيفة محببة للجميع لم أظهرها بعد ذلك من أعماقى بكل أسف.

لو أننى سعيت إلى الجدل وإلى توفيق الآراء والمعتقدات لكان الاستياء عامًا، لكن بما أن الروح المصالحة والامتزاج ظهرت بطريقة غريزية، فى حكاية مرحة، أقبل الجميع عليها وصدقوا عليها، ليخرج كل فرد من روايتى بالخلاصات التى تتفق معه. من أكثر الآباء اليوسعيين صرامة إلى الثورى الأكثر غضبا، ومن المسيحى المتطرف، الذى يحلم بإعادة محاكم التفتيش، إلى التابع للمذهب العقلاني، العدو المتطرف للأديان، جميعهم أعجب بببيتا خمينث. الطريف، وليس الغريب، سيكون توضيح هنا كيف نجحت فى إرضاء الجميع، دون أن تفرض عليهم، دون معرفة وبمحض المصادفة.

منذ أعوام، أرسل وزير محافظ إسبانى ابنه فى العماد ليدرس الفلسفة فى ألمانيا. بالمصادفة النادرة، هذا الابن، الذى يدعى خوليان سانث دل الريو، كان رجلا بالغ الذكاء، وبجهد لا يمل ولا يكل، وبكل طاقته اجتهد فى تحصيل العلم، درس، وشكل منهجه وحصل على كرسى الفلسفة الميتافيزيقية من جامعة مدريد، وأسس مدرسة

تخرج فيها أفواج من الأدباء والفلاسفة، من السياسيين والرجال المحترمين المشهورين من بينهم السياسى الأشهر نيكولاس ساليرون، والتربوى الكبير فرانسيسكو جينر، وجومر سيئدو أثكارات وفيدير يكو دى كاسترو وأوربانو جونثالث سيرانو. فبدأ أنصار الكهنوت شن حرب على المعلم وعلى التلاميذ بادعاء أنهم يتبعون المذهب الصوفى القائل بألوهية الكون.

وأنا، الذى كنت أسخر أحيانا من المصطلحات المعقدة ومن الضجة ومن المنهج الذى يستخدمه الفلاسفة الجدد، أعجبت بهم مع ذلك، وخرجت فى الصحف والمجلات للدفاع عنهم، بطريقة غير مبتذلة. قبل ذلك، قلت: إن عظماءنا من رجال الدين المذهبيين، وبالأخص دومنجو دى سوتو الجليل، كانوا أكثر ليبرالية من ليبراليى المذهب العقلانى، لأنهم يرون بسلطة الشعب بالحق الإلهى، لأنه لو أن السلطة تأتى من الله، حسب القديس بولس، فستكون عن طريق الشعب الذى ألهمة الله لكى يتوحد، ولأنه لا توجد سلطة من أصل إلهى مباشرة سوى الكنيسة.

التزمت إذًا بإظهار؛ أنه لو كان سانث دل الريو والتابعون لمدرسته يعتنقون مذهب ألوهية الكون؛ فرجال الدين الصوفيون من القرنين السادس عشر والسابع عشر هم أيضا تابعون للمذهب نفسه، وأن بعضهم أسلاف فيشت Fichte وشيلينج Schelling وهيجل وكراوس والقديسة تريزا، القديس خوان دى لاكروث، واللامع

والثابت الأب ميجيل دى لا فوينت. مثلا كانوا يتبعون تاولير Tauler والألمان الآخرين.

لكى أقوم بمهمتي، قرأت ودرست بحماسة جميع المصادر الإسبانية التى وقعت تحت يدى، عشقت للوفرة التى توجد في أدبنا فى هذا النوع من الكتب، وكنز القصائد التى تتضمنها، وجرأة وحرية المؤلفين، والملاحظات العميقة والشفافة التى يمتحنون بها ملكة النفس، التى يتقدمون فيها على المدرسة الاسكتلندية، وكيف يصلون إلى التوغل فى مركز العقل، إلى أعلى جَزْر من جوهر الروح لكى يرى ويجتمع بالله هناك، دون أن يفقد شخصيته ولا قيمة الحياة النشطة، بل خارجا من شرودات العقل والقلب وشطحات الحب الإلهى؛ والتى هى أنفع أفعال النوع البشري، مثلما يخرج الفولاذ أكثر نقاء وأفضل مما كان وهو منصهر فى الفرن.

من كل ذلك، اخترت ما هو أكثر شاعرية وأكثر سهولة للفهم، وأردت أن أعطى عينة للجمهور الأسبانى الحالى الذى كان قد نساه، لكن بما أننى كنت رجلا من زمني، من العامة، ليس نادّما على خطاياه وله سمعة زنديق، لم أجرؤ على الحديث باسمى، فاخترت طالب لاهوت لكى يتحدث. تصورت بعد ذلك أننى أرسم بحيوية أكثر أفكار وإحساس هذا الطالب مقارنًا هذا بحب دنيوى، وهكذا ولدت بيبيتا خيمينيث. هكذا أصبحت روائيًا أنا الذى لم يخطر ببالى ذلك. وروايتى، إذن، اكتست بالنضارة والتلقائية دون سبق الإصرار.

أما جميع الروايات التى كتبتها بعد ذلك بتعمد فكانت أسوأ من ببيتا خيمينث؛ رغم أنها أعجبت الكثيرين ممن اطلعوا عليها حسب ما يقال. فالتابعون للمذهب العقلانى افترضوا أننى أنبذ المثل العليا القديمة، مثل بطل روايتى الذى ترك الرهبنة، والذين يؤمنون بالعقيدة كانوا يقارنوننى بالرسول الزائف، الذى بدل أن يلعن الشعب الإسرائيلى امتدحه. فى الواقع -إذا كان يجب الخروج باستنتاج من قصة ما، ومن روايتى فى هذه الحالة- فإن الاعتقاد بالله، على نحو شخصى وقدري، وحب هذا الإله الذى يوجد فى قلب الروح، حتّى عندما تفتقد إلهامًا ربانيًا أسمي يحثنا ويراودنا، حتى عندما نرتكب فى ليلة واحدة، مثل دون لويس، تحت تأثير عواطف دنيوية متأججة، كل الخطايا الكبيرة تقريبا، فإن الحب الإلهى يرفع النفس ويطهر الحب الآخر ويدعم ويعضد الكرامة الإنسانية وينفح أشد أفعالنا وأحوالنا وسبل عيشنا ابتذالاً، ينفحها شعرية ونبلاً وقداسة.

هذه، فى رأيى، الرواية التى سوف تقدمونها للجمهور الأمريكى. أكرر إذًا أننى ليس لى الحق لكى أقوم بعمل مقدمة لهذه الرواية. ولو طرحنا جانبا البعد الروحي، فقد تثير روايتى اهتمام الجمهور الأمريكى وتمتعه ساعتين، وتنال بعض استحسانه، لأن من يعتد القراءة الكثيرة، كالجمهور الأمريكي، لديه تسامح وروح منفتحين وعالمين بعكس الجمهور الإنجليزى الحصرى جدًا.

كان عندى دائما وهم مرده الغرور الوطنى، وهو الاعتقاد بأن هناك شيئًا اسمه الأدب الأمريكى، له شرعيته واستقلاله الواضحين. انتشرت اليونان فى العالم فى صورة مستعمرات مزدهرة، وبعد غزو الاسكندر بنيت دول قوية فى مصر وسوريا وحتى بختر أو باكترا القديمة، بين أناس لديهم حضارة خاصة رفيعة، ولم يكونوا مثل هنود أمريكا. ومع ذلك، على الرغم من هذا الانتشار، وعلى الرغم من هذا الاستقلال، لا يوجد غير الأدب اليونانى، الشيء نفسه فى صقلية، فى ايطاليا وفى الإسكندرية وأثينا. بمفهومى أنا، إذن ولهذه الأسباب بالذات، يوجد فقط أدب إنجليزى، سواء فى نيويورك أم بوسطون أم لندن أم إدنبرة، هكذا مثلما لا يوجد أكثر من أدب إسبانى واحد فى المكسيك وفى بوينس أيرس وفى مدريد ، وأدب برتغالى واحد فى ريو دى جانيرو ولشبونة، إن التوحد السياسى هش، لكن بين من يتحدثون اللغة نفسها ومن ينحدرون من سلالة واحدة، تقوم روابط من الأخوة الروحية لا تنفصم عراها، مثل الحضارة لا يقضى عليها. هنالك ملوك وأباطرة خالدون يسيطرون ويحكمون فى أمريكا، بحق إلهى حقيقى، لا يستطيع أى جورج واشنطون ولا سيمون بوليفار أن يقف ضدهم، ولا أى فرانكلين بوسعه انتزاع ملكيتهم. هؤلاء الطغاة يسمون ميجل دى ثربانتس ووليم شكسبير ولويس دى كاموينش.

كل ذلك لا يمنع الشعب الجديد من أن يلتهم التراث العادى والشائع من ثقافة سلالته، عنصرًا غنيًا، آثارًا جميلة الصفات، وربما

أمجاد عظيمة. هذا ما أراه، فى هذه الثقافة الأمريكية من أصل ولغة إنجليزية، بعض المقاصد العريضة، بعض من العالمية، وبعض من الفهم الودى لما هو أجنبى، فهم واسع مثل القارة الأمريكية وصداقة كصداقة أمريكا الوثيقة لإنجليز الجزر. بهذه المواصفات آمل نجاح كتابى المتواضع، كما آمل أن يعرف الأدب الإسبانى ويقدر فى بلادكم كما هو معروف ومقدر هنا فى بريطانيا العظمى. الآن، أحرز الأمريكان مكانة مرموقة، ومنهم واشنطن إيرفنج وبريسكوت وتيكنور ولونجفلو وهويلس، وآخرون ترجموا، واحترموا وأثنوا على كتابنا الإسبان.

أستميحكم العذر لأننى أتعبتكم برسالة طويلة واعتبرونى صديقكم الشاكر لكم حسن استماعكم.

خوان باليرا

نيويورك، ١٨ أبريل عام ١٨٨٦

المراجع

1- Bravo- Villasante, C: Biografia de don Juan Valeray la Generacion de 1868.

2- Feal Deibe, C : Pepita Jimenez o del misticismo al idilio," Bulletir Hispanique, Lxxxvi, 1984, Pags. 473-483.

3- Garcia Lorenzo, Juan Valera, Pepita Jimenez, edicion, introduccion y notas, Madrid, Alhambra, 1977.

4- Amoros, A: Introduccion a Juan valera: Pepita Jimenez, Madrid, Espasa- Calpe, 1986.

5- Bravo- Villasante, C: Pepita Jimenez, mujer actual, Madrid, FUE, 1976.

6- Diaz Petterson, R.: " Pepita Jimenez, , de Juan valera o la vuelta al mundo de los sentidos," en Arbor, XC, 1975, pags. 359-370.

7- Tierno Galvan, E.: " Don Juan valera o elbuen sentido", en Idealismo y pragmatismo en el siqlo XIX espanol, Madrid, tecnos, 1977, pags- 95-130.

8- Gullon, G.: "Tecnica narrative en Pepita Jimenez y Juanita la larga ", en El narrador en la novella del Siglo XIX. Madrid, Taurus, 1976, pags. 149-172.

9- Lott, R.E.: "Pepita Jimenez and don Quijote: A Structural comparison," Hispania, XLV, pags. 395- 401.

10- " Pepita Jimenez y Don Juan tenorio: unos paralelos mas insospechados,' Hispania, LXX VIII, 1983, num. 78, pags. 21-31.

11- " Pepita Jimenez, novella abierta," en F. Rico, HCLE, 5/1 Romanticismo y realismo, por I.M, Zavala, Barcelona critica, 1994, pags 272-275.

12- Ruano de la Gaza, J.M.: " la identidad del narrador de los paralipominos de Pepita Jimenez", en RCEH, VII, 1984, pags 335-350.

13- Serrano Puente, F.: " La estructura epistolar en Pepita Jimenez y La Estafeta Romantica," en Cuadernos de Investigacion, Filologia, Colegio Universitario de logrono, mayo, I (1975), pags 39-63.

14- Vidart, L.: " Recuerdos de una polemica acerca de la novella de don Juan Valera, Pepita Jimenez, en Revista de Espana, LIII, 1876, pags 269-284.

15- Villegas Morales, J.: " Pepita Jimenez de Juan Valera. I, Notas al narrador. 2. la verosimilitud estetica de Juan valera", Ensayos de interpretacion de textos espanoles, Santiago, Edit universitaria, 1963, pags. 143-160.

16- Sotelo. A." Pepita Jimenez, introduccion y notas, , Madrid, SGEL, 1983.

17- Perez Gutierrez, F.: " Juan Valera", en el problema religioso en la Generacion de 1868, Madrid, Taurus, 1974, pags 21-96.

18- Demetrio Estebanez Calderon,: " Pepita Jimenez, Introduccion y notas", El libro de bolsillo, Literatura Espanola. Alianza Editorial, S.A., Madrid, 1998.

المؤلف فى سطور:

خوان باليرا (١٨٢٤-١٩٠٥) فقد كان ليبراليًا معتدلاً ومتسامحًا و"ديكارتيًا متأنقًا" فيما يتصل بالظاهرة الكاثوليكية فى إسبانيا فى القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من بعد الشقة الآن عن الماضي، فقد كانت إسبانيا على مدار العصور وحتى وفاة فرانكو معقلاً عتيدًا للكاثوليكية؛ لذا كانت "المسألة الكاثوليكية" من ضمن اهتمامات المفكرين وشغلهم الشاغل فى بحثهم عن طرائق جديدة ومسارات للمجتمع المدني. ففى مواجهة الفكر الظلامى ظهرت شخصية "المفكر الحر" الذى يراهن على الحرية والديمقراطية والعلم. أتأتى من هنا راهنية هذا النص؟ أتخطئ هنا مقولة ثربانتس "لا طيور اليوم فى أوكار الأمس"؟ هذا ما سوف يجيب عنه القارئ بعد أن يقرأ هذا المترجَم.

وهو كاتب روائى خرج من عباءة واقعية العادات والتقاليد ليكتب فيما بعد أعمالاً تنطوى على بعض الطروح النظرية، وهو هنا ينضم إلى ذلك العرض المهيب من كُتّاب الغرب الذين كتبوا روايات بطلاتها نساء.

المترجم فى سطور:

ثريا سعد الدين شلبى

- دراسات فى اللغة الإسبانية وآدابها بجامعة هافانا (كوبا) من ١٩٦٤ حتى ١٩٦٨.
- ليسانس فى اللغة الإسبانية من كلية الألسن – جامعة عين شمس ١٩٧٣.
- دراسات عليا فى الأدب الإسبانى المعاصر بجامعة كمبلوتنس بمدريد (إسبانيا) من ١٩٧٥ حتى ١٩٧٩.

ماجستير فى الأدب الإسبانى المعاصر من كلية الألسن جامعة عين شمس ١٩٨١ (أول ماجستير فى الأدب الإسبانى من إحدى الجامعات المصرية).

دكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى فى الأدب الإسبانى المعاصر من كلية الألسن جامعة عين شمس ١٩٨٧ (أول دكتوراه فى الأدب الإسبانى، تناقش من إحدى الجامعات المصرية).

- شاركت فى عدة مؤتمرات داخل وخارج البلاد، وأهمها المؤتمر العالمى للذكرى الخمسين لوفاة الكاتب الإسبانى باى

إنكلان بدعوة شخصية عام ١٩٨٦؛ والذى أقيم فى جاليثيا (Galicia)، مشاركة ببحث عن "فن الدراما لدى إنكلان".

- رشحت لعدة مهمات علمية بإسبانيا لجامعة الأوتوناما بمدريد عام ١٩٨٨، ١٩٩٠، ١٩٩٥.
- أستاذ زائر بجامعة الأوتونوما عام ١٩٩٢.
- حاليا أستاذ الأدب والنقد الإسبانى (المتفرغ) بكلية الألسن جامعة عين شمس.
- نشرت العديد من الدراسات النقدية فى الأدب الأسبانى وأدب أمريكا اللاتينية (على سبيل المثال):

١- "الخيال الجديد" فى مائة عام من العزلة لجابريل جارثيا ماركس.

٢- "الإحساس البيئى" فى رواية طريق الكمال للكاتب الأسبانى بيو باروخا.

٣- "التعصب الدينى" فى رواية دنيا برفكتا لرائد الواقعية جالروس.

٤- تطور القصة القصيرة فى أمريكا اللاتينية.

٥- "موضوع الديكتاتور" فى رواية السيد الرئيس لكاتب جواتيمالا العظيم أستورياس.

٦- "التمرد النسائي في ثلاثية لوركا، برناردا ألبا، يرما، وعرس من الدماء".

٧- تجديد نظرية الأدب في قصة "حديقة الطرق المتشعبة" لخورخي لويس بورخس.

٨- ترجمة ودراسة مسرحية "أضواء بوهيمية" لباى إنكلان.

٩- ترجمة لثلاث قصص قصيرة، "قل لهم ألا يقتلوني" لخوان رولفو، "الدبوس" لفينتورا إندوراين، و"الأرض" لخوان بوش.

١٠- ترجمة ودراسة لرواية "بانديراس الطاغية لباى إنكلان.

المراجع فى سطور:

د/ محمد أبو العطا

- أستاذ الأدب الإسبانى والترجمة بكلية الألسن جامعة عين شمس.
- له نحو عشرين مجلدًا مترجمًا إلى العربية والإسبانية.
- راجع وقدم لعدد مماثل من الترجمات إلى العربية.
- رأس تحرير الدوريات العلمية والمجلات التالية: صحيفة الألسن (مصر)، مجلة فيلولوجى (مصر)، مجلة المعهد المصرى العالى للسياحة (مصر)، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية (إسبانيا).
- أسس ورأس تحرير مجلة الألسن للترجمة (مصر)، مجلة أزهار (إسبانيا).
- من بين من ترجم لهم: غرسية لوركا، وخورخى لويس بورخس وبيوى كسارس، وخوليو كورتاثر، وكاميلو خوسيه ثيلا، وغرسية ماركث، ورامون خوتا سندير، وخسوس بارود وإدواردو مندوثا، وأنخل بالوو وميمبو جارديناللى، وليوبولدو لوجونس، وفرانثيسكو برينيس، وخوسيه ماريا

ألبارث، ودييجو بالبيردى، وداريو بييانويبا، وخوسيه ماريا بينيا ليستى، وأنا ماريا جاروته.

- ترجم عددًا من الدراسات الأدبية إلى العربية أهمها: مجلد "مسار الرواية الإسبانو - أمريكية" ومجلد "الرواية الإسبانية المعاصرة"، فضلا عن ثلاثة منتخبات شعرية من العربية إلى الإسبانية والعكس.

- له نحو خمسين دراسة بالعربية والإسبانية نشرت بمصر والخارج، فى مجالات الأدب الإسبانى والأدب العربى والترجمة.

التصـحيح اللغوى: وجيه فاروق

الإشراف الفنـــى: حسن كامـــل



ببيتا خيمنث هى أولى روايات باليرا وأهمها، نشرت عام **1874**، عندما كان الكاتب فى الخامسة والخمسين من عمره، نشرت أولاً فى مجلة إسبانيا على حلقات من مارس إلى مايو، ثم تحولت إلى كتاب بعد ذلك مباشرة. وهى فى أساسها حدث حقيقى فى حياة باليرا، حدث قريب جدا منه، وقع لأحد أفراد عائلته الخاصة.

إنها رواية سيكولوجية مع بعض الملامح من التقاليد والعادات فى إقليم الأندلس بجنوب إسبانيا، وهى رواية رسائلية قوامها خطابات يرسلها البطل إلى عمه الأسقف، يعكس فيها التطور النفسى الذى يعانى منه، والذى هو عقدة الرواية (الصراع بين الشعور الدنيوى والشعور الدينى).



الإبداع القصصى